هدية العدد

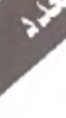

كتاب دبي الثقافية ١٣٢

أغسطس ٢٠١٥

جائزة دبي الثقافية للإبداع

الدورة الثامنة ٢٠١٢ - ٢٠١٣

المركز الأول في الرواية

النحتُ في صُخورِ الألماس

ميسرة الهادي

مدونة ابو عبدو

50/1

كتاب
دبي الثقافية
يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار ١٣٢

النحتُ في صُخورِ الألماسَ

رواية

ميسرة الهادي

■ الطبعة الأولى، أغسطس ٢٠١٥
■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

المدير العام رئيس التحري
سيف محمد المري

مدير التحرير
نواف يونس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن
دار الصدى للصحافة والنشر

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ / ٩٧١٤
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/٩٧١٢+

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/٩٧١٤+

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «النحتُ في صُخورِ الألماس» للكاتب والروائي ميسرة الهادي، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعـزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه من قرائنا الأعـزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصدارات التي نقصد بها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

أتعرفُ ما الذي تعنيه كلمة «رواية حقيقية»؟

إنها تسألُ السؤالَ الحقيقيَّ الدائم: لماذا نفعلُ ذلكَ بأنفسِنا؟!

لماذا نعذبُ أنفسَنا بأيدينا؟!

الإهداء

إلى التي تسللتْ خلف الجدار لتلقِ عليّ وروداً وأنا أكتبُ هذه الرواية..

إلى التي سكنتْ عُمراً أمامي تتأمل تعابير وجهي وأنا أنحت..

إلى وفاء..

أحبكِ وأكثر..

وكل كلامٍ عدا ذلك لا يليق!.

إلى رفاق السلاح في الكتيبة ٦٥ د. أ. الذين نشأت بينهم هذه الرواية.

وإليَّ.

ميسرة الهادي

تشوهُ المتاهات

لم تكن المرة الأولى التي أركب فيها طائرة. لكنها المرة الأولى التي أطير فيها خارج مصر.

على باب صالة المغادرة وقف صديقي الوحيد ط ليودعني. د لم تأتِ. زوجتي لم تأتِ، ولها أسبابها. أخي أيضاً لم يأتِ، ربما لأنه لا يعرفه.. ربما لأنه لا أحد فيهم يعرف، وحتى لو عرفوا جميعاً ما أتوا!.

يحتضنني ط ويمازحني: أنت ذاهبٌ لبلاد الكفر فانتبه لنفسك جيداً. ضحكت وأنا أبادله الأحضان: ألستَ أنت من يقول: الكفر هنا أفظع من الكفر هناك! انتبه أنت لنفسك يا متحذلق. ابتسم وشدني من ياقتي: لا أريدك أن تعود وقد صارتْ لكَ عشيقة كما يحدث دائماً في الروايات. قلت: هذا في الروايات الرخيصة التي تكتبها!.

طغى صوتُ طائرةٍ ما تهبط أو تقلع فلم أسمع ما قاله ط بعد الضحك، ربما يكون قد أشار إلى أنه لم يكتب رواياتٍ بعد.

على السادة ركاب الطائرة المتجهة إلى ل التوجهَ إلى....

الكثير من التلويح بالأيدي، وحقيبتي الصغيرة أجُرّها جانبي، وقد صارت كل رفاقي، وكل عالمي.

أومأت للمضيفة وأحكمت حزام الأمان حول وسطي كما أشارت. تطلعت إلى الذي جلس جواري، بياضه المشرب بحمرةٍ أوروبية جعلني أستشعر حنيناً عاتياً، وواتتني رغبةٌ مجنونة في الهرب من الطائرة قبل إقلاعها.

هدأت أنفاسي مع تحليق الطائرة. أشعر كأنما أنا بطل روايتي المفضلة: مسافرٌ لا يرغب في بقائه أو ذهابه أحد. لا يعرف له القارئ اسماً كأنما هو لا شيء أو كل الأشياء، كل الناس، كل الأبطال. أهذا نوعٌ مختلفٌ من الغرور البشري، أم هو شكلٌ من التواضع؟! لا أدري. أزحت ستارتي قليلاً أرمق الدنيا من الأعلى. ما أبسط الدنيا من الأعلى!. تشبه ألعاب المتاهات التي كنت أبحث عنها في مجلات علاء الدين وسمير. أستشعر لذةً طاغية وأنا أقود البطل التائه بقلمي الرصاص نحو بوابة الخروج من المتاهة. أتخيل نفسي بطلاً تائهاً، فمن يرسم لي بوابة الخروج؟ أحمد الله على أنه الله!. هو في الأعلى يعلم كيف يخرجنا جميعاً من متاهاتنا، أنا كنت أخطئ بقلمي الرصاص وأضطر أن أعيد الكرّة مرات. أنجح في إخراج البطل من متاهته لكن بعدما أجعله يعاني تيهاً، ويصير شكل حياته مشوهاً. الله يعلم أقصر السبل وأيسرها، يعلم أين يجب على القلم الرصاص أن يرسم خطوطه من المرة الأولى. ربما

جئنا هذه الدنيا فقط كي نبحث عن خطوط أقلامنا الرصاص. أليست رحلتي هذه محاولة لإيجاد خطوطي الخاصة؟ ألا أبحث دون كلل عن المخرج من متاهتي المشوهة التي استشرت فيها الخطوط كأذرع أخاطيب دون جدوى ودون وصول؟! كل خطٍ انتهى بحائل، وكل طريقٍ بسد.

طوال عمري أحب السفر والترحال. ودائماً أقول إني أعشق الاستقرار. أفسر الأمر وأقبله على أني شخصان متناقضان، وأحياناً أتفلسف وأقول إني أجد في السفر الاستقرار الذي أبحث عنه. ضايقت هذه الفلسفة أبي كثيراً لما رددت عليه بها حين حاول أن يثنيني عن قسم الأدبي، وكلية الآثار التي اخترتها. كاد ينتزع الشعرتين الباقيتين فوق جمجمته غيظاً، وهو يصرخ بعلو صوته إن ابنه حمار وابن ستين كلب؛ لأن ذكائي وتفوقي الملحوظين في سنيّ الماضية بالتأكيد يؤهلاني لدخول كلية الطب، وأنا أرفسها كالحمار، وأفضل كلية المقابر.

هكذا يتحدث عن تاريخ الأجداد. ينفعل وتحمر صلعته وتنتفخ عروقها وهو يقول: أي تاريخ عظيم؟! استعبد فرعون تلو فرعون آلافاً مؤلفة، وقتل مئات الآلاف من أجل ثلاث مقابر في صحراء قاحلة! أية عظمةٍ في هذا؟! فأغتاظ وأرد عليه بصوتٍ أعلى: تلك المقابر الثلاث بقيتْ على وجه الدنيا سبعة

آلاف سنة لتخبرك أنك لو أتقنت العمل وأبدعت فيه سيكون خالداً حتى لو كان مقبرة! هذه الأهرامات التي تسخر منها هي شيء يذكرنا بماضينا حين كنا نتقن عملنا، دعوةٌ لنقارن بين حالنا وحالهم، بين إخلاصهم في صنعهم وإخلاصنا!.

أشاح بيده ووجهه معاً: يغور الإتقان إن كان نابعاً من لسعات السياط. ثم أتترك الطب لأجل موتى؟! يمكنك بالطب إن أخلصت فيه كما تدعي أنك تعلمت من تلك المقابر أن تنقذ أرواحاً وتريح أنات لا تُسمع مقهورةً خلف جدرانٍ من القش والخشب المسروق. بعنادٍ أجبته بأن ما يقوله رائع وفيه خدمة إنسانية جليلة، لكن تعليم الناس ماضيهم سيساعدهم على بناء حاضرهم ومستقبلهم. ظل ينظر لي ولم يزد، ثم سكن قليلاً يحتدم الصراع داخل نفسه. بعد برهة قام قائلاً: أنا لم أجبرك يوماً على أي شيء، منذ صغرك وأنا أضع أمامك الخيارات، أقول لك الصواب من وجهة نظري، وأعرفك الحلال من الحرام، وأترك لك الاختيار، لن آتي في هذه وأحشر أنفي، هذا مستقبلك وأنت حر، لكن لا تقل بعد ذلك حذرني أبي ولم أسمع كلامه!. قفزت فرحاً وهو يكمل: اذهب لعلك تكون على صواب وأنا المخطئ.. ربنا يوفقك.

لم يجبرني أبي يوماً على شيء، في الواقع لم يكن يجبر

أي أحد!. حتى أمي حين طلقها كان باختيارها، لم يجبرها على الحياة معه مرغمة. أتذكر كل ما دار قبل الطلاق، وأتذكر ارتياحي وأخي كثيراً حين تم.

كان ذلك وأنا في الجامعة، ربما لأجل هذا تحديداً كنت من الأوائل على الكلية. أضع همي في المذاكرة وصور رع وأمنحتب وآمون وإيزيس وقصصهم المليئة بالصراعات، متمنياً أن ينتهي صراع أبي وأمي كما تنتهي كل الصراعات الأسطورية، فينتصر الخير والحق والجمال، ويتزوج البطل البطلة وتصير الأسرة سعيدة إلى الأبد!. لكن صراعهما لم يكن أسطورياً لينتهِ نهايةً أسطورية. تلك الأيام زار الناس بيتنا بطريقةٍ جعلتنا نندم على تساؤلنا يوماً: لمَ لا يزورنا أحد. كلهم يقولون الكلام نفسه، يجلس الرجال منهم في الصالون يتحدثون مع أبي، وتذهب نساؤهم إلى الداخل فيتحدثن مع أمي في الصالة، ثم ينتهي المقام بهم ليجتمعوا مع نسائهم ويجلسون معنا أنا وأخي في غرفة نومنا الصغيرة، يقولون إننا لم نعد صغاراً وإننا الآن رجال كبار يُعتمد عليهم، وعلينا بقدرة قادر أن نصلح ذات بين أبينا وأمنا، فلا أحد يستطيع ذلك غيرنا. أخي صامتٌ، ينظر إلى الموكيت الرصاصي المليء بالبقع الرمادية، فيوجهون حديثهم نحوي تحديداً ويكملون أني الأخ الأكبر، والأخ الأكبر دائماً يتحمل المسؤولية، وأني

يجب أن أنتبه لدروسي وآخذ بالي من أخي ومذاكرته، أخوك الآن في الثانوية العامة وبابا وماما حالهم سينصلح إن دخل كلية محترمة كالطب والهندسة، يحب الحقوق؟ لا مشكلة فليدخل كلية الحقوق ولك يا سيدي سنجعله يعمل مستشاراً في شركة عمك فلان، أو محامياً في مكتب عمك علان المحامي الكبير. ثم يربتون على كتفي ويتساءلون عن حالي في الكلية وإن كنت أحتاج لمساعدة. أعرفهم وأدرك أنهم لا يفقهون أصلاً ما الذي أدرسه في الكلية، أحاول ابتلاع ريقي رغم الغصة في حلقي فيبدو ذلك لهم غمغمة شكر، فيختمون حديثهم بتدليلي وأخي ويوصوننا بأبوينا وأن ليس لنا بركة غيرهما.. ثم ينسون أمرنا تماماً!.

أحياناً كان بعضهم يحدثني في المشكلة نفسها عله يفهم مني ما لم يفهمه من طرفيها. مرةً أقول: أبي المخطئ. وأخرى: أمي المخطئة. الآن بعدما تزوجت ع لم أعد أدري من منهما أخطأ الخطأ الحقيقي، لم أعد متأكداً من أن ثمة خطأً أصلاً كان هناك. أنا لن أظلم أحدهما، هذه قصتهما وهما كانا أجدر بوضع نهايتها. هذه النهاية أتت على يد شيخ بقفطان وعباءة بنية، له لحيةٌ بيضاء، يمسك بيده دفتراً وفي الأخرى مسبحة، يتمتم باسم الله كثيراً، يخرج منديله الأبيض القماش كثيراً ليمسح عرقه الغزير. يقول لأبي إن أبغض الحلال عند الله

الطلاق. وينظر إلى أمي ويخبرها أن الصلح خيرٌ واذكروا المودة والرحمة والمعروف بينكما. كلمة على يمينه، وأخرى على يساره، ثم يقول ببيروقراطية وقد أرضى ضميره أمام نفسه: فتسريحٌ بإحسان.. اسم الزوج مثل البطاقة؟.. اسم الزوجة؟.. وقع هنا من فضلك.. وأنتِ هنا من فضلك.. الآن لن تستطيع أن تتزوجها مرةً أخرى قبل أن تتزوج غيرك في الحلال.. وضغط على كلماته الأخيرة. ابتسما ففكرة المحلل لم تكن أصلاً في الحسبان لأنهما انفصلا بلا رجعة.

ربما تلك هي المرة الأخيرة التي تبادلا فيها الابتسام.

* * *

وكأن كلَّ شيءٍ جميلٍ في الدنيا بعمر، والقبحَ خالدٌ. كلُّ الأشياء الجميلة تموت. اللحظاتُ السعيدة تموتُ ولا يبقى سوى ألم فقدِها. أما التعسة فتبقى ويبقى ألمُ احتمالِ تكرارها.

لماذا دائماً تتشوه متاهاتنا؟ لماذا نكتشفُ دائماً أن الطرق التي اتخذناها كانت خاطئة وأنها لم تقدنا إلى النجاة إلا بعدما نصل إلى السد؟ ننتبه فجأةً إلى أن كل ما راح كان بلا جدوى، لم نحظ منه سوى المعاناة. أبي وأمي اكتشفا فجأةً بعد عشرين عاماً أنهما قد شوها متاهتيهما بهذا الزواج. بعد عشرين عاماً قررا أن هذا حائل وذاك سد، وأن حياتهما سوياً لا تُطاق ولا معنى لها، وأن كل الماضي عبث. ربما لم يكن السبب

هو المشكلة الكبيرة التي حدثت بينهما. أتذكر مواقف صغيرة مضت لهما وأنا بعدُ صغير. ربما هي تلك الأشياء الصغيرة تتراكم، تتزاحم، فتطفح. مثلاً أتذكر ذلك الأسبوع الذي ذهبنا فيه إلى رأس البر. كان ذلك مكافأة لي وأخي لأنا كنا من الأوائل على المدرسة. عشة صغيرة تابعة للنقابة التي يتبعها عمل أبي، والنقابة وضعت تخفيضات وقتها، كنا في سبتمبر حيث انخفض السعر إلى حده الأدنى لقلة الذاهبين، فحجزنا أسبوعاً كاملاً.

العشة من ثلاثة أدوار، كلُّ دورٍ فيه شقتان، ونصيبنا كان إحدى شقتي الدور الأرضي. لم تكن فاخرة جداً، لكنها حميمية، ثلاث حجرات، وفرندة واسعة تطل على الشارع ولها باب خشبي يشبه حدوة الحصان، حين تدفعه وتدخل أو تخرج يظل يذهب ويعود، يذهب ويعود، حتى يهدأ ببطء. نضع الكراسي البلاستيكية البنفسجية والخضراء في الفرندة بالنهار، ولا ينسى أبي أن يزعق حين نجرها على البلاط ويأمر بحملها. ووسط الكراسي، المنضدةُ الصغيرة عليها المروحة التي جلبناها معنا. ونلعب جميعاً بالكوتشينة أو نتنافس في دور دومينو زوجي، أنا وأبي ضد أخي وأمي. بالطبع كانت «التندة» الكبيرة التي تُفرد بذراع يُلف حول نفسه مفرودة، كي تحمينا من قيظ النهار وحرارة الشمس، ولا تحرمنا في الوقت نفسه

من الهواء المليء باليود الآتي من ناحية البحر القريب.

يُوضع المسجل الأسود الصغير على سور شباك الحجرة التي تطل على الشرفة، ويصدح منه صوت أم كلثوم وهي تحكي أنهم وصفوا لها الصبر فوجدته خيالاً وكلاماً في الحب، أو أن الأيام دارت ما بين بعادٍ وخصام، أو حتى تتساءل هو العمر فيه كم ليلة زي الليلة. أمي تحفظ أغانيها تماماً، ويحاول أبي منافستها ومعرفة الأغنية التي ستغنيها الست من موسيقا البداية، فيفشل دائماً وتهزمه أمي، ثم ينتشيان معاً وهما يسمعان آهات الست، ويتمايلان مع صوتها الدافئ وهي تحكي عن لحظة عتاب أو لحظة حب. نتركهما في حالتهما هذه وقد أدركنا أنهما لم يعودا يرغبان في مواصلة اللعب. نحمل مضربي »الراكت«، وننزل إلى الشارع من باب البندرة الخشبي. نظل نلعب حتى يغرقنا الضحك والتراب والعرق والتعب، فنعود إلى العشة، نجد أبي قد نام، وأمي تجهز الغداء، وربما نستحم تكون انتهت من صينية البطاطس بالطماطم والبصل، وأجزاء الدجاجة الأربعة مفسوخين وسطها، تقوم بتسخين أربعة أرغفة، ورغيف خامس زيادة لأبي. نذهب إلى أبي نوقظه، ثم ننهي الطعام فنتقيل كلنا، وقد اتخمت بطوننا. نستيقظ بعد العصر بقليل فنذهب إلى البحر حتى المغربية.

أفرحُ دائماً برؤيةِ البحر.

ضحكاتي وأخي دون سبب بالتأكيد كانت توضح فرحتنا ونحن في الطريق إلى البحر، ونظرة الشوق مختلطة بالفرح في عيوننا الصغيرة ترسم البسمة على وجهي أبوينا. أول ما نراه ننسى العالم وما فيه. نقفز نحوه نعانقه كأنما نريد أن نبقى داخله ويبقى داخلنا إلى الأبد. لكن ماءه يتسرب من بين أيدينا ويتسلل تحت ملابسنا يدغدغنا فنضحك، يداعبنا وينادينا بصوتٍ يملأه المرح كي نتوغل أكثر فيه، ونمضي ذاهبين لا ننظر خلفنا، وكأن البحر يقودنا إلى حياةٍ أفضل، وخلفه سنطلع على الغيب ونعرف كل المجهول. مدفوعان مسحوران بزرقة مائه، ونسمة هوائه، ورقة موجه. ولولا يديّ أبي اللتان تمسكان بنا لعبرنا البحر إلى إيطاليا. يظل يسيطر علينا حتى يصل بنا إلى منطقةٍ وسط. فيبدأ يعلمنا الغطس والسباحة، وينافسنا في طول النفس. وأمي على الشاطئ تشير إلينا أننا توغلنا أكثر من اللازم، فيضحك أبي ويغيظها ويتوغل بنا خطوةً أخرى. يكون المنقذ يصفر لأشخاص قد وصلوا للصخور البعيدة، لكن أمي من خوفها تحسب صفيره لنا فتظل تنادي وتشير إلينا كي نخرج، يضحك أبي أكثر ويأمرنا أن نتجاهلها ونظل نمرح في الماء، حتى تغرب الشمس ويمتزج

البرد بالهواء رويداً، فيصير وقت الخروج، ولما نصل إلى أمي تضربنا، وتصرخ في وجه أبي.

– إنتِ عايزة العيال يطلعوا جبنا؟

– جُبنا جُبنا أحسن ما يغرقوا ولا يجرى لهم حاجة.

ثم يُلقي كلُّ واحدٍ فيهما بلومِ على الآخر وأنه لا يفهم في التربية، وأن كلَّ واحدٍ فيهما يمشي بدماغه منذ أن تزوجا. نعود إلى العشة صامتين والجباه متأففة والحواجب منعقدة، نستحم ثم نخرج إلى السوق ونحن لا نزال على صمتنا، أو لا نخرج ونظل جالسين نتطلع إلى بعضنا هكذا وقد عرفنا أن اليوم قد خرب.

يأتي العَشاءُ فيذهبُ أبي وحده لشراء حباتٍ من الطعمية وبجنيه فول، وقد تقول أمي إنه لا نِفس لها، فيبرطم أبي بكلماتٍ لا معنى لها عن المصيف الزفت ويدخل لينام، وتتساءل أمي والبراءة في عينيها: هو ماله ده؟ هو أنا قلت حاجة؟ فلا يرد عليها أحد. نتعشى أنا وأخي ونحن نكاد نبتلع الطعام، ثم ندخل جميعاً لننام وقد بدا لنا المصيف كئيباً جداً. أو لا تقول أمي شيئاً ونجلس جميعاً نأكل وكأن شيئاً لم يكن، ولكنا حين نخلد للنوم يبدو لنا المصيف رغم ذلك كئيباً أيضاً.

* * *

ربما لأجل تلك العلاقة المضطربة أحياناً والراكدة أحياناً

أخرى بين أبوينا، صرت وأخي صديقين بطريقةٍ أو بأخرى. صرت؟! قل كنت.. قل كنا!

أتذكر يوم أن كان أخي الأول على المحافظة في الثانوية العامة، فرحتُ كثيراً. أخذته لنأكل في أكبر مطاعم المدينة. حدثته في كل شيء وعن كل شيء، عن البنات الفاتنات اللاتي سيراهن في الجامعة، وعن التغير العقلي الذي سيطرأ عليه، وأخذت أعطيه خلاصة سنتين في كلية الآثار ومع الطلبة الجامعيين، وهو ينصت باستمتاع كأنه يشاهد فيلماً أمريكياً على القناة الثانية.

أخبرته بخبرتي الجامعية أن السياسة أمرٌ محرمٌ علينا كحرمة لحم الخنزير، فابتسم قائلاً: ولكني سأدخل كلية الحقوق، كي أحضر لكل إنسان مظلوم حقه، وأعطي كل ظالم جزاءه، ثم أنا أريد أن أرأس جمعية حقوق الإنسان العالمية، كي أنصر كل المظلومين في كل العالم. وتقول لي السياسة محرمة؟ وما الحقوق إذاً؟

ضحكتُ: لو أن أباك سمعك وأنت تقول هذا لقال لك: تترك الألسن والتربية وتريد أن تأتي بحقوق الناس؟ أنت لو علمت الناس سيقول لك تعليماً صحيحاً، سيعرفون كيف يحصلون على حقوقهم ولن يسمحوا لأحدٍ بظلمهم.. أنت تستطيع أن تحضر حقوق كل المظلومين بالتعليم الحق. أنت أصلاً حمار

وابن كلب مثل أخيك.

قلت الجملة الأخيرة بصوتٍ يطابق صوت أبي، فضحكنا. كم اشتقتُ إليهما!.

مصاحبةُ الرجل المتذمر

ولماذا أبي وأمي وأخي الآن؟ أبدأت وصلة تعذيب الذات وتخيل أشياء سيئة ستحدث لهم، ولوم نفسي لأني لم أسلم عليهم ولم أخبرهم حتى أني مسافر؟ وماذا كنت سأقول؟ هم يحسبون أني الآن مع فوج سياحي في الواحات. هذا أفضل، لو كنت قلت لسألوا أسئلة كثيرة عن غرض السفر، وربما قد يجمح تفكير أمي وتميل عليّ: هي ع فيها حاجة لا سمح الله؟ يعني لم تجدها آنسة؟ أخبرني أنا أمك. سأفزع: لا يا أمي. لا. فتقول هي: رغم أني ألحظ أنك متغير كثيراً منذ الزواج. سأغمغم: ليس لأني مسافر بعد أربعة أشهر فقط من زواجي، يكون ما تقولي. كل ما في الأمر أني مسافر لأصلح الكون. لأبني لنفسي بوابتي. مسافر لأني مثله بطل روايتي المفضلة ضقتُ بالجدران وضجت بي. مسافرٌ لتحقيق حلمٍ مستحيل، وأملٍ يكاد يكون خرافياً.

والآن أنا أكذب!.

اعترف أيها الكذاب. أنت هارب. هاربٌ منها ومن نفسك ومن ط صديقك. بالتحديد هارب منها. من رائحة الهواء الذي صار يحمل عطرها دائماً. ومن لون الليل الذي يتلون بلون عينيها

دائماً. منها ومن أخرى تتبختر فوق الذكريات التي تعود.

ندمتُ كثيراً حين أسرَّيتُ لـ ط. صارتْ رؤيته تذكرني بالسر، فأزداد ألماً فوق ألم، وشوقاً فوق شوق. ربما ط شجعني على السفر مراعاةً لمشاعري المحترقة ونفسي المضطربة، كأنما يراني بطلاً في إحدى رواياته التي لم يكتبها بعد فأشفق عليّ. ط صديقٌ مخلص. أذكر يوم أن تلاقينا لأول مرة. ابتدأ وقتها عملي بشركة السياحة، في الواحات الداخلة وسيوة والخارجة والفرافرة. ذلك العالم الأصفر الأزرق الأخضر، العالم البكر الحقيقي. استهواني المكان جداً، بخاصة الواحات الداخلة، فطلبت أن أعمل فيها بالتحديد، أرسلوني مع المرشد القديم لأتعلم تاريخ الأماكن وأحفظه عن ظهر قلب. أستقل معه الأتوبيس الأحمر الضخم المكيف من القاهرة، وأتعلم منه أصول المهنة، كما يحب أن يقول وهو يعتد بنفسه ويخبرني أنه يعمل مرشداً منذ إحدى عشرة سنة. يحب التفاخر دائماً بأنه حافظٌ جيد للتاريخ. يوم مررنا على الفيوم أخذ يحكي قصة قارون اليهودي وكيف أن طمعه وتكبره أغرقاه، والسياح مستمتعون يضربون بفلاشاتهم هنا وهناك، وتعتريه متعة العالِم بكل شيء. يحكي بصورةٍ مجردة، لا يتوجع لأن بداخل كلِ منا قارون آخر، قارون ربما لا يرغب في المال، وإنما في الجمال، أو في الحب، أو العلم، أو يرغب في المجد، قارون

يشتهي فقط الحياة، يطمع فيها، وعلينا كل لحظةٍ أن نسيطر عليه، وألا نجعله يسوقنا. لا يستشعر كل ذلك إنما هو يحكي فقط. حتى حين يسأله أحدهم عن أي شيء، لا يرد، يكمل كلامه كآلة أو مدرس للتاريخ في مدرسةٍ حكومية، جميلة ونظيفة ومتطورة. والحقيقة أنه يملك معلوماتٍ كثيرةً جداً وغريبة، أحياناً أحسبه يلفقها من خياله. كتلك المعلومة التي قالها عن سر تسمية كثير من البلدان المصرية بأسماء يسبقها (مِيتْ).. ميت عنتر.. ميت غمر.. ميت سلسيل.. ميت مزاح.. ميت عدلان.. ميت عابد.. فسر ذلك على أن تلك الأسماء كانت أصلاً أسماء لقادة المماليك. وأثناء الحروب كانت تلك القرى والبلاد الصغيرة في الأصل ثكنات عسكرية لهؤلاء القادة وكتائبهم، وكل كتيبة تحوي مائة جندي، فصارت ثكنة القائد عنتر هي ميت عنتر، وهكذا..

وأيضاً تلك المعلومة التي قالها لي وهو يبتسم عن سر تعبير كلمة الكوسة عن الواسطة، حكى أيضاً عن عصر المماليك، أنهم فرضوا ضرائب على السوق قبل دخول البائعين إليه. البائعون يقفون طابوراً لدفع الضريبة قبل الدخول، يأتي بائع الكوسة فينادي أنه يحملها، يوسعون له الطريق، لأن الكوسة هي أسرع خضار يتلف من الشمس، ثم بالوقت صار دائماً باعة الكوسة في مقدمة الطابور.

أتخابث قائلاً: يبدو أن عصر المماليك حفر في ثقافتنا علامات كثيرة. لا يرد. يدرك أني أستدرجه لحوار عن عهد المماليك الذي لا يفقه فيه شيئاً. هو آلة لا يوجد في برنامجها سوى الحفظ، فلم يتجاذب معي حديثاً متخصصاً قط خوفاً من الاحتراق.

شعرتُ كثيراً أنه لا يحب التاريخ قدر ما يحب الحفظ! لو كان موظفاً في السجل المدني، لحفظ كل المواليد: أسماءهم وعناوينهم وأرقامهم القومية أيضاً. فهو حين يصف شيئاً عظيماً بناه الأجداد، يتحدث عنه كما يتحدث عنه أي كمبيوتر، يخبرك عن طوله وعرضه وارتفاعه والأدوات التي استخدمت لبنائه ومن بناه ولماذا بناه ومتى بناه وفي عهد من، لكنه لا يلتفت قط لذلك الجمال في وجه تمثال أو الحزن في عيني آخر، ولا ينتبه لاختلاف المعمار القبطي عن المعمار الإسلامي عن الفرعوني عن اليوناني. لا تشغل رأسه تلك العظمة في بقاء كل تلك الآثار حتى اليوم. يقول: هم صنعوها وماتوا كي نستفيد نحن، فليرحمنا ويرحمهم الله. أسميه بيني وبين نفسي: (الثلاجة) والاسم يليق عليه فعلاً. باردٌ جداً ومعتد بنفسه، كما أنه وسيلة جيدة للحفظ!.

تلك الأثناء قابلت ط..

في الأتوبيس الأحمر إياه، و(الثلاجة) يتكلم كعادته،

ساعتها كنا نمر على واحة سيوة في الطريق إلى الواحات الداخلة محطتنا الأخيرة. الشمس مذبوحة في الأفق، تستنقذ الكون مطلقة أشعتها الدموية المشتعلة من عقالها، فتجرح السماء، وتفتن الأرواح، تخترق الصدور فتنفذ إلى النفوس، تبحث مسعورةً عن كل الذكريات الحزينة، تبرزها وتفجر الشجن. بضع نخلات على جانبٍ ساكنة، والهدوء يخيم على كل شيء، كأن جوقة موسيقية تعزف لحناً حزيناً فحزن له كل شيء، حتى الهواء حزين هامد، لا يحرك النخلات. مراسمٌ ملكية لتوديع النهار الطيب وتتويج الليل المقيت.

تسيدت الجمع رهبةٌ منعتهم حتى من رفع عدساتهم، خوفاً من تدنيس تلك اللوحة البديعة المليئة بكل جمال وشجن الدنيا، بالموت.

الكل ما عدا الثلاجة!.

كان الجالس جواري منتشياً بما يرى، حانقاً على الثلاجة، يدمدم وهو يتطلع من نافذة الأتوبيس، ويلقي اللعنات، ثم التفت نحوي بجانب وجهه غاضباً: فليقطع أحدٌ هذا اللسان البغيض، لقد شوه الزمن.

يبدو أنها المرة الأولى لكَ التي تسمعه فيها. قلتها مبتسماً محاولاً إضفاء بعض الأهمية على نفسي.

أجاب: بل هي المرة الألف! ثم دار بوجهه كله وابتسم: هل

هو قدرك المشؤوم؟ أرسلوك كي تتعلم على يديه أصول المهنة؟

أومـأتُ بـالإيجاب مندهشاً، فقال: يـا مسكين أنـتَ لست أولهم!. وضحك.

ضحكت لضحكه وقلت: بشرك الله بـالخير!. ولكن هل أبدو كالمسلة؟! أعني من أين عرفت؟

– كلكم تبدون بـالمنظر نفسه، متفائلين، تحاولون تسجية الوقت بمصاحبة ذلك الرجل المتذمر، على الأقل كي يشارككم أحد تذمركم.

– من الواضح أنك عميل دائم للثلاجة.

– الثلاجة؟! هل هذا مـا تطلقه عليه؟ تصدق بـالله معك حق. هو أشبه بـالثلاجة فعلاً.

ثم سكت قليلاً وقـال بجدية: أخبرني أهذه مرتك الأولى في الواحـات؟

– لا. هي الثانية.

– إذاً دعني أنـا أريك الواحـات كمـا لن يريهـا لك الثلاجة.. فلتجرب الفرن.

كان بـالفعل فرناً، نشيطاً كعصفور، يستيقظ مبكراً فينزل إلى اللوبي، يفطر إفطاراً سريعاً، ثم ينتظر لدقيقة، إن لم أكن نزلت لا ينتظرني، ويبدأ جولته وحده، فـأهرول وراءه على بـاب الفندق. لمـا سألته لمَ الاستعجال، أجاب بـأنه ليس لديه

ما يكفي من الوقت والمال للبقاء هنا غير ثلاث ليالٍ، وهو لا ينوي تضييع لحظة واحدة منهن لا يستمتع فيها بالتاريخ.

بدأ معي جولته الإرشادية بمدخل الواحات الداخلة. كنت قد رأيت منطقة درب الغباري تلك من قبل، كنت أعرف أن الطبيعة نحتت صخوراً فيها أشكال بعينها، فمثلاً هناك صخرة ضخمة على شكل جمل، وأخرى تشبه البقرة، لكني حين رأيتها بعيني ط، اختلفت رؤيتي تماماً. جذبني من يدي كطفل وأراني الجمل والبقرة وعش الغراب. أهز رأسي أعلن له أنه لا يريني شيئاً جديداً، فأخذني نحو ربوةٍ عالية ثم أشار إلى تكتل من الصخور البعيدة. لوهلةٍ لم أنتبه، لكني حين أفقت أصابتني رجفة واندهاش، وكدت أصرخ، وأنا أتلعثم: تبدو.. تبدو..

ولم تسعفني الحروف فأكمل لي جملتي: تبدو كمدينة كاملة.. مدينة كاملة من الرمال.. أليست؟!

رددت منفعلاً: بلى بلى.. مدينة كاملة.. تبدو كمدينة كاملة.

– أنت لم تشاهد ما نُقش على تلك الصخور بعد! تعال.

قادني من يدي كطفل مبهور بلعبةٍ جديدة، ليريني تلك المخربشات البدائية لإنسان ما قبل التاريخ، تلك المخربشات التي تصور الإنسان بعدما عرف الزراعة واستأنس الحيوان، فهناك صورة نخلة وصور لحيوانات الركوب. قال لي إن العلماء قدروا أن تلك الرسومات ترجع إلى العام ٥٠٠٠ قبل

الميلاد. أخذت أتطلع إلى الرسم دون أن أتكلم.

– كأن هنا بدأ الخلق!.

زفرها وتنهد، وقف جواري ليحملق في كل شيء: السماء الصافية القريبة التي تظن لوهلة أنك لو قفزت ستخترقها، والرمال البيضاء المنبسطة في الأفق، وكل تلك الصخور الرملية التي بدت كمعرض ضخم لفنان تشكيلي عبقري..

هزني لأفيق: وفر بعض الانبهار، فأنت لم ترَ كل شيء بعد!.

– أحقاً؟ أهناك مكانٌ أجمل من هنا؟!

– نعم.. وأشار بيده بعيداً.. هناك!.

* * *

أراني كلَّ الآثار التي رأيتها من قبل في مرتي الأولى في الواحات، لكن بعينيه كان كل شيءٍ مختلفاً، وكنتُ أنا المرشد السياحي أستمع إليه وهو يحكي تاريخ كلِّ شيء..

أراني مصاطب بلاط الست، مرفوعٌ عليها بعض البنايات لمقابر للأسرة الفرعونية السادسة، منذ عام ٢٤٢٠ قبل الميلاد، وأراني قرية موط القديمة، وهي عاصمة الواحات الداخلة، اسمُها جاء من (موت) زوجة الإله آمون، وفي وسطها آثار معبد لا تزال بعض أحجاره باقية، وبها أيضاً لوحة المياه الشهيرة التي يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية والعشرين عام ١٠٠٠ قبل الميلاد.

أراني مقبرة كتيانوس، مقبرة من الحجر الرملي، عليها نقوش تمثل الموت والتحنيط والبعث والحساب، وهي لحاكم روماني سميت باسمه، تقع تلك المقبرة في قرية البشندي، وهو شيخ القرية في العهد التركي، وبُنيت مقبرة هذا الشيخ من أحجار معبد فرعوني قديم، كان موجوداً بالقرية.

حدثني عن جبانة البجوات: لابد أن تراها قبل أن أريك مدينة القصر. لم أفهم لمَ، أو ما جدوى الترتيب، لكني أمام إصراره أذعنت، ورحلنا إلى الواحات الخارجة لنقضي بها يوماً، أراني فيه تلك الجبانة (المقابر)، سر تسميتها بذلك قال لي لأنها بُنيت على شكل قباب، ويرجع تاريخ إنشائها إلى عهود الرومان، عندما هرب الأقباط من الاضطهاد إلى الصحراء، في القرن السادس الميلادي، واستقروا في الخارجة، وحين شعروا بالأمان بنوا كنائسهم تلك التي رأيناها، وحدثني عن الرسوم في كنيسة الخروج، تلك الرسوم التي تحكي قصة خروج بني إسرائيل من مصر، يتبعهم فرعون بجنده، وأراني أيضاً معبد هيبس الذي يقع أمام جبانة البجوات، قال لي إنه يمثل عصوراً تاريخية مختلفة، فرعونية وفارسية وبطلمية ورومانية، وأراني صورة الملك مينا موحد القطرين في صالة الأعمدة الاثنتي عشرة بمعبد هيبس..

كذلك رأينا معبد الناضورة، الذي بُني في العصر الروماني، وكان به بقايا لغة هيروغليفية ونقوش بارزة، واستخدمه المماليك للاستطلاع لأنه يكشف الطريق لارتفاعه لمسافة كبيرة..

ثم بعد عودتنا إلى الداخلة في يومه الأخير في تلك الزيارة، أخذني إلى مدينة القصر، وكانت تلك مرتي الأولى بها. كان الخريف، والجو حارٌ نهاراً وليلاً معتدل، لكنه حذرني: أحضر معك جاكتاً ثقيلاً! تساءلت: لماذا؟! قال وقد بان عليه الغضب: تباً لذلك الثلاجة! يعلمكم الارتفاعات والإحصائيات ولا يقول لكم على درجات الحرارة؟! لم أفهم لكني نفذت كلامه. وحين وصلنا إلى مشارف المدينة القديمة، عند بابها أمرني أن أدخل نصف جسدي فقط! فعلت ما يقول، فانتاب نصفي الداخل برودة شديدة، وارتجفت وأنا أشعر أن نصفي الذي لا يزال خارج المدينة يستشعر قيظ الشمس، ولفح الهواء.

قال لي: إن درجة الحرارة في هذه المدينة أقل بنحو ١٣ درجة مئوية عن خارجها! تخيل؟! حكى أن تلك المدينة ترجع للعصر الأيوبي. تأملنا المئذنة الخشبية المكونة من ثلاثة طوابق بارتفاع ٢١ متراً، على الطراز المعماري الإسلامي القديم. كذلك الأعتاب الخشبية المنقوش عليها آيات قرآنية.

جلسنا داخل المدينة نستشعر جمال جوها، نأنس بنسيمها العليل وحرارتها المعتدلة، وسمعت سياحاً يقولون لبعضهم: من يزور مصر ولم يزر مدينة القصر الإسلامية كأنه لم يزر مصر على الإطلاق!.

* * *

قبل أن يغادر قال ط: أرأيت؟! هذا هو التاريخ الحقيقي! هذا البلد شاهدٌ على الإنسان منذ عرف الزراعة، ثم حين صار فرعوناً، ثم قبطياً، ثم رومانياً، وفارسياً وبطلمياً وأيوبياً ومملوكياً.. إن هذا البلد هو التاريخ الحقيقي! لكن لعلنا نتعظ!.

– لا أفهم! إن كل ما رأيناه رائع، لكن كيف سنتعظ؟ أتقصد على تأخرنا الآن؟! على جهلنا ومحاولاتنا اختيار هويات ليست منا في شيء؟!

ابتسم: أنت إذاً أضعت ثلاثة أيام من عمرك هباءً! أنت رأيت ما رأيت لكن ما زال ما في رأسك هو ما في رأسك! اسمع الحافلة ستغادر خلال دقيقة، ولا أريدها أن تذهب بدوني! تعرف أني لم أعد أملك قرشاً، ولا يمكنني البقاء هنا في ضيافتك، اسمع لا تجادل أنا أكره الجدال، أو على الأقل ليس هذا وقته، لقد انتهينا من الحديث في موضوع أن أبقى معك طوال الأسبوع، كرامتي تأبى هذا نهائياً، لكن أكيد حين سآتي ثانيةً إلى هنا

سأحادثك، لكني أريدك أن تنتبه إلى حقيقة ما رأيته خلال الأيام الثلاثة الماضية! انتبه! خذها من منطلق الأثر في الإنسانية! أتفهم؟!

: لا!

ضحك..

تبادلنا أرقام الهواتف و«الإيميلات»، ثم لوح لي وهو يركب الحافلة مبتسماً.

تلك الحُمَّى

لم تشر الساعة بعدٍ إلى مرور نصف وقت الرحلة. والاستغراق في الذكريات، يعيد أشياء لا أرغبها. أسافر هرباً من الذكريات، لكنها مصرة، تأبى أن تُنسى بهذه البساطة. لمَ لا أتذكر كل شيء الآن؟! لمتى سأظل أهرب من شيءٍ ليس بيدي ومما بيدي؟! لا يهم أن أكون قاتلاً أو مقتولاً، المهم أن أواجه هذا كله. حكمةٌ قديمة تقول: العيش في الماضي يدمر الحاضر والمستقبل. حسناً عشتُ في الحاضر، فماذا جنيتُ؟! قل لي أيها الحكيم ماذا جنيتُ؟! والآن أبحث عن المستقبل عله يكون أكثر حظاً من الماضي والحاضر. وها أنا الآن أردد الحكمة التي قالتها لي! ولمَ ظهرت د في حياتي كي تذكرني بها؟! كنت حسبتُ أن كل شيءٍ قد انتهى داخلي بالزواج، ربما قبل الزواج بكثير، ولهذا تزوجت!. أترى العكس هو الصحيح؟! أتراني تزوجت لأهرب بالزواج من كل هذه الذكريات؟ كي أصنع لنفسي وهماً أعيش فيه: وهم الزوج، ووهم الأب، ووهم العاشق؟! ربما!. لا أستبعد ذلك!. وكيف لمثلها أن تُنسى؟!

أشعر الآن بكل المشاعر، دفقة واحدة كأنما قررت أن تنتابني كلها فجأة. ذاك اليوم البعيد حين سجلتُ على ذلك

الموقع الإلكتروني باسم مستعار، كان هذا الاسم المستعار يعبر عني تماماً: التائه!. لم تكن هي باسمٍ مستعار، كانت باسمها المجرد، ح، تضع صورة لوحة الموناليزا كصورةٍ شخصية، قلت لنفسي ها هي واحدةٌ أخرى! تضع لوحة الموناليزا وتسمي نفسها اسماً يقول إنها متفتحة العقل، ثم ستقول إنها عذراء الربيع، وإنها رومانسية جداً، وكل هذا الهراء. كانت مواقع (الشات) تلك لا تزال جديدة علينا. في سنتي الجامعية الأولى، وشهوتي تحركني رغم كل شيء. سمعت قصصاً من الأصدقاء مليئة بالعهر، فقلت ولمَ لا؟ لمَ لا أجرب أنا أيضاً؟! المهم أني ضغطت على اسمها، فظهر صندوق حواري، كتبت لها: أهلاً.

وانتظرتُ لخمس ثوانٍ ثم كتبتْ هي: لحظة معلش.

قلتُ بدأنا في سري، ولم أكتبها، وبعد دقيقة وجدتها كتبتْ: يا الله! هذه الأغنية رائعة، لقد حسبت أمي أني جننت! ثم ضحكت!.

– أية أغنية؟!

– أتسمع أغاني أجنبية؟! أم ستقول إني أرسم عليك دوراً؟!

– لست سميعاً! لكن لا مشكلة أرسلي الأغنية.

– اسمع! اسمع! بدل هذا الهلس الذي يقدمونه لنا ويقولون عليه فناً!.

ثم أرسلت لي رابط الأغنية، وطفقت أسمع.

كانت الأغنية صاخبة حقاً، اسمها paper cut، لفريق أمريكي المفترض مما سمعته أنه يغني. كانت إزعاجاً بلا حدود. بخاصة وقتها كانت أغنية (القلب الطيب) و(تملي معاك) على ما أذكر هما اللتان تسيطران على الذوق العام.

كتبتُ: جميلة!

– كاذب! ثم ضحكتْ.

احمر وجهي لكنها أكملتْ كتابة: لم تعجبك أنا أعرف هذا، عموماً هي لا تزال تجربة، لكن هل فهمت ماذا يقولون؟! سأشرح لك، إنهم يتحدثون عن البارانويا، كل واحد فينا مجنون، هذه حقيقة، أما فكرة أن كل واحد فينا يعشق أن يكون مضطهداً؟! هذا هو الفن بعينه حين يكون في أغنية!.

– واو!. لم أفهمها بصراحة، اللحن صاخب جداً أنا أحب الأشياء الهادئة.

– حقاً؟! ألم تنتابك يوماً تلك الحُمَّى؟! أن تقوم وتصرخ في وجه ذلك كله؟!

– كانت تنتابني قديماً في مباريات المنتخب.

– ضحكتْ. لكني أتحدث جدياً. هذه الحُمَّى تنتابني كثيراً! قل لي من تحب أن تسمع؟!

– أحب زمان! أم كلثوم، عبد الحليم، وردة، فيروز، نجاة وشادية. من الجديد، ممكن محمد فؤاد، وعمرو دياب.

– آه أنت من عشاق الزمن الجميل إذاً! إنما محمد فؤاد وعمرو دياب؟ كيف؟ فيروز وهؤلاء؟! لا يستقيم الأمر!.

– لماذا؟! لهما أغان جميلة!.

– آه أنا معك! أنا لا أتحدث عن شخصٍ بعينه، أنا أتحدث عن الفن نفسه. دعني أشرح لك، انتبه لأي شريط من هذا الجيل الجديد، ستجده في البداية هو وهي متحابان وهو يعبر عن حبه، في وسط الشريط يتعاركان أو تخونه أو يخونها وواحد يطلب السماح أو واحد يدعو بخراب بيت الآخر، ونهاية الشريط يكونان قد انفصلا ويظل يشكو حظه ويندب الزمن، أو يقول في ستين داهية! ها ما رأيك؟! ألست على حق؟!

ضحكتُ كثيراً وقتها وقد انتبهتُ لهذه الحقيقة فعلاً! ثم كتبتُ لها:

– والله لم أنتبه لذلك قبل الآن! لكن فيمَ تريدينهم أن يغنوا؟!

– ضحكتْ. أنا لا أريد شيئاً.. أنا فقط أعرض وجهة نظري. وعلى فكرة أنا أسمع أغاني عربية كثيرة لا تتخيل العكس! لكني أفضل أشياء مختلفة. إمممم.. مثلاً الشيخ إمام. هل تعرفه؟!

– بصراحة لا.

– متوقع! اسمع ما رأيك أن تترك لي أذنك قليلاً ودعني أسمعك فناً حقيقياً لا تعرفه؟!

– خذي الاثنتين!.

– ضحكتْ. لا، يكفيني واحدة، سأترك لك الأخرى كي تستطيع أن تسمع ما تحب.

ثم كتبتْ: أراك غداً مضطرة أن أقوم الآن.. باي أيها التائه.

وددتُ لو سألتُ: متى؟! لكني كتبتُ: باي.

* * *

يا للألم واللذة!. يجتمعان معاً فيثيران شجناً لا حدود له. كأنهما مرادفان للمعنى الحزين نفسه، أو وجهان لعملةٍ كئيبةٍ واحدة. أتعجب لحال الدنيا، تمنحنا دائماً الشيء الذي نريد في الوقت الذي لا نستطيع أن نأخذه فيه. تبقينا نتعذب إلى الأبد أنه كان بين أيدينا منذ اللحظة الأولى. وكأن الأصل في هذه الحياة هو المعاناة!. أن تكون الجنة ملك أيماننا من البداية، لكننا نَزِلُّ فنهبط إلى الأرض ونظل دوماً نبحث عن الجنة مرةً أخرى، نحاول تحقيقها في مكانٍ لا يصلح لتحقيقها، ونتألم أبداً لأنها كانت بين أيدينا يوماً وتخلينا عنها. سنلهث دوماً دون سأم في بحثٍ مستمر عن هذا الشيء المجهول. وها هي كلماتكَ يا ط تفرض نفسها على رأسي، وتصر على إثارة كل شجوني وآلام قلبي: إننا نعاني منذ تلك اللحظة الأولى التي نبكي فيها، ثم نعاني في كل لحظةٍ أخرى حتى تنتهي كل

اللحظات. الله خلق لنا جمالاً ثم أمرنا بغض البصر عنه، خلق لنا شيطاناً وأمرنا بعدم الانصياع إليه، وخلق لنا نفساً وأمرنا ألا نتبع هواها! خلق آدم وخلق الشجرة، ألم يكن بمقدوره أن يرسله إلى الأرض مباشرةً؟! لكن البشرية لابد أن تعاني كل يوم أن الجنة كانت ملك يديها يوماً لكنها فقدتها!.

قلتَ لي: المعاناة هي اسم اللعبة، ولا تحسب أن الحياة ستكون حانيةً يوماً، نحن فقط نتصبر عليها بأشياءٍ مثل الحب، والجنس، والجهل كذلك، إنما أن نفكر؟! أن نُعمل عقولنا؟! فهذه هي المعاناة بعينها، وهذا سبب خروجنا من الجنة! أننا أعملنا عقولنا، أردنا أن نعرف أكثر، هكذا يا صديقي، هذه هي ضريبة المعرفة، ضريبةٌ أبدية، ثم حين نأتي إلى الدنيا ننسى أننا فقدنا الدنيا بسبب المعرفة ونعيش في الجهل؟! كم نحن حمقى!.

ولماذا ذلك كله الآن؟! لماذا ط؟! لماذا تلك الكلمات عن الله، والجنة، والمعرفة، والحياة؟! ولماذا كل هذا الوجع وكل هذه الدموع التي بدأت تزيغ الرؤية؟! لماذا قلبي ينبض بشدة وكأنه يريد أن يتشبث بشيءٍ ما خارج ضلوعي لكنه لا يستطيع وهذا الشيء يضيع كالسراب؟! ولماذا قالت لي هي يومها إنها تحبني؟!

كان ذلك ربما بعد سنةٍ ونصف من حديثنا معاً. الحديث

معها لا يُوصف، حلو كشهد العسل، كغذاء ملكات النحل، في اليوم الثاني لحديثنا معاً، وجدتها في الموعد نفسه، كتبتُ: أهلاً.

– ضحكتْ. لحظة والله. حظك معي سيئ حقاً!.

– ضحكتُ. لا مشكلة.

ثم بعد دقيقة: آسفة تأخرت.

– لا مشكلة. كيف الحال؟

– بخير الحمد لله وأنت؟

– الحمد لله كله تمام.

وضعتْ رابطاً لأغنية وكتبتْ: اسمع هذه ستعجبك.

كان الشيخ إمام يتغنى:

لا تبكِ فأحزان الصغر تمضي كالحلم مع الفجر
فقريباً تكبر يا ولدي وتريد الدمع فلا يجري
إن سهرت أمطارٌ معنا أو غطى البرد شوارَعنا
فالدفء يعمر أضلعنا ولهيب الأرض بنا يسري
يا ولدي
وإذا بُحت لكَ أغنيةٌ
أو أنّت قدمٌ حافيةٌ
فشموس رفاقك آتيةٌ
وستشرق من غضب الفقر

قد أُرمى خلف الجدران
وتحن لحبي وحناني
فانظر في قلبك ستراني
لن يقوى القيدُ على الفكر
يا ولدي
سأضمك والصدر جريح
سأعشق والقلب ذبيح
مهما عصفت ضدي الريح
لن أحني في يوم ظهري
يا ولدي
وإذا ما الدهر بي دار
وقضيت إلى حيث أُوارى
أكمل من بعدي المشوار
لا تخلف ميعاد الفجر
لن يسقي دمعٌ أشجارك
لن تبني بالآه جدارك
واصرخ بالخوف إذا زارك
لا تخشى النار من الجمر
يا ولدي
ولماذا صرختُ أنا بالخوف حين زارني، وقلت إن نيران

حبكِ لا تخشى جمراتكِ، لكنه لم يسمع لصرخاتي؟! وكأن صرخاتي لا صوت لها. كأن الحُمَّى حين انتابتني كان أوانها قد ولى. أتذكرين؟ أتذكرين كلماتكِ عن الحياة؟ قلتِ إن الحياة كلها مقطوعة موسيقية، يقف على الأوركسترا الخاص بها كل شخص فينا، هو الذي يرفع من الإيقاع، أو يرفع من الكَمَان، ربما يرفع صوت البيانو، يفعل ما يريد، إما يرتفع إلى أعلى، ويكون سعيداً منسجماً مع اللحن، وإما يكون حزيناً، يبقى بائساً مبتئساً، وأنتِ تكرهين البؤس! تقولين إنكِ حرة، طليقة، عصفور لا يحب أية قيود. قلتِ لي إن الحرية هي التي تجعل كل شخصٍ فينا يتحكم في الأوركسترا الخاص به، تخيل لو أنك لستَ حراً لن تستطيع أن ترفع عصا المايسترو! ستترك الظروف هي التي تتحكم في العصا وتصير عبداً لهذه وتلك، أما إن كنت حراً فستمسك أنت العصا، ستكون أنت المايسترو، كن سعيداً إذاً! كن حراً!.

وعلمتِني معنى الحرية. قلتِ الحرية هي مجرد أن تسمع قطعة من الموسيقا، فترتفع مع ارتفاعها وتبطئ مع سريانها الهادئ في دمك. الحرية هي الموسيقا. الحرية هي لوحة، فسألتكِ عن الموناليزا، أجبتِ أنها أخذت شهرتها لأنها مست التناقض الموجود داخل كل واحدٍ فينا، سألتكِ: كيف؟ فأجبتِ: ألم تقرأ عنها؟ يقولون إنها تمثل الجانب الأنثوي في دافنشي،

إنه كان يمثل جانبه المظلم وليس شخصاً حقيقياً، البعض قال كانت زوجة تاجر إيطالي، ربما زوجة دافنشي نفسه، والبعض قال كانت نفس دافنشي الشاذة، يقولون إنه كان شاذاً أصلاً، لا أعرف ولا أهتم، المهم أن اللوحة تمثل التناقض، انظر إلى عينيها كم هما حزينتان! وانظر إلى ابتسامتها كم هي مليئة بالألم، إن هذه اللوحة لوحة لكل إنسان لا يستطيع أن يمسك بعصا المايسترو، كلنا نحمل البؤس داخلنا، لكنَّا نخشى الاعتراف به! دافنشي اعترف فأحرجنا جميعاً، وشُفي من بؤسه! يجب علينا كلنا أن نرسم الجيوكندا الخاصة بنا..

وعلمتِني أن أستمع إلى الموسيقا فقط، أن أنتبه إلى أن البيانو هنا حزين وهنا سعيد، وأني يجب أن أسعد معه وأحزن إذا أردت أن تنتقل لي مشاعر عازفه نفسها. قلتِ: إن الموسيقا لا تحتاج إلى كلمات، كما أن الشعر ليس بحاجة إلى موسيقا، أنا أفضل كل واحد على حدة، ما رأيك؟ لم أرد ولم تنتظري مني رداً، ثم عرفتِني على مقطوعاتٍ موسيقية لفاجنر وباخ وبيتهوفن وموتسارت، كنتُ أتساءل ما هذا الرقي؟ علمتِني أن أحب الأوبرا، أن أرفع عقيرتي مع السيدة السمينة وهي تصرخ في بحيرة البجع، رغم أني لا أفهم من صراخها شيئاً، أن أفتح القناة الثانية على موعد البرنامج الذي يذيع جزءاً من حلقات الأوبرا. وأرسلتِ لي شعراً، محمود درويش وأمل دنقل،

وأشعلتِني بثورة نيرودا، ووطدتِ علاقتي بحكمة المتنبي وطاغور وسخرية أحمد مطر، وجعلتني أنتشي مع كل عجبي من جاهين، وأرسلتني إلى عالمٍ آخر مع إيليا أبو ماضي، حين كنتِ تفتحين لي الميكروفون، ثم تقرأين لي شعره، لم تحادثيني أبداً بصوتك، فقط تقولين الشعر ثم تغلقين الصوت مرةً أخرى، وكأنكِ أردتِ أن يكون ذلك هو كل الذكرى! ولا أزال أذكر حين بكيتِ بين يديّ عبر الشاشة السرمدية، وأنتِ تقرأين لي من الطلاسم:

أنا لا أذكر شيئاً عن حياتي الماضية
أنا لا أعرف شيئاً من حياتي الآتية
لي ذاتٌ غير أني لست أدري ماهيه
فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي؟
لست أدري!
إنني جئتُ وأمضي وأنا لا أعلم
أنا لغزٌ.. وذهابي كمجيتي طلسم
والذي أوجد هذا اللغز لغز أعظم
لا تجادل ذا الحجا من قال إني...
لست أدري!

وحين سألتكِ لماذا بكيتِ، أجبتِ لستُ أدري!.

* * *

وكنتِ تتفلسفين عليّ فأغتاظ، تضحكين وتكتبين أنكِ تحبين إغاظتي، فأبتسم، وأكتب إني أيضاً أحب حين تغيظينني. وقلتِ إنكِ تعشقين الفلسفة، إن هذا ليس بيدكِ لكنكِ تحبين الفلسفة. حكيتِ لي عن الكندي، وابن رشد، وابن سينا، وروسو، وتولستوي، وعن سقراط وأفلاطون وأرسطو، كانت أفكارهم منكِ تحمل معاني أجمل، فالحق والخير والجمال والعدل والرحمة التي نادوا بهم جميعاً، لم تكن كالحق والخير والجمال والعدل والرحمة حين تخرج من عقلكِ أنت، كأنكِ فيلسوفتي أنا! أنا وحدي!. أحببت الفلسفة لأجلك. أحببت الحلاج، ومحي الدين بن عربي، والسهرورّدي وأحببت عمر الخيام، وعرفت أني أحبك الحب الأفلاطوني، ذلك اليوم حين أخذت تتحدثين عنه، الحب لأجل الحب، الحب هو أسمى معاني الحياة، وما خلقنا إلا لنحب، نحب الله، فنحب أنفسنا، فنحب الناس، فيكون السلام، فتكون الطمأنينة، فتكون السكينة، فتكون الجنة..

وكنت وأنا أحادثك يومياً في غرفة الشات، أشعر بضآلتي جوارك. كوهج الشمس أنتِ، أنرتِ حياتي. وذلك اليوم حين قلتِ إننا صرنا صديقين، وأعطيتني «إيميلك» كي يكون التواصل أكثر خصوصية وأكثر صداقة؛ فرحتُ. وكنت تضعين صورةً لم تغيريها أبداً لإيميلك. لما سألتك، أجبتِ إنها صورة تسمى

الجارية، لرسام إيطالي اسمه فرانشيسكو هايز، هل تعرفه؟! لم أعرفه لكني عرفتكِ أنتِ! ورأيتُ الصورة ولم أركِ أنتِ! وطالما تخيلتكِ مثلها! ترتدين طرحة تخفين بها رأسكِ، وتتركين جسدك على سجيته، يبحث عن الحرية المطلقة. تخشين القيود كخشيتكِ الحب. تنادين به لكنك تخشينه. بالضبط كما الصورة، تتطلعين إلى الحرية وتخشينها. وحين قلتِ لي إنك تخشين أن تكوني أحببتني، وإنك لم تعودي تفكرين فيّ كصديق، كدت أطير وأخترق هذه الشاشة اللعينة التي تحول بيننا، لكنكِ كنتِ حاسمة وقلتِ لا! لن يكون! كل شيء له نهاية وهذه المشاعر نهايتها حتما ستقيد حريتي! حاولت أن أدافع! أن أقول إن حريتك هي سر حبي لكِ، أن أصمد أمام قرارك، لكنكِ كنتِ تصرين، وكنت أنا جباناً، فقط بقيت أتخيل! أتخيلك وأنت تجولين هنا أو هناك، أتخيلك تتحدثين، وأراكِ أمامي تتهادين في مشيتك، أراكِ دائماً كصورة الجارية، أبية، شهية، سهلة ممتنعة، كقوس قزح، أقفز نحوه فلا أنال سوى الكثير من الغبار، ويظل هو يبتسم لي يقول: تعال، اقترب. وأتخيل ضحكتكِ كجوقة ملائكية، تضحكين فتضحك كل الإلكترونات التي تنقل هذه الضحكة إليّ، ويضحك كل الكون ويتنهد وقد عشق ضحكتكِ. كم كنتُ أحلم أن أسمعها! كم كنتُ أحلم أن أراكِ!

كم حلمتُ بشفتيكِ حين تقرأين الشعر، فقط لو قبلتهما مرةً وتلاشى العالم كله من حولنا. لو نبقى فقط أنتِ وأنا، هناك في جزيرةٍ بعيدة، بلا شاطئ، بلا مرسى، فقط وحدنا وسط الطبيعة الفرحة. نستكشف العالم لأول مرة. نستكشف لذة آدم وحواء. حتما كانت الجنة سخيفة دون حواء! وأنتِ حوائي! وأنا آدمك! في تلك الجزيرة عرايا. نلتحم في بعضنا. نصير واحداً. وتعودين مني، من ضلعي. وتلتحم معنا الطبيعة. ونندمج جميعاً فيتوقف الكون. وتكون اللذة الأولى، اللذة البكر. معكِ وحدكِ سأستكشف الحب البكر، الحب الأول، والجنة الأرضية، معكِ تنتابني تلك الحُمَّى، فأود لو صرخنا، أنا وأنتِ، في وجه ذلك العالم كله، فيتلاشى ونصير فقط أنتِ وأنا..

لو أني فقط أستحق كل هذه السعادة!.

لو أني فقط كنت أستحقكِ!.

هذا الوقت.. هذا المكان

لحسن الحظ وصلتْ الطائرة، فتوقف عقلي عن الخفقان، وتنبهتُ وقد أصابني بعض العرق. ها أنا أبدأ خطاً جديداً في متاهتي. زفرتُ وتقدمتُ ناحية قسم المغادرة. رسمياً ذاهبٌ أنا كمرشد سياحي لتلقي بعض الدورات. بعثة تعليمية. كلما تذكرت أن هذه البعثة من توسط لي فيها هو الثلاجة، أكاد أموت من الضحك. هو طيبٌ رغم كل شيء. كان هناك إعلان داخل الشركة، والثلاجة يعلم أني لا أزال حديث الزواج، فقال لي: ستفيدك في المرتب، وفيها بدل سفر حلو، اعتذر للعروس نيابةً عنا. شكرته كثيراً وكدت أقول الحمد لله أني سأسافر بعيداً عن كل هذا، عن زوجتي وعن أخي وأبي وأمي و د وذكريات ح..

الوحيد الذي علم سر سفري رغم أنه لم يفصح، ط، صديقي الوحيد. لما أخبرته بسفري كي أتعلم وأعود إلى بلادنا فأفيد زملائي وأهلي، وقلت إني مسافر حتى أنشر في أوروبا كلها أننا الأعظم، نحن التاريخ والمستقبل لنا حتماً. سأحدثهم عن تاريخنا العريق وعن حضارتنا. سأحدثهم عن أن تقدمهم هذا أصله من علومنا. سأعرفهم قيمة الإسلام والمسلمين. سمعتني

يا ط إلى أن أنهيت هذياني وأحلامي الكاذبة، ثم ضحكت وقلت لي: أحقاً؟ اذهب أيها الهارب! ولما تورد وجهي خجلاً ولم أعرف كيف أرد وقد عريتني أمام نفسي وأمامك، احتضنتني وقلت: اذهب وحقق حلمك، لا أحد يعرف أين الخير، سافر على بركة الله.

وهذا ما كنت أحتاجه بالضبط! سافر على بركة الله، شعاع شمس وسط ضباب كثيف..

* * *

أثناء تفتيشي أخرجت الولاعة من جيبي، وسألني الواقف خلفي: هل أدخن؟ فهززت رأسي نافياً، ولم أرد على سؤاله: لماذا إذاً تحمل ولاعة؟! لم تكن الإجابة تخصه حتماً، ولم يكن ليفهمها، ربما لا أحد سيفهمها حتى أنا! إن هذه الولاعة تحمل ألف ذكرى! وكلما تذكرتها أتذكر الموت، القبر، النار، سنين عمري بعدما تركتني ح، وكل ذلك الألم، كل تلك التقوى، وكل ذلك الانغلاق.

بعدما تركتني ح، كرهت الحرية، كرهت الفن، الموسيقا، والشعر، والرسم، كرهت كل شيء. يا أنا يا مسكين! فجأةً تستيقظ من نومكَ سعيداً، كما تستيقظ كل يوم لأنها جاءتك في الحلم، فتنتظر هناك أمام شاشة الكمبيوتر، تتطلع إلى اسمها

في «الماسنجر»، تنتظر! تكتب إليها (أوف لاين) علك تعبر عن افتقادك! «ألن تأتي اليوم؟! أوحشتني!» أو تكتب: «أنا قلق عليكِ! وليس معي رقم البيت ولا أي شيء!» هذه الأخيرة تكون في اليوم الثالث، أما في اليوم الخامس فيبدأ هذيان شديد، وتكتب أشياء لا معنى لها: «هل حدث مكروه لأحد في البيت؟!» أو «تعطل الكمبيوتر صح؟!» ربما تحاول أن تبدو متعقلاً، لكنك تجن وتبدأ في مراسلة صاحباتها على الشات، فيجبنك بالإجابة نفسها: لم تدخل من فترة، لا نعرف لها رقماً، لا نعرف لها سبيلاً! ثم ترسل رسالتك التراجيدية الدرامية الأخيرة في اليوم الثلاثين: «أعلم أنكِ بخير، على الأقل لم تموتي أنا أشعر بكِ حية! تتمثلين لي في كل حين، طيفك يملأني ويملأ حياتي، وسأظل كل لحظةٍ أبحث عنكِ حتى لو وجدتك في آخر لحظةٍ من عمري، لكني حتماً سأجدك!» ثم تختم رسالتك بكلام يختلف تماماً، كلام يخلو من كل الإصرار، كلام مهزوم كصاحبه: «أذهبتِ حقاً؟! بعدما وافقت على كل شروطك؟! أنا دونك أموت! لكني أنتظر!».

حسناً يا أنا المسكين، ألم تمل الانتظار بعد؟! ثم أحقاً وافقت على كل شروطها؟! أرجو ألا تجيب الآن! دعنا ننسى كل شيء، على الأقل هذه الذكريات، هنا، في هذا المكان وهذا الوقت..

دعنا نستقبل القارة العجوز، بهوائها السبتمبري البارد العليل، ذلك الهواء الخريفي الذي يصفع وجهك ويطوح (الكوفية) التي تتدثر بها ويضرب عنقك. لم أجد مندوباً يقف في انتظاري من شركة السياحة التي يُفترض أن نأخذ فيها البعثة أو من زملائي. لم أكن مُرسلاً وحدي، وهناك زملاء لي من الشركة ومن شركات أخرى بالفعل وصلوا، ربما ما أخر إجراءاتي قليلاً، هو التزام أخي، أو كما يحب أن يسمي نفسه: (اتباعه المنهج الصحيح لأهل السنة والجماعة). آه تلك الذكريات الآن لا وقت لها مطلقاً. أعرف، أعرف أني لابد سأتذكرها، إن أردت التخلص منها، لكن الآن؟! دعني يا أنا أتأمل حديقة المطار اللطيفة، ودعني أشم هواءً نظيفاً، دعني أستشعر لذة أني سأبدأ من جديد، لذة الترقب والخوف، لذة وضع سن القلم الرصاص على طريق مجهول لا تعرف إن كانت نهايته بوابة الخروج أو سداً جديداً. ها أنا الآن في عالمٍ جديد، وهم جميعاً أهلي وأصدقائي ومعارفي وكل من أعرف هناك، يحسبون أن بلادهم هي كل العالم، أنا مثلاً لما ذهبت إلى أسوان من القاهرة، شعرت أني سافرت سفراً بعيداً، عالم آخر! لكني الآن هنا، يفصلني بحر وبلدان ونهر، وقوانين صارمة وأختام وتأشيرات، عن بيتي وعن د، وعن زوجتي وأمي، الآن أنا وسط

هؤلاء الذين يحسبون أيضاً أن بلادهم هي كل العالم وينتقلون داخلها بشق الأنفس متخيلين أنهم قد لفوا العالم. لذا دعني، دعني أفكر كيف سنتصرف! الثلاجة كان قد أعطاني رقم رجل أستعين به هنا، المسؤول المصري عن هذه البعثات بين الشركتين، اسمه معتز..

حادثته فقال إنه متأسف حقاً على هذا الخطأ، ثم أعطاني عنوان الفندق، وطلب مني أن أركب سيارة أجرة على حساب الشركة..

أثناء التوجه من المطار إلى الفندق، أثارت دهشتي كل تلك النظافة، رغم أن السماء تمطر زخات خفيفة، في تلك المدينة الباردة من مدن أوروبا القديمة. مدينة عريقة هي، وفي ركوبي التاكسي عبرت أحد أهم مزاراتها، ذلك المتحف العملاق، وأيضاً تمثال الرجل الأنيق يركب حصاناً ويشير إلى الأفق، بطل تحريرهم من الاحتلال. وذكرت نفسي أني يجب أن أزور المتحف، والمسرح القديم، والاستاد الرياضي، ربما أحضر مباراة (ديربي) شهيرة تُقام في هذه المدينة. أعتقد أن كل مدن أوروبا تتشابه، ففي كل مدينة يمكنك أن تزور الأشياء نفسها، مع اختلافات طفيفة، لكن الثابت دائماً، هو تلك العراقة الممتزجة بالتقدم، مزيج خيالي من القدم

والحداثة، تشعر أنك في مكان له هوية، لكنه يفتح ذراعيه للعلوم، حتى بلادنا كذلك متشابهة مع بعضها، ربما هذا ما يجعلنا لا نشعر بغربة حقيقية طالما لا نزال داخلها حتى لو بعدنا عن أهالينا، أو أن هذا ما يجعلنا نشعر بالغربة فعلاً؟ وصلت للفندق، فاستقبلني زميل لي من الشركة، كنت أعرف شكله فقط، وتعارفنا بابتسامة هادئة، ودون مجاملات كثيرة، حاسبَ التاكسي، وأخذني لأمضي على استلامي الحجرة، ثم صعدت فوجدت السرير مهنداً، ورائحة لطيفة تفوح في الحجرة، ألقيت حقيبتي وحذائي ونمت.

* * *

في الصباح التالي، استيقظت على جرس هاتف الغرفة. قال لي معتز إنه ينتظرني في باحة الفندق، كي أتناول الإفطار معهم، فرصة كي أتعرف بهم. في عشر دقائق وصلت إليه، رجل ملفت الطول، لكنه أنيق، يستغل أن طوله يجذب العين إليه، فتأنق، أم العكس؟! لا يهم. وجهه بلا ملامح محددة، تشعر أنك تراه في كل الوجوه. صافحني مبتسماً: أرجو أن تكون نمت نوماً مريحاً. هززت رأسي وقلت مبتسماً أنا الآخر: في الواقع لا أعرف، أنا نمت كذبيحة. قال: حقاً؟ أكانت الرحلة مرهقة؟! قلت: لا. ثم أشرت إلى رأسي وعملت دائرة تدور حول نفسها

بسبابتي. ابتسم وقال: آه آينشتاين أخطأ إذاً حين قصَرَ الأشياء التي لا حدود لها على الهيدروجين والغباء، كان المفترض أن يضيف إليهما التفكير! قلتُ: ربما الذكريات!.

أثناء الإفطار عرفني على الزملاء، كانوا باردين جداً كأني جئت لأقتطع من أجسادهم، وإذا تعلمت معهم سينقص ذلك من علمهم شيئاً! أو كأن المرتب الذي سآخذه هم من يدفعونه من جيوب آبائهم!.

* * *

ابتسمت رغم كل شيء، فأنا الآن هنا، بعيد، والإفطار لطيفٌ رغم أنه في السادسة صباحاً!. موقفٌ عجبٌ حين أيقظني مستر معتز كما سمعت الجميع يناديه قائلاً إن مواعيد الإفطار هنا تبدأ من الخامسة صباحاً وحتى الثامنة، فلما وجدته يوقظني في الخامسة والنصف قلت لابد أنه يريد أن يحجز لنا مكاناً أفضل! المصريون هم المصريون! قلت لنفسي. يحسبون حتى هنا الإفطار بطابور! لكني ونظراً لأني لا أزال غريباً في هذا البلد نزلت معه، وحين دخلنا قاعة الإفطار تخيلت أني سأجدها فارغة وأني سأجلس على كل الكراسي! لكني وجدت القاعة ممتلئةً عن بكرة أبيها، بل والبعض بالفعل قد أنهوا إفطارهم! بالكاد وجدنا مكاناً، ظللت أتأكد من ساعتي أهي

السادسة حقاً؟! حتى وجوههم نفسها لم يبدُ عليها أثرٌ من نعاس. وتذكرت حلمي المستحيل، حلمي الكاذب على كل حال: أن آتي إلى هنا لأعلمهم ديننا!.

لم يكن اليوم شائقاً إلا في نهايته. بعدما أنهينا الإفطار، ذهبنا إلى الشركة التي نتلقى فيها الدروس، سجلت اسمي وأثبت حضوري، ثم حضرت حصتي الأولى، وكان المحاضر لطيفاً جداً، رغم أن ما يقوله ممل جداً، وعرفت أن أسوأ لحظاتي في أوروبا ستكون في قاعة الدرس. في نهاية اليوم أخذني مستر معتز وقال لي: حتماً نفسك الإرشادية تموت وتشاهد كل آثار البلد. قلت: أنت تعرف! ضحك ثم أعطاني كتيباً صغيراً، سألته: ألن تأتي معي؟ اعتذر وتعلل ببعض المشاغل، فذهبت من فوري، كان الكتيب به كل شيء، المكان، وتاريخه، وصورة له، وكيفية الوصول إليه، لم يكن ذلك صعباً، فمثلاً حين أريد الذهاب إلى تلك الحديقة الشهيرة في وسط المدينة، مكتوبٌ أني يمكن أن أركب الأتوبيس رقم كذا الذي ينطلق في الساعة كذا من محطة كذا، وأقرب محطة في كذا، وللوصول إليها ممكن أركب أتوبيس رقم كذا الذي يقوم في ساعة كذا، أو أتوبيس رقم كيت الذي يقوم في ساعة كيت..

هنا في هذه الحديقة، كل شيء ساكن. هدوءٌ شديد،

واستشعرت راحةً نفسية هائلة، كأني أريد البقاء إلى الأبد. لا أبرح قط. جلست على كرسي صغير، وعلى بعد خطواتٍ مني، وعلى الكرسي المجاور، جلست عجوز أوروبية معها كلب صغير، شعرها رمادي، مجعد وقصير، وترتدي »تاييراً« قصيراً، ابتسمت لي وقالت بالفرنسية: صباح الخير. قلت: صباح النور. سألت بالإنجليزية: أنت ألماني؟ وأنا أعرف أني أشبه الألمان، بشعري البني، وبشرتي البيضاء، وعينيي العسليتين الباردتين اللتين ورثتهما عن جدتي. قلت: لا. ثم أضفت على استحياء: عربي. سألت: من أي بلاد العرب؟ قلت: مصر. قالت: آه أفريقيا!. زوجي كان من أفريقيا أيضاً. لم أرد. قالت: لكنه كان أسود، أليس كل الأفارقة سوداً؟! قلت: لا. كأني أدفع تهمة عن نفسي! ضحكت ضحكة عجوز مثلها ونبح كلبها وقالت: لكن من الواضح أن فيهم بيضاً أيضاً! قالتها كسبة. وشعرت بالإهانة، ماذا تريدين أيتها الحيزبون؟! تريدين القول إني عنصري؟ على الأقل أنا لم أقتل الهنود الحمر جميعاً كي أعيش! ولم أصنع حرباً أهلية كي أقضي على أناسٍ لونهم يختلف عن لوني! على أن كلامي لم يغادر عقلي، ووجدتها تعتذر بابتسامة، وقالت: معك حق! ليس في هذا الوقت، ولا في هذا المكان. لم أرد. أخرجَ كلامي خارج عقلي؟ قامت واستعدت لتمشي، ثم أشارت بيدها مودعة، وأنا لا أعرف كيف أتصرف..

أمامي حوضٌ من زهور ملونة كثيرة، لكنها ألوان خريفية باهتة، ألوان أول أيام سبتمبر، وبدا اللون البنفسجي طاغياً على الزهور. أنا لا أعرف أسماء الزهور، ولا أعرف أنواعها، لكني أفهم جيداً في الألوان، فمثلاً يبدو حوض الزهور هذا بأزهاره الخريفية كبركان، يغشاه اللون الأزرق، رغم أن البنفسج به تتخلله بعض زهرات أخريات بيضاء وصفراء باهتة، يبدو كموجة بحر غاضب، وتتيه فيه نظراتي غرقاً، ربما يبدو حزيناً! بالفعل حوضٌ غاضب، حوضٌ حزين، حوضٌ تتداخل فيه المشاعر، يمتص رحيق الحياة من روحك، ليس جميلاً على الإطلاق، مثير للشجن لأقصى الحدود. لا عجب أن السيدة تذكرت زوجها الأفريقي، ففي قلبي تداخلت شجون كثيرة. تذكرت ذلك اليوم حين خرجتُ مع ع، بعد زواجنا بأسبوع، ذهبنا إلى حديقة، وأثناء مشينا، كانت كلما رأت زهرة تسبح الله، قطفت لها واحدة، فابتسمت وشكرتني: بس مش حرام تموتها؟! ثم توغلنا قليلاً في الحديقة، هناك وجدنا شباباً وفتيات كثر، يمثلون الحب، وبدت متضايقة. طلبتْ مني مغادرة المكان. لكن أين نذهب؟! قالت: ما رأيك هناك درس علمي في جامع (...) سيحاضر اليوم بعد صلاة العصر الشيخ (...). قلت: لكني أردت أن نجلس سوياً. قالت: طيب نذهب إلى مكان آخر غير هنا. تضايقت وتعصبت عليها وقلت: مفيش غير هنا! هو هنا

ماله؟! وكنت فعلاً أحب المكان. همستْ: على راحتك!. حسناً تريد أن تقول إنها المخطئة؟! أنت لم تحاول فهمها مطلقاً. كن صريحاً. حسناً لن أكون قاسياً عليكَ. أنت أيضاً غير مخطئ. ما ذنبك أنك تعشق الجنس مثل عينيك؟! لا لا لا.. إياكَ أن تقودني لذلك الحديث! إياك! وتظل تهرب إلى متى؟! أنت قلت! أنت تعيش وهم الزوج! لكنك فشلت في أن تصنع لنفسك دور العاشق! لكن ع تحبني وأحبها! كاذب! حب بغير عشق؟! كذب! نحن أجسادٌ وأرواح! لسنا أرواحاً فقط! ولسنا أجساداً فقط! ماذا تريد أن تقول؟! أريد أن أسألك، ماذا جرى مع د؟! ألا تقول إنك تحب ع؟! كيف إذاً فكرت في خيانتها بعد شهرين فقط من زواجكما! لا لا.. أنا لم أفكر في الخيانة قط! الخيانة ليست خيانة السرير يا عزيزي! الخيانة خيانة القلب. آه أنت تردد كلمات ح إذاً! تردد أحد شروطها التعجيزية العجيبة مثلها، أتذكر ذلك الشرط: أنت حرٌ أن تنام مع غيري، وأنا حرةٌ أن أنام مع غيرك، لكن المهم أن تكون قلوبنا سوياً، الخيانة ليست بالجسد، الخيانة بالروح، خيانة الجسد نوع من التجديد، كي تشتاق أجسادنا لبعضها وكي لا يصيبنا الملل! قلت: أي جنون؟! لكنك عشقت هذا الجنون! ورسالتها الأخيرة التي جاءتك بعد شهرين؟ أتكون حقاً صادقة؟ أتكون الآن زوجة تعيسة أخرى لمحاسبٍ آخر في السعودية؟ كأنها (شادية) وكأن حياتك كلها هي روايتك

المفضلة. ما زلت حتى الآن أشعر أنها كذبت. لا أستطيع أن أتخيلها كما قالت!. أشعر أحياناً أني ألفق رسالتها تلك من خيالي لأني لم أتحمل هجرانها لي بالطريقة التي فعلتها.

أرأيت؟! تنقل الحديث دائماً على ح! سألتك عن د، أجب.

حسناً! إن د لها قصة أنت تعرفها جيداً. تعرف أني طلبت من أمي وأخي أن يختارا لي عروساً، في الواقع، وأنت تعرف، كان ذلك سيحدث شئتُ أم أبيت، فنفوذ أخي يطغى على أمي كل يوم، رغم أنه الأصغر. أقنعها أن بقائي هكذا دون زواج، فيه فتنة لي، وأني لست صغيراً، ووسيم جداً تبارك الله، ولابد أني أقابل فتيات أجنبيات كثيرات، أليس الأولى أن نزوجه مسلمة تتقي الله فيه وتربي أولاده على الدين الصحيح بدل نصرانية كافرة تسرق لبه؟ أسمعه من خلف الباب وأتصنع النوم. في الآونة الأخيرة صرت أتضايق من الحديث معه كثيراً. لا يسألني سوى عن أحوالي الإيمانية: هل سمعتُ آخر دروس الشيخ (...)؟ وهل أواظب على صلاة الفجر؟ يسألني بحنو قاسٍ، يربت على كتفي وأشعر في تربيته تهديداً ما، صار يخيفني.

حسناً نتحدث عن د. أعرف. لكني أشرح لكَ الموقف. ألست تريد أن تفهم؟! أنتَ مسكينٌ حقاً يا أنا! اسمع، سأقص عليك قصة د الآن فكن صبوراً ولا تقاطعني، آ، أين وصلنا؟ قلت لك إني

طلبت منهما أن يختارا لي عروساً، شعرت أن الأمر لو جاء مني سيكون فيه حفظ لكرامتي ولو قليلاً، والاختيار، اختيارهما، كان جاهزاً، ع، منتقبة، وتُدرِّس القرآن للبنات الصغيرات في جامع الصالح الصغير المجاور لبيتهم، وأهلها ناس متدينون، حتى أن الشيخ (...) حفظه الله قيل إنه يستشير أباها أحياناً في بعض الفتاوى، وذلك لسعة علم أبيها وشدة ورعه وتدينه. وع ليس لها أخوات، لها أخان، واحدٌ أكبر والثاني أصغر، الأكبر ينوب عن أبيها في محل العطارة الكبير، ولم يكمل تعليمه بعد الدبلوم التجاري، أما الأصغر فحلم بكلية الإعلام. طامةٌ كبرى في المنزل: عايز تطلع على التلفزيون؟ عايز تقعد مع المذيعات العاهرات؟ وتستضيف فنانين ومساخر؟

قالت ع: كان أخي ج لطيفاً دائماً، وكنت أشعر أنه أقرب إليّ من أخي محمود، لكنه كان غيرنا، على الأقل غير أبي ومحمود. مرةً ضبطه أبي يقرأ شعراً للمتنبي، فصفعه على وجهه، وقال ألا تعرف أن المتنبي ادعى النبوة؟! وأنت تقرأ له؟ أستغفر الله العظيم. فلما عرف أن ذلك من منهج الدراسة، أخذ يسب في التعليم ومن يتعلمه، أيعلمون الأولاد كفراً هذه الأيام؟! وأتذكر حين دخلت على ج مرةً في غرفته، فانتابه توتر شديد، وأغلق ما كان يفتحه على شاشة الكمبيوتر، لكني كنت

حازمة، ذهبت فوراً وفتحت آخر صفحة كان يفتحها، وجدت أغنية لعبد الحليم حافظ، لم أعرف كيف أتصرف معه، قلت له استغفر، ثم ذهبت لأمي فأخبرتها، وهي أخبرت أبي، ومن يومها والكمبيوتر في علبته فوق الدولاب. أصلاً كانت معركة كبرى كي يدخل الكمبيوتر البيت، ثم معركة أكبر، ربما أكبر من تحرير الأقصى نفسه، كي يدخل الإنترنت بخط التليفون، لولا أن خطيب المسجد الذي كان ج يحبه كثيراً، هو الذي كان يحفظه القرآن تدخل وأقنع أبي بالموضوع، ربما لم يقنعه فعلاً، لكن أبي قبله في النهاية على مضض، أخذ الرجل يحاج أبي بالدين، فيقول إن علينا أن نعرف لغة عدونا وما وصل إليه، ويحاج أبي تربوياً، فيقول أن يكون ابنك على الإنترنت أمامك وتتابع ما يدخل عليه، أفضل من أن يدخل في أي محل من ورائك!. خاف أبي ربما، وربما اقتنع، لكنه بالتأكيد قبل على مضض، ربما خشي من سيطرة ذلك الخطيب على ج، ربما خاف أبي أن يكرهه ج، ويتعلق بهذا الرجل أكثر، لذا كره أبي خطيب الجامع هذا، يقول عنه دائماً إنه (متحرر) أكثر من اللازم. مثلاً بعد خطبة إحدى الجمع، وذلك بعد موضوع الكمبيوتر بعدة أشهر، ظل أبي والخطيب يتناقشان حتى صلاة العصر في مسألة هل ظهور الشعراوي في التلفزيون حرام أم

حلال، أبي يقول إن الشعراوي آثم رغم أنه عالم جليل، لكن الدنيا استهوته للحظة، وتاجر بالدين، هكذا اتفق شيوخنا، والخطيب يرد ويدافع، يقول لا، إن الشعراوي سخر العلم في خدمة الدين، وجعل الدين يصل إلى البسطاء البعيدين عنه تماماً، عراك احتدم وكاد أن يصل إلى حد السباب، وأبي يخرج من الجامع متأففاً ويصلي في جامع آخر ويقول: الأزهر بيطلعلنا شيوخ مش عارفين دينهم! لبعض الوقت ابتعد الناس عن خطيب الجامع، وصار عدد الحاضرين في خطبة الجمعة يقل، خصوصاً أن أبي ذهب إلى الزاوية القريبة واستأذن في أن يلقي هو خطبة الجمعة، ساعده و أخوك في تحقيق ذلك! صار أبي خطيب الجمعة بالفعل في تلك الزاوية، وامتلأت الزاوية براغبيه، يظل يحضر لهذه الخطبة طوال الأسبوع، وحين يحدث أي صوت جواره، يزعق زعيقاً شديداً، ويقول اهتموا لأمر المسلمين، ألسنا نعلمهم دينهم؟! تأثيره قوي على الجميع عدا ج. ج هو أصلاً الذي حكى لي ذاك الصراع المحتدم وهو يضحك، أوحشتني ضحكته، أتذكر ذلك اليوم حين دخل عليه محمود، فوجده يذاكر، فلما اقترب منه أكثر كي يرى ما الذي يذاكره بانهماكٍ شديد هكذا، وجده يخبئ (أولاد حارتنا) في الكتاب، فشدها من يده ومزقها، ثم صفعه، فصفعه ج

بالمثل، أيام لا يعلم بها إلا الله. ربما بعد الثانوية العامة، وبعدما رفض القسم الرياضي، ورفض حلم كلية الهندسة، الذي كان أبي يحلم له به، ورفض كذلك حلم الطبيب، رفض حتى حلم كلية التجارة كي يمسك شركة الاستيراد والتصدير الخاصة بأبي، رفض كل شيء، وقال سأدخل كلية الإعلام. كان قرار أبي واضحاً، إما التجارة أو لا أنت ابني ولا أعرفك. واختار ج، اختار لا أنت ابني ولا أعرفك، غادر البيت بجلباب أبيض كان اشتراه لنفسه من عمله الصيفي في العطارة، هكذا دون أية رسائل، دون أية مقدمات، دون أي شيء، اشتعل أبي غضباً، وذهب إلى خطيب الجامع وضربه في وجهه، وهو يشتمه ويقول إنه من حرض ابنه ضده، وقد ملأ رأسه بأفكاره الكافرة، لم يرد خطيب الجامع، لكنه أقسم أمام الجميع أنه لا يعرف شيئاً عن ج، ولا يدري بخبر هروبه غير الآن، كانت فضيحة في الشارع، وغادر الخطيب إلى مكانٍ آخر، سمعنا أنه طلب نقله، لا أحد يعرف، وأبي سقط مريضاً فترة طويلة، وتغير بعدها جداً، توقف عن خطبة الجمعة، صار أكثر كآبة، أكثر صمتاً، أكثر زعيقاً، وصار مجرد ذكر ج في البيت يشبه ذكر أغنية لعبد الحليم حافظ، لكني كنت أراه بالليل يتضرع إلى الله دامعاً أن يهدي ولده، وأن يعيده إليه، إنه مسامحه،

بس يرجع، يا رب وفقه في حياته واهديه، يا رب بحق نبيك المصطفى. رغم أنه دائماً ينهرنا حين نقول: والنبي، ويقول إن التوسل حرام، ويجعلنا نستغفر ونشهد ألا إله إلا الله. وأمي كانت تدخل تمسح وجهها في ملابس ج، تبكي، ثم تأخذهم لتغسلهم من وراء أبي، أم ترى أبي كان يعرف ويتجاهل الأمر؟ ممكن جداً. المهم كانت تغسلهم وحجتها المقتنعة بها تماماً: علشان لما يجي يلاقي هدومه نظيفة! ربما أخي محمود لم يتأثر كثيراً، دائماً كان يغار من ج، هذه حقيقة كلنا نعرفها ومحمود لا يحاول حتى إخفاءها، كان يسخر دائماً منه ويقول ابن المدارس، أشياء من هذا القبيل، لكن ج كان يحبه، ويعتبره سنده في الحياة، لا أعرف ربما أحبني أنا أكثر، كان دائماً يتودد إليّ ويعاملني كملكة، يمزح معي، ويعاكسني دائماً بكلامٍ حلو، أقول له: عيب اتعلمت الكلام ده فين؟! يقول لي: يا بت عشان لما عريسك يقولك تقوليله وإيه الجديد ما أخويا كان بيقولي الكلام ده! كنت أضحك ويحمر وجهي، أريد أن أقول له توقف، لكني لا أستطيع! يوم أن جئتَ لتطلب يدي تمنيت لو كان موجوداً وحضر هذه الكوميديا، لا أستطيع أن أنسى أبداً، تأتي أنت وأخوك و وأمك وأبوك، وأبي يهلل ويطرب ويتغنى بحضوركم، كان يحسب أن و هو من يريد أن يتزوجني، ورغم

أن و أصلاً متزوج إلا أن أبي سعد جداً حين سأله و: هل ابنتكم المصونة مخطوبة يا شيخ؟ رد أبي فرحاً: ولو كانت مخطوبة لفسخناها لأجلك. فرد أخوك: إلا حدود الله يا شيخ. وحدد معه موعداً لزيارتنا. لا أنسى منظر أبي أبداً وهو يستمع لأخيك يقول إنهم جاؤوا يطلبون يدي إليك. بالطبع لم يشأ أبي أن يحرج نفسه أبداً، رغم أنه، وأنت تعرف، لم يحبك قط. أعتقد أن أخي لو كان هنا لكان أحبك. لما غادر افتقدت كلماته الحانية، التي كان ينتقيها بعناية رغم صغر سنه، البيت كله افتقده، حتى محمود، بالتأكيد افتقده، وإلا لماذا سمى ابنه ج على اسم أخيه؟! لن أخفي عليك أني حاولت أن أبحث عنه كثيراً، لكني لم أعرف كيف أستدل عليه، أنا كما تعرف لم أغادر البيت قط إلا للمدرسة أو الكلية أو الجامع، وحتى حين كنت أفعل كنت أتعامل مع نساء فقط، ربما ذلك جعل البحث عنه صعباً حقاً، لكني عموماً واثقة أنه سيرجع.

تقول ذلك وعيناها تتجمعان فيهما سحب داكنة من شعيراتٍ دموية، تنذر بهطول دموعٍ غزيرة، فأربت على وجنتها ولا أقول شيئاً... هل هذا الضابط يحادثني أنا؟!

– لوسمحت.. تُغلق الحديقة في الخامسة. ودق على ساعته بإصبعه!.

اعتذرت بأدبٍ مبالغ فيه، وقالت لي نفسي لائمةً: عجبك كده؟ جبت لنا الكلام؟ وأصلاً أنت لم تتحدث حتى عن دا! ثم ألقيت نظرةً سريعة على حوض الزهور الحزين وأنا أغادر، وأخذت أتمتم: بداية ليست موفقة، ليست موفقة على الإطلاق.

تُغلق الحديقة في الخامسة. ومتى يُغلق هذا الباب في رأسي؟!

أشبـاه

الأيام الثلاثة التي تلت ذلك اليوم، روتينية رتيبة. أستيقظ في السادسة، أفطر، أخرج إلى المحاضرة، المحاضر اللطيف الممل، كلام، كلام، كلام، كيف تقنع السائح أن يأتي إلى شركتك مرةً أخرى، وكيف تقنعه أن يختارك أنت بالتحديد! كله كلام! الواقع مختلف تماماً، مثلاً أنت إذا أردت أن تقنع سائحاً عربياً، أحضر له فتاتين من شارع جامعة الدول، ويا سلام لو واحدة فيهم تشبه ممثلة! وإذا أردت إقناع سائح أوروبي، خذه إلى الموالد، وأريه العالم السفلي، العشوائيات والأماكن البالية، والزحام، سيتضايق لكنه سيفتقد كل ذلك حين لا يراه في بلده! الكل يهوى تعذيب نفسه! وإلا فلماذا تنجح أفلام الرعب؟!

إذاً المحاضر اللطيف هذا يتحدث بلا طائل. كل ما في الأمر أني سأنال شهادة معتمدة، أتفاخر بها في العمل، ويرتقي بها مركزي وراتبي، هذا كل ما في الأمر، لكني سأمارس وظيفتي بالطريقة نفسها. لا يعني هذا أني أحضر عاهرات للسياح العرب، أو أني أعري بلادنا أمام الأجانب، لكني سأظل كما أنا، أقول كلاماً حلواً للسياح، أجعلهم يتعاملون مع البدو، والبدو لطاف بطبعهم حين يألفونك، احتجت وقتاً شديد البأس كي

أصاحبهم، ولا أدعي أني نجحت كليةً، لكن الغرض المطلوب تحقق والسلام. أطيع رؤوسائي وأبتعد عن الحديث في السياسة قدر الإمكان، لا يجرني للحديث فيها سوى ط، سامحه الله، يظل يتناقش معي يوماً بأكمله في السياسة، يعلمني الاشتراكية، والليبرالية، والتيارات الإسلامية، والثورة البلشفية، وإيران، وحرب الخليج، والرأسمالية، وأمريكا وإسرائيل، ويقول كلاماً كثيراً، يذكرني برواية (الحب في المنفى)، روايتي المفضلة، التي نصحتني ح بقراءتها يوماً، ورغم أني وقتها لم أكن من محبي القراءة، خصوصاً بعدما شعرت بأني كبرت على روايات رجل المستحيل وملف المستقبل التي كنت أتابعها حتى المرحلة الثانوية، إلا أني قرأتها لأجل ح. كانت أول احتكاك مباشر بيني وبين السياسة، وضايقني كلامٌ كثير لم أكن أعرف عنه شيئاً، كالبلشفية والاشتراكية والثورة الإسبانية، لكني، ولا أعرف كيف حدث ذلك، طوال الرواية كنت أبكي، أبكي حين عُذب بيدرو، وأبكي حين مات طفل بيرجيت الأول، وأبكي على العنصرية، أبكي على الصحفي إبراهيم وحبه المهزوم، أبكي على خالد الذي ذكرني بأخي، وأبكي على طفل بيرجيت الثاني الذي مات دون أن يولد، أبكي لأنهم قتلوا كل أطفال العالم، وأبكي على دم الشهداء الذي انسكب، أبكي، أبكي، أبكي، وكنت

أحسبني لا يمكنني البكاء، وحين انتهيت منها قذفتها بعيداً، ووقفت أمام المرآة، أرتدي ملابس البيت، لكني عارٍ تماماً، أرى عورتي، وعيوبي، أرى تخاذلي، وأرى الشهداء، أرى المعذبين في كل مكان حولي، يتشبثون بجسدي العاري، فأصرخ، لا لم أقدر على الصراخ، فقط وددت لو أصرخ. وحكيت لـ ح، فحكت لي عن روايتها المفضلة (فساد الأمكنة)، حكت عن نيكولا المسمى باسم قديس، عن وحدته ورهبنته وعقابه لنفسه كل يوم كسيزيف، يصلب نفسه في القيظ، يعاقب نفسه أنه زنى بابنته وهما وقتلها حقاً، طوال الرواية كنتُ أبكي. كتبتْ. أبكي حين توهم نيكولا، وأبكي حين ماتت براءة ابنته على يد الملك، وأبكي على إيسا الذي مات في البئر البعيد، أبكي على الجبال التي لا يملكها أحد، أبكي على الوطن، أبكي، أبكي، وكنت أحسبني لا يمكنني البكاء، وحين انتهيت منها قذفتها بعيداً، ووقفت أمام المرآة، أرتدي ملابس البيت، لكني عارية تماماً، أرى عورتي، وعيوبي، أرى ضعفي وأوهامي أشباحاً تتشبث بي فأصرخ، أصرخ كأني أريد أن أهز العالم بأناتي. كتبتُ لها على الماسنجر: إذاً قد انتابتني الحمَّى! كتبتْ: ليس بعد يا صغيري! إن الحمَّى ليست في الصراخ فقط! ثم أنت لم تستجب لها! أنت لست محموماً بعد! كتبتُ لها: لكن لماذا طلبتِ مني أن أقرأ هذه الرواية تحديداً؟! لماذا لم تقولي لي

عن روايتك المفضلة؟ سكتتْ قليلاً. فأضفتُ علامتي استفهام، أجابتْ: هاتان الروايتان هما إحدى الروايات الحقيقية القليلة التي قرأتها حتى الآن! أنا أحب (فساد الأمكنة) لأني أراها في حياتي، وأرى حياتي فيها، ولم أشأ أن تعرف عن داخلي لهذا الحد! المهم أتعرفُ ما الذي تعنيه كلمة «رواية حقيقية»؟! إنها تسألُ السؤالَ الحقيقيَّ الدائم: لماذا نفعلُ ذلك بأنفسِنا؟! لماذا نعذبُ أنفسَنا بأيدينا؟! كتبتُ: وهل هذا حقيقي؟! هل حقاً نعذبُ أنفسَنا بأيدينا؟! كتبتْ بسرعة كأنما حسمتْ الجواب أو كأنها تتخلص منه: نعم! تكون السعادة بين أيدينا، لكن نتركها كي نظهر بمظهر الشهداء، أو ضحايا الظروف، نستشعر لذةً في تعاطف الناس معنا، أو في خذلان الناس لنا، في تعاطفنا مع أنفسنا، أو تخاذلنا معها، أكثر من اللذة في السعادة ذاتها، نحن لا نبحث عن السعادة في الحقيقة، السعادة طريقها سهل، نحن نبحث عن الطرق التي تبعدنا عن السعادة دوماً، ثم نظل نرمق السعادة التي ترنو إلينا من بعيد، نتباكى ونبكي، هكذا خُلقنا!.

أتذكر ذلك اليوم حين أخذ ط، يشرح لي كل تلك الكلمات السياسية، وحين انتهى سألني عن أول شيءٍ علمني إياه في أول اليوم، فلم أتذكر، أو ربما تناسيت عمداً، أنا أكره السياسة، هكذا علمني أبي، واكتشفت أن ذلك أسلم لي، لعقلي ولبدني،

ولحياتي، حتى ط يعرف ذلك، لكني أعذره، أعتقد أن محاولاته الدائمة معي، ليست إلا نوعاً من القضاء على الفشل المحيط به دائماً، أو ربما يحاول أن يذكر نفسه بما يعرفه طالما لا يريد أحدٌ أن يسمعه، يخاف أن ينسى من يكون، يخاف أن يتخلى عن دماغه، يحاول أن ينجح معي فيما يفشل فيه دائماً، يحاول أن يكتب روايته التي يقول إنها ستترجم لكل لغات العالم، لأنه سيتحدث فيها عن الإنسان، ثم يبتسم، ويقول: لو أني في أوروبا أو حتى في موزمبيق! بالتأكيد كنت سأكون نجماً، لكنا نفضل لاعبي الكرة، والممثلات الفاتنات، ونسمع آراء المغنيات العاريات في كل شيء، لكن المفكرين والأدباء؟! ثم تمر سحابة حزن على وجهه ويضيف: ليتها كانت كذلك! لكن لا على الكاتب أيضاً أن يسرق كي يقرأ وكي يكتب! أتعرف ما أعنيه؟! تدفع للناشر حق الطباعة، وأنت ورزقك، على حسب حجم الورق، وسعر الورق، وسعر الورق يتوقف على سعر الدولار، وسعر الدولار يتوقف على اقتصاد البلد، واقتصاد البلد ما شاء الله مرتفع للغاية! ومنحنى ارتفاعه في علو مستمر يكاد يخترق السماء الأولى! وهذا إن صدقك الناشر حقاً، ولم يأخذ نقودك ويصبح كمكعب ملح وذاب، وحتى لو صدقك، وأعطاك كتابك مطبوعاً بين يديك، يتفق معك على ألف نسخة

ويطبع مائتين! أو العكس يتفق معك على مائتين ويطبع ألفاً، ووقت الحساب يقول: للأسف الكتاب لم يبع شيئاً، ربما يعطيك لو كان أميناً مائة جنيه أو مائتين على أقصى تقدير، تقول لنفسك: أنا أصلاً لا أفكر في المال من وراء الأدب، أنا لدي رسالة أريد أن أوصلها، ولدي هدف أسمى، لكن حلني على ما تصل رسالتك، وحلني على ما تصل لهدفك الأسمى، ستكون مت جوعاً، أو على الأقل أفلست، هذا إن لم تبع دماغك لمن يدفع أكثر، أو وافقت على الشروط التعجيزية التي تضعها دور النشر الكبرى، أو على الأقل خالفت مبادئك وكتبت قصصاً إباحية، أو كلاماً سخيفاً وأسميته أدباً ساخراً. لا أستعجب كل هؤلاء الأبواق في الجرائد الحكومية أو المعارضة على السواء، الكل يبيع دماغه لمن يدفع أكثر، الكل عرف طريق الصعود الوحيد في هذا البلد لقصور النخبة المعلقة في العجمي والساحل الشمالي.. ويقولون اتحاد كتاب، وهو لا اتحاد ولا نيلة، وكله عداوات ومعارك على كراسي لا معنى لها أصلاً، ولا يعرف الكاتب أو القارئ لها دوراً! فقط مناظر، ونقود منهوبة، ما علينا.. اسمع سأقول لكَ شيئاً أؤمن به، القراءة هي وقود الكتابة، تخيل الكتابة كالسيارة، لابد من بنزين، وكلما وضعت بنزيناً نظيفاً، مرتفع الجودة، زاد ذلك من جودة أداء سيارتك،

كذلك القراءة والكتابة، اقرأ ذهباً تكتب ذهباً، اقرأ خشباً تكتب خشباً.. ولكن كيف تقرأ ذهباً؟ سعر الكتاب الآن لا يقل عن ٤٠ جنيهاً! أتكلم عن الكتب التي تستحق أن تُقرأ، عن الكتاب الذين يستحقون أن تقرأ لهم، أنت قلت إنك تفضل رواية (الحب في المنفى) حسناً هل تعرف كم سعرها؟! يا أخي والله لو حتى بعشرة جنيهات! من أين لي بعشرة جنيهات كل شهر؟! وهل تعتقد أني سأكتفي بكتابٍ واحد؟! ستقول لي المجلس الأعلى للثقافة، وكتبه ذات الجنيهين الاثنين، والجنيه الواحد أحياناً، آه عظيم! وهل ينشر لكتاب أحياء ذلك المجلس الموقر؟ لماذا عليّ دائماً أن أقرأ للأموات؟! أو يا أخي لماذا عليّ أن أذهب لسور الأزبكية، أو الفجالة، وأشتري دائماً كتباً قد انتُهكَتْ حُرمتُها، وهُتِكَ عِرضُها؟! لماذا دائماً أقرأ ما يلقيه الناس لي وليس ما أختار؟! بلاش! تتخيل أني حين أذهب لكاتب كبير وأطلب منه يوقع لي كتابه ويكون من النسخ المقلدة أو المضروبة الملقاة هنا وهناك في سور الأزبكية، تتخيل كيف سيكون منظري؟ يا أخي والكتب المترجمة؟! ولا تقل لي مجلدات مكتبة الأسرة!! ثم هل تعتقد أن المجلس الأعلى للثقافة سينشر لي كتاباً أتحدث فيه عن مشاكل هذا البلد؟! أنتقد فيه الرئيس؟ أسب فيه كل ذلك الفساد المستشري فينا؟! ستقول أنتَ لم تحاول! أن تكرر التجربة بحذافيرها وتنتظر نتيجة مختلفة فذاك هو

الجنون ذاته! وغيري كثيرون جربوا! ولكن اسمع! وماذا إن نشر لي المجلسُ كتاباً، اثنين، ثلاثة، مائة؟! هل سيتغير شيء؟ أي شيء؟! إذا كان أصلاً نصف الشعب أمّياً! وربعه لا يقرأ! والباقون إذا قرأوا فسيمصمصون شفاههم: مسم! دنيا!.. نحن نحاربُ وهماً! نحاربُ طواحين الهواء كدون كيخوته، ننحتُ صخوراً من الألماس! نحاربُ الجهلَ، والجهلُ يستشري حتى يكاد يطالنا، نحاربُ الفسادَ، والفسادُ يستفحلُ حتى نكاد نكون جميعاً فاسدين، ونحاربُ الوهمَ، والوهمُ يتوغلُ فصرنا لا نعرف، أحربنا هذه حقيقة، أم هي محض خيال صنعناه لأنفسنا كي نجعل لحياتنا قيمة، هل حقاً نحمل رسالةً ما نريد أن نوصلها؟! أم أننا فقط نمثل دوراً؟ هل نحن حقاً نملك إرادتنا ونملك أن نختار؟ أم نحن مجرد دمى؟! دمى دورها الوحيد أن تكون مضطهدة؟! هكذا تكتمل الصورة التي نرغب أن نعيش فيها! أم أن الأمر كله أننا فقط نشتكي ولا نحاول تغيير الواقع؟! حسناً أنا أعترف! أنا لم أرسل كتابي للمجلس الأعلى، ولن أرسله، لكني سأظل أسب فيهم إلى يوم أموت! ما لم يتغير النظام طبعاً! صدقني لا أعرف! يتحدثون في كل دول العالم عن النخبة، ومن نخبتنا؟ إما أشباه مثقفين، أو أدعياءُ ثقافة، أو راقصات، أو شيوخٌ يشوهون الدين بأمر الدنيا، أو سياسيون يطبلون للنظام أو يطبلون ضده بأمره. لا شيء حقيقياً هنا في

هذا البلد! كله أشباه، أشباه معارضين، أشباه مثقفين، أشباه متعلمين، أشباه متدينين، أشباه أحياء! هذه هي الحقيقة، نحن نمثل أننا نعيش، نمثل أننا راضون، نمثل أننا نحمد الله على نعمه، نقول شيئاً ونفعل عكسه، نفعل شيئاً ونقول عكسه، متناقضون دائماً وأبداً، مشتتون بين الدين والجنس وأكل العيش وجمع المال والحياة الرغدة وجواز الأولاد، لا تشغل بالنا تلك الأشياء الموضوعة في جماجمنا ولو شغلتنا فسيكون في كيفية استغلالها لإحراز أكبر قدر ممكن من مصلحتنا. يا أخي، كيف تعلم طفلاً حب العلم وهو يرى أستاذه ينتهز كل فرصة ممكنة كي يزوغ من المدرسة؟! ألم أقل لك صخوراً من الألماس؟! لكننا معجبون بأداء هذا الدور، هذا حقيقي. أحياناً أسأل نفسي، ماذا إن أتيحت لي الفرصة؟! هل فعلاً عندي رسالة حقيقية أريدها أن تصل؟ وماذا إن وصلتْ؟! أساعتها أشعر بالنجاح؟! أم أنني سأجد نفسي كائناً خاوياً بلا هدف أو معنى؟! في الواقع حين أسأل نفسي أهرب دوماً من الإجابة، لكني اليوم وأمامك كي تكون شاهداً عليّ سأعترف، إن واتتني الفرصة سأرفضها! أنا سعيدٌ هكذا! سعيدٌ بدوري في المسرحية الكبيرة، دور شهيد الثقافة المضطهد الذي يحارب الأفكار المنغلقة والأفكار المرائية، ولا أحد يسمعه. حقيقةً

أخاف أن يسمعني أحد! أخشى إن سمعني أحد فيقول لي أنت تضيع عمرك هباء! أخشى أن أكتشف يوماً أن ما آمنت به في كل لحظة وأعاني لأجله كل يوم، هراء! أخشى أن أكتشف أن الحرية، والعدل، والمساواة، والحق، هراء. أخشى أن أكتشف أن الحب، والسلام، والإنسانية، والخير، والجمال، هراء. وأموت رعباً في جلدي أن أتأكد من حقيقة العالم اللعين الذي نعيش فيه، من أن الشر، والعبودية، والظلم، والباطل، والتعصب، والعنصرية، والكره، والحرب، والقبح هي الحقيقة. هي الواقع وهي أصل هذا العالم!. ستختلف معي حتماً وتقول لي لا ليس كل ذلك هو الحقيقة! لكن انظر حولك يا صديقي! انظر حولك!.

وكنت أعرف صخور الألماس!. وقتها نظرت حولي طويلاً، والآن أنظر حولي أيضاً، أستفيق من كلمات ط ببطء، أتأمل وجوه زملائي الباردين، ووجه مستر معتز الذي لا يترك انطباعاً محدداً، لا تعرف هل هو سعيد أم حزين، وأتأمل المحاضر اللطيف الممل، وهو يقول إنه كان سعيداً بتعليمنا ويرجو أن نكون قد استفدنا شيئاً وألا يكون وقتنا قد ضاع هدراً في سماع كلامٍ لم يفدنا، غمغمنا بعباراتٍ مجاملة، وغادرنا.

في الفندق، والذي اكتشفت أن كل العرب الذين يأتون للبعثة

في الشركة نفسها يسكنون فيه، تقابلنا جميعاً في اللوبي، كان عشاءً جماعياً دون مناسبة سوى أن اليوم هو الخميس، والفندق يقدم العشاء مجاناً في ذلك اليوم!. جلست صامتاً لكن على وجهي ابتسامة كي لا يتضايق أحد من وجودي، لكني لم أجد رغبة في الحديث، ليس بعد كلمات ط: انظر حولك يا صديقي! انظر حولك..

من كل الجنسيات نحن. ولم أستطع أن أحدد البلدان سوى باللهجة، فالكل يرتدي ملابس تشبه بعضها، «بناطيل وبلوفرات»، أو بدل، الكل متدثر من هواء الخريف، ودرجة الحرارة التي وصلت اليوم إلى ثلاث درجات تحت الصفر.

أكثرهم حديثاً والذي يبدو أكبرهم أيضاً، هو ف. لهجته الشامية واضحة، لا يحاول أن يخفيها، بل يبدو لي فخوراً بها بطريقةٍ ما، لم أعرف من أي بلاد الشام هو، حسبته لبنانياً، بشعره الطويل المعقوف على شكل كحكة خلف أمة رأسه، وفتحته للقميص وسلسلته الذهبية المختلطة بشعر صدره الكثيف. لبنانيٌ كما يكون اللبنانيون في الأفلام. لكني لم أسأله لأتأكد، ربما كان من بلدٍ آخر، تتشابه لهجاتهم على أية حال وأنا لست خبيراً..

سمعته يقول: أنا مِتْأكِّد، المُحاضِرَة الجَايَه إسرائيلية!.

يتأفف البعض، ويبتسم بخبثٍ البعض الآخر..

– متأكد؟ ومن وين عَرَفت؟

– أنا بعرَفها منيح وهيَّ اليوم بعَتتلي رسالِة.

واحد يميل على أذني ويقول: ف هذا نسوانجي وخمورجي! يعرف حريم الدنيا والآخرة. لا أستبعد أن يكون نام أصلاً مع هذه المُحاضِرَة!.

والأخ ف يقول: أنا نِمِتْ معها شي مرتين تقريباً! ويشير بإصبعيه ضاحكاً في جلبة.

– صف لنا كيف هن الإسرائيليات!. سأله أحد زملائي.

– شو بِدِّي أحكي؟! هُني كتير مِختْلفين. ما بينافسهم غير المغربيات. وضحك معتذراً: أنا ما بقصد الإهانة! ثم أكمل كأنه لم يقل شيئاً: هُني بيجمعوا الغرب والشرق مع بعض، جمالهن شرقي، وتحررهن بالتَخِتْ غربي.

لم يسأل أحد، لكن ف هذا أخذ يستزيد: هُني بعرفو كيف بِدُّهم يثيروك، بعرفو كُل مداخل الرِّجَّال، بحكي طبعاً عن الرِّجَّال الحقيقي.. شو بِدِّي أحكيلكم أنا؟! بِدكم تعرفو عن خ؟ أوكي هي حلوة كتير، بكره راح تشوفوها في المُحاضَرَة. جسمها بيشبه إزازة الكوكاكولا، كل شي بمكانه وبالحجم المثالي، الشفايف، الصِدِّر، الأفخاد، المؤخرة، وحتى بطات رجليها، راح يكون من حظْكُم لو إجَت بقميصها الأبيض وتنورتها القصيرة. ثم تمخض كلاماً فاحشاً جداً، لكن لم يقل له أحدٌ توقف. البعض

تضايقوا وقاموا من على الطاولة الجماعية، لا أعرف هل صعدوا إلى غرفهم أم ذهبوا إلى طاولةٍ أخرى.

ظل كلامه يتجول في رأسي طوال الليل، يضرب في جنباتها، وشعرت بسخونةٍ بالغة تجتاح أوصالي، وذكورتي تتأجج، فصرختُ: لا! خرجتْ مني ضعيفة جداً! ثم دون إرادتي، عادت ذاكرتي إلى زوجتي ع، وهي ملقاة على السرير أمامي كجثة، أقلبها يميناً، فتنقلب معي، كقطعة صلصال، أقول لها استديري، تستدير، أحركها بيدي كيفما أشاء، لا رد فعل على الإطلاق، أغوص داخلها وهي مغمضة عينيها لا تخرج عنها آهة أو تنهيدة، منذ ليلتنا الأولى وهي على ذلك الوضع، لا تتغير، أربعة أشهر أجامع جسداً هامداً، أديرها في كل الاتجاهات كما أريد، أقبلها، لكنها فقط مغمضة العينين، تتركني أفعل بها ما أشاء. لا لا لا.. ليس هذا وقته وليس من حقك أن تتذكر تلك الأشياء! ليس هنا، وليس وسط هؤلاء. في مرةٍ أمسكت بها في المطبخ، كنت سعيداً لسببٍ ما، ودخلت عليها المطبخ من خلفها، فقالت حمداً لله على السلامة، ابتسمتُ وقبلتُ رقبتها وتلك المسافة الفاصلة بين رقبتها وكتفها، لم تفعل شيئاً سوى أنها دخلت إلى الغرفة وألقت نفسها على السرير، ضايقني هذا فنظرت إليها نظرةً خاوية، لا أعرف كيف فهمتها، لكني وجدتها تباعد ساقيها وتستكين منتظرة. تباً تباً تباً! تباً

لك يا ف وتباً لفتاتك الإسرائيلية. قمتُ غاضباً من نفسي جداً، أخرجت ولاعتي من جيب الجاكت.. شليك شليك.. اللهب الأصفر يرتفع على استحياء، قربتُ إبهامي الأيسر، ثم وضعته في النار، وأخذت أجز على أسناني من الألم، ثم لا أعرف كيف ولا متى أبعدت إصبعي، قد صار مشوهاً جداً، آلامٌ رهيبة عصفتْ برأسي كريح بحر هائج، وكدت أصرخ، لكن نفسي منعتني وقالت شمتانة: تستاهل!.

* * *

في الصباح وصلنا إلى قاعة المحاضرات. ذهني مشوش من أرق أمس، وإصبعي ملتهب، أتحاشى أن يراه أحد، أخفيه في جيب الجاكيت الجلد، والناس يحسبونني أتدثر من الزمهرير. الجو غائمٌ جداً، وخيل إليّ أني سمعت رعداً، ربما لا يزال الجنين يكتمل في رحم السماء، لكنها ستلده اليوم حتماً. كانت القاعة مكيفة، فلما هدأنا في جلستنا خلعتُ الجاكت الثقيل وأخفيت إصبعي جواري.

بعد قليل دخلتْ علينا ترتدي »بالطو« طويلاً زيتياً، ويحيط رقبتها وشاحٌ أخضر غامق، دخلتْ في هدوء، وضعتْ حقيبتها على المكتب، ثم ذهبتْ إلى المشجب، فخلعتْ البالطو والوشاح وعلقتْهما بلا اكتراث. والأنظار كلها تلتهمها التهاماً، كان

أسفل البالطو قميصها الأبيض الشفاف الذي يبرز صدرها وحمالتها، وتنورة قصيرة من الجينز الأزرق، يخرج منها فخذاها بيضاوين بضين مكتملي الاستدارة مع سمانتيها الناعمتين، ويبدو أنها كانت معتادة على تلك النظرات وتلك الهمهمات، فلم تبدِ أي اهتمام، ثم نقرت بإصبعها على الطاولة كي ننتبه ونرفع أعيننا من على مفاتنها وننظر إلى وجهها. لكن ذلك لم يجدِ نفعاً، فوجهها مرسومٌ بدقة، جميلاً يفوق الجمال ذاته، شفتاها ورديتان تواقتان ممتلئتان، شعرها الأصفر يحيط بها فيضفي عليها بهاءً شديداً، لكن عيناها كانتا غامضتين، هامدتين خاويتين، لا حياة فيهما، أو ربما فيهما حزن شديد، جعلتاني أخافها لوهلة. جمالها سام، جمال الأفاعي، تغويك بالاقتراب، وحين تفعل تنقض عليك، تنشر سمومها في جسدك، وبدت لي خ سامة جداً، جميلة جداً.

دون إرادةٍ منها ودون أن تنتبه، انفتح أول أزرار قميصها، من ناحية الصدر. صدرها المثير يكاد ينفجر كبتاً داخل قميصها، كيف استطاعت أن تغلق تلك الأزرار أصلاً. أتخيل تلك الأزرار وهي تنفتح واحداً تلو الآخر، تنفتح لي وحدي، ثم تخلع هي قميصها تماماً، وتقف تتمايل، ثم تخلع تنورتها وتلبسها، تنزلها قليلاً فتبرز قطعة القماش الخفيفة التي ترتديها ثم

تلبسها، ثم تخلعها تماماً وتبقى كأنها على الشاطئ، تتمايل، ترقص، ولا أعرف كيف سمعتُ موسيقا في أذني، ولا كيف تخيلتها، وهي تخلع القطعتين الباقيتين، وتصير عارية تماماً، ولا تزال تتمايل وتعض على شفتيها المكتنزتين الشبقتين، وتشير إليّ بإصبعها أن أقترب، أقترب، أقترب، وعرقٌ بارد اجتاح وجهي، ورعشةٌ باردة جعلتني أنتفض حين وجدتْها تشير نحوي وتقول: أرجو أن تنتبه معي!.

فاعتذرتُ، واعتدلتُ في جلستي، وكأني لم أكن حقاً منتبهاً معها!.

كَرُفاتِ ميت

أداعب الولاعة في جيبي وذهني لا يستجمع أي شيء من الخطبة التي يقولها الرجل التونسي على المنبر. لا أعرف إن كان تونسياً أو مغربياً، لكنه يتحدث بالقاف ولهجته تشبه لهجة أهل المغرب العربي عموماً. أداعبُ الولاعة وخجلٌ شديدٌ ينتابني من تلك الخيالات المريضة التي عبرت برأسي طوال المحاضرة. كانت كلما تحرك جسدها كلما بدت لي ثنياته، غامضةً مثيرةً ككهفٍ في المحيط لم يطأه بشر، وكلما برز جزءٌ من لحمها الأبيض كلما شعرت بالسخونة تجتاحني، وأحاول أن أركز فيما تقول، فأفشل، وأظل أرمق شفتيها شبقاً، أود لو أنقض عليهما آكلهما بين شفتي، ألتهمها ولساني يغوص داخل فمها. يا إلهي الرحيم! أستغفرك وأتوب إليك! أهذا التفكير القبيح في المسجد؟! أجننت؟!

ظللت خجلاً أشعر أن الخطيب قد رأى ما تخيلته، لا أجسر على رفع عيني نحوه، ولا أعرف كيف مرت الصلاة، ولم أنل منها سوى حركاتٍ لم تمنحني أي معنى. فقدت الاستمتاع بالصلاة من زمنٍ بعيد. زمن بعيد جداً. وتبقى تلك الذكرى من المشاعر الدافئة التي انتابتني أثناء سجودي مرةً، مجرد ذكرى

غامضة. أحسب أحياناً أنها حدثت لشخصٍ غيري، لكني أعود فأشعر بأثرها لا يزال باقياً داخلي فأدرك أنها حدثت لي أنا.

كان ذلك بعد رحيل ح، اكتأبتُ، وكدت أفقد تقدير الجيد جداً، في آخر سنيني في الكلية. لم أجد ملاذاً في الأغاني الحزينة، ولم أجد راحةً في الروايات التي صرت قارئاً نهماً لها، ووجدتني أنجذب نحو المسجد انجذاباً، كما يحدث بالضبط في أيام الامتحانات، وكأنه هروبٌ من كل شيء، إلى الذي تؤمن أنه صانعُ كل شيء. فجأةً تكتشف أن الله موجود، يمكنه أن يخرجك من متاهتك هذه، لو فقط تلجأ إليه. في البداية استحييت منه، أأذهب إلى الله أشكو من قصة حب؟! وفي نفسي كنت أستشعر أن كلامي مع ح فيه نوعٌ من الخلوة والحرمانية، فخشيت مقابلة الله في بيته، وأصابني هذا باكتئابٍ أكبر، حتى وجدتني أسلم نفسي إلى المسجد، ساعة صلاة العصر، وأقف في الصف الأول، واشتياقٌ شديدٌ إلى السجود يسيطر عليّ، حتى أني أحسبني سجدت قبل سجود الإمام. وبكيت. بكيت في سجودي، أشكو إلى الله ضعفي، أطلب منه أن يسامحني على خطأ لستُ أعرفه، ربما أني لم أكن على علاقةٍ طيبةٍ معه ولم ألجأ إليه إلا وأنا مهزوم. لكنه سامحني، شعرتُ بذلك، وأنا أناجيه في تلك السجدة الأخيرة، التي ظللت

ساجداً فيها ثلاث ساعات، لا أحس بأي شيء سوى دموعي وهي تبلل خدودي، ورائحتها وطعمها المالح في أنفي وفمي، شعرتُ أني في ملكوتٍ آخر، قلبي يهمس، وأنفاسي مستريحة، وإحساسٌ غامرٌ بالدفء يغوص في أسفل عنقي، ويزحف على فقرات ظهري كله، فيزداد بكائي، حتى استحال نحيباً، لكني لم أكن أسمع صوتي، سمعت تسابيح، وزقزقة عصافير، وصياح ديكة، وقطرات دموعي كقطع بلورية من نور، تلمع في سماءٍ زرقاء بعيدة، أحلق فيها وحيداً، وحولي أطياف بيضاء منيرة. ثم فجأةً قمتُ ولم أشأ أن أقوم، أنهيت التشهد سعيداً، وسلمت وأنا أكاد أجن، أرمق الساعة منتظراً المغرب أن يأتي. كان يوم جمعة مثل اليوم. وكان الجامع به بعض الأشخاص (الملتزمين). جاء أحدهم وجلس جواري، صافحني وأعطاني منديلاً، ونظر لي بإعجاب وقال: ما شاء الله!. لم أقل شيئاً، وأخذت المنديل في يدي، ولم أمسح به دموعي. أردتها أن تظل فوق وجهي إلى الأبد.

قال: أنت ساجدٌ من ساعتين ونصف، قد حسبناك مت، لولا أن ارتفع نحيبك.

ظللت مبتسماً لا أقول شيئاً. سألني عن اسمي، فأجبته. ابتسم ابتسامة واسعة: أأنت أخو و؟!

قلت: نعم.

قال: ما شاء الله! البيت كله مشبع بالإيمان!.

واعتدت أن أصلي كل الصلوات في المسجد، والشخص نفسه الذي عرفت اسمه فيما بعد، يأتي بعد كل صلاة ويعطيني شيئاً بابتسامة، مرةً أذكار المسلم، ومرة عذاب القبر، ومرةً فضل صيام الاثنين والخميس، عرفني على أشخاص آخرين (ملتزمين) ثم بالوقت صاروا هم (شلتي) في المسجد. نذهب معاً إلى الدروس الدينية في جامع النور أو الجمعية الشرعية أو مجمع التوحيد، نستمع إلى شيوخٍ على المنابر يصفون لنا عذاب النار، وعقوبة تارك الصلاة، والبؤس الذي سنلاقيه إن عصينا، ربما مرةً يتحدث شيخٌ عن الجنة، فنبكي أيضاً كما نبكي حين نسمع عن عذاب النار، ونظل نحاول أن نكون ملائكة، أو أنبياء، لا نخطئ أبداً، نسعى بكل جهدنا وكل ما نملك، أن نقي أنفسنا أهوال يوم القيامة، وعذابات النار، تسيطر على رؤوسنا تلك المشاهد التي يصفها لنا الشيخ: القوم الذين تُرضخ رؤوسهم بالصخر، وكلما رضخت عادت كما كانت، لأن رؤوسهم كانت تتثاقل عن الصلاة، ونساءٌ معلقات من أثدائهن أو منكسات من رجولهن، وأقوام يُقطع من جنوبهم اللحم، فيلقمونه، وأقوام تقرض ألسنتهم وشفاههم، بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، وأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعاً من النار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم، وأقوامٌ

كانوا يغتابون الناس في الدنيا فظهرت لهم أظفارٌ من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، وحين أجلس مع أصدقائي في الكلية ونتحدث عن دكتور، ثم أجد لساني ينساب في الحديث معهم، أتذكر ذلك المشهد في خيالي، فأرتعب وأستغفر وأقول لهم لا، لا يصح أن نغتاب الدكتور، فأجدهم يضحكون، بالوقت لم أعد أحب الجلوس معهم ولم يعودوا يحبون الجلوس معي. ويتحدث الشيخ عن أهون أهل النار عذاباً الذي.. واقشعر بدني كله، وشعرتُ بخوفٍ هائل والشيخ يصرخ فينا: تخيل نفسك فقط أهون أهل النار عذاباً! لا أقول لك في الدرك الأسفل ولا في سقر، تخيييييل.. تخيل الجمرة وهي تنزل من دماغك فتخرج من قدمك، جمرة ملتهبة، سخنة نار، يا أخي هل تحتمل لسعة الشمعة؟ أول ما تروح بيتك هات شمعة وجرب حط صباعك في نارها ثانية، والله جل جلاله مش هتستحمل! ما بالك بنار الخالق عز وجل؟! التي هي بسبعين ضعف من نار الدنيا مش نار الشمعة!. بكيت هولاً. ومنذ ذلك اليوم وأنا أحتفظ بولاعة في جيبي، كلما عصيت الله مرةً أو تقاعست عن فرضٍ لسعت نفسي لسعة، كي أتذكر عذاب النار فلا أتكاسل مرةً أخرى. بالوقت وتفانياً في الإخلاص لله صرت ألسع نفسي كلما فكرت في معصية أو ذنب، وأظل أستغفر كأنما مجرد التفكير في الذنب يُحتسب ذنباً. ثم صارت الولاعة هي

الإله!. أصلي كي لا ألسع نفسي بها، وأفعل الخير لأنها هناك في جيبي تلمع مهددة.

ومرةً كان درس الشيخ عن صفة صلاة النبي، فقال إن علينا في كل تكبيرة أن نرفع أكفنا إلى شحمة الأذن، وإن علينا أن نضع الكف اليمين فقط فوق الكف الشمال، ليس الرسغ فوق الرسغ، ولا الذراع فوق الذراع، ثم نقول دعاء الاستفتاح، الذي قاله سيدنا إبراهيم، وألا ننهيه بأن نقول: وأنا أول المسلمين، وإنما نقول وأنا من المسلمين. اقرأ الفاتحة ثم أية سورة تريدها، لكن حافظ على ترتيب القرآن ففي الركعة الثانية لا تقرأ آية قبل الآية التي قرأتها في الركعة الأولى، ولا تقرأ سورة قبل السورة. ثم حين نركع، لابد أن يستقيم الظهر، وتنفرد الساقان والذراعان على أقصاها جميعاً، وتنظر إلى نقطة السجود فذلك يساعد على الخشوع، النظر إلى نقطة السجود يكون طوال الصلاة، ثم تكون ثابتاً في ركوعك لو وضع كوب ماء ممتلئ فوق ظهرك ما تساقطت منه قطرة ولا اهتز، تسبح الله العظيم ثلاثاً أو سبعاً، وتقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح ثلاثاً. ثم ارتفع فقل سمع الله لمن حمده ولا تمسح وجهك فهي بدعة، لا يجوز أن تخفي وجهك عن الله، ارفع يديك إلى شحمتي أذنيك كأنه تكبير، ثم ضعهما جوارك، وقل: ربنا ولك الحمد الشكر حمداً طيباً كثيراً كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك. ثم

انزل للسجود، إن كنت شاباً، لابد أن تلامس قدماك الأرض أولاً قبل يديك، أما إن كنت عجوزاً فيداك قبل قدميك، ثم أثناء الانحناء للسجود، ثبت قدمك اليسرى وقرب إليها اليمنى ثم اسجد، لابد أن تكون جبهتك وأنفك ويديك وأصابع قدميك ملامسة للأرض، ولا تجعل كوعيك أو ذراعيك ملاصقين للأرض، وأصابع يديك عند السجود لا تكون مفرجة جداً، ولا مضمومة جداً، ولا مقبوضة، فكل ذلك حرام، بل تكون وسطاً بين الانفراج والضم، ولا تقرب يديك من رأسك أثناء السجود، بل تكون محاذية للمنكبين، وابعد عضدك عن جسمك، وابعد بطنك عن فخذيك، ولا تجعل رؤوس أصابعك تلامس الأرض، أو تعقد قدميك على بعضها، أي لا ترفع واحدة على واحدة، إنما اجعل بطن الأصابع يلامس الأرض، وقل سبحان ربي الأعلى ثلاثاً أو سبعاً، وسبوح قدوس رب الملائكة والروح ثلاثاً، وأكثر من الدعاء. وعند الرفع من السجود تنصب القدم اليمنى، بحيث تكون بطون الأصابع على الأرض، وتُبسط اليسرى بحيث يكون القعاد على بطنها. أثناء القيام من السجود لا ترفع يديك، فرفع اليد له أربعة مواضع: عند تكبيرة الإحرام، وعند الركوع، وعند القيام من السجود، وعند القيام من التشهد الأول. والتكبير يكون خلال أو قبل أو بعد رفع اليدين. والتورك يكون في الصلاة التي فيها تشهدان، أي الصلاة الرباعية، والتورك هو

إخراج القدمين يميناً، اليمنى منصوبة واليسرى مبسوطة تحت الساق الأيمن، وابسط يدك اليمنى على ركبتك اليمنى، ويدك اليسرى مقبوضة على الركبة اليسرى. عند قراءة التشهد الأول اقبض أصابع يدك اليمنى، واترك السبابة وحركها طوال التشهد فهي تطرد الشيطان. وعند السلام، الأصل أن تنطق بالسلام وتتلفظ به قبل أن تحرك رأسك، ولا تقف بين السلامين، أو تهز رأسك أو أشياء مثل هذه. وعن الذكر بعد الصلاة، قل أستغفر الله العظيم ثلاثاً، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، ومن السنة قول سبحان الله ٣٣ والحمد لله ٣٣ والله أكبر ٣٣ يكون مجموعها ٩٩ واختم بالمائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له. ويكون التسبيح والتحميد والتكبير على اليد اليمنى فقط، ويفضل أن يكون على رؤوس الأصابع وليس على العقل، ولا تستخدم المسبحة فهي بدعة ولم ترد عن النبي. واقرأ آية الكرسي مرة، أما بعد الفجر والمغرب فاقرأها ثلاثاً، وكذلك الإخلاص والمعوذتين، أما الدعاء بعد كل صلاة فلم يرد عن النبي، لكن لا بأس بفعله أحياناً. كذلك لم يرد عن النبي مصافحة الجالس جوارك بعد الصلاة، وقول: تقبل الله أو حرماً وجمعاً. تلك بدعةٌ أيضاً، ثم ضحك الشيخ وقال: احنا بتوع اللي موردش!.

وبعد انتهاء الدرس قمنا لصلاة المغرب، وحاولت قدر

استطاعتي اقتفاء وصف صلاة النبي، يفوتني أن ألمس شحمتي أذنيّ فأعيد التكبير، ويفوتني أن أفرد ركبتي وظهري أثناء الركوع فأبدأ التسبيح من البداية وأنا أعدّل من وضعي، ولم أنتبه إلا والصلاة قد انتهت وأنا لا أذكر حتى ما قرأه الشيخ من القرآن. ناولني أحد الشباب (الملتزم) ورقة مطوية لأربعة أجزاء، فيها وصفٌ مصور للصلاة، فيها كل الحركات، وكيفية الافتراش والجلوس ورفع الإصبع... إلخ. وكان الرجل الذي فيها ممسوحٌ وجهه كتمثال من شمع قد ساح، ويرتدي جلباباً أبيض وعقالاً يختلط فيه الأحمر بالأبيض.

أثناء تلك الأيام واظبتُ على الصلاة في المسجد، في البداية بشغفٍ عظيم واشتياق، بخاصة أني في كل صلاة أحاول تتبع صفة صلاة النبي، في حركات الصلاة كلها، حتى صرت أصلي وكل همي أن أطبق (كتيب التعليمات) بالحرف الواحد، وألا أخطئ خطأ واحداً في الحركات، حين أجلس في المسجد، أظل أراقب أي واحد يصلي، وأكتشف أخطاءه فأشعر داخلي أن فضلي عند الله أعلى، فأنا أصلي كالنبي!. أصلي، أصلي، أصلي، فجر وظهر وعصر ومغرب وعشاء ونوافل وقيام وتهجد، تكبير وركوع وسجود وتكبير وركوع وسجود، حركات! ولم أعد أستشعر أي خشوع، ولا أتفكر في أية آيات، وتلك الذكرى

الغامضة من المشاعر الدافئة صارت كرفات ميت في قبر قفر بعيد، لا يجد من يؤنس وحدته، ولا أحد يعرف الطريق إليه كي يزوره ويؤنسه..

كان أخي وقتها قد التزم من زمن، ولحيته صارت طويلة ويرتدي الجلباب القصير. كان ذلك في سنته الثانية المُعادة للمرة الثانية في كلية الحقوق، حين جاء وقال لأمي إنه قد قرر ترك الكلية والتحويل لكلية التجارة، كان قراره نهائياً، وقتها جننتُ وذهبت جرياً لأبي الذي يعيش في شقة جدي منذ الطلاق، حكيت له وقلت له إن أمي لن تقدر على أخي، هو يحبك فحاول أنت معه! إنه يضيع أحلامه بيديه. اتصل به أبي ولم أسمع ما دار، لكن أبي قال لي بابتسامة مريرة: الحقوق حرام!. قلت له: ماذا؟! لم أفهم!. قال لي: كما سمعت هذا ما قاله أخوك. الحقوق حرام. هكذا قال شيخه وهو سيسمع ويطيع. كلية الحقوق حرام لأن القانون المصري ليس كما في الشريعة. ثم أخيراً تذكرتم أن لكم أباً؟! قلت في نفسي أهذا وقته يا أبي؟ وغمغمت بكلماتٍ لا معنى لها. ثم عدت إلى البيت لأخي، فأعاد على مسامعي ما قاله لأبي، ذكرته بأحلامه، ذكرته بحلم حقوق الإنسان العالمية، قال لي: دعك من كلام الغرب الملحدين الذي يملأون به رؤوس الشباب، هذا كله هراء ما أنزل الله به من

سلطان. إن من يبتغِ العزة في غير الإسلام فهو ذليل. ثم إني أترك هذا الحلم الذي تقول عنه لله، ومن ترك شيئاً لله أبدله الله خيراً منه!. كان النقاش معه مستحيلاً، فقلت له: خلاص أنت حرا. هذا مستقبلك الذي ضاع منه ثلاث سنوات هدراً. ثم ساد الصمت قبل أن يتنحنح ويقول: وماذا عنك؟ إن كلية الآثار... قاطعته صارخاً: لا! أكمل: لكن الشيخ قال إن.. كررت بصوتٍ أعلى: لا! لا شيخ ولا يحزنون. قال غاضباً: أنا غرضي مصلحتك! لا أريدك أن تأكل أنت وأولادك مالاً حراماً! ثم خرج وصفق الباب خلفه، ووقفت أنا ذاهلاً وأنا أردد: كلية الآثار مال حرام؟ وجدت أمي تقول وهي تربت على كتفي: معلش استحمل أخوك، من يوم ما خرج من المعتقل يا حبة عيني وهو حاله متشقلب. حسبي الله ونعم الوكيل في اللي ضيعوك يا ضنايا وضيعوا شبابك. صارت حجة كل شيء، الأشهر الستة التي قضاها أخي في المعتقل في النصف الثاني من سنته الثانية بالجامعة، لم يتحدث معنا عما حدث هناك، ولا عما جرى له، خرج شخصاً آخر فقط. ولم نشأ أنا أو أمي أو أبي أو أي أحد أن نتحدث معه عن تلك الذكريات التي بالتأكيد ليست لطيفة إطلاقاً. لكنه ولمدة سنة كاملة، صار أكثر عصبية، أكثر انطواءً، يقابل أشخاصاً كثيرين، أطلق لحيته تماماً وارتدى الجلباب

القصير والقلنسوة، وكلما زعق أو تطاول على أمي أو فعل شيئاً ما ضايقني، تقول لي أمي: استحمل أخوك الصغير، أنت الكبير العاقل، ثم تكرر كلامها بالحرف: منهم لله، حسبي الله ونعم الوكيل في اللي ضيعوك يا ضنايا وضيعوا شبابك. وذهبت إلى المسجد، إلى (شلتي) وشكوت لهم ما حدث، فوجدتهم استحسنوا صنعة أخي، وقالوا ماذا لو فعلت مثله؟ فعلاً قال الشيخ (...) حفظه الله ونفع به الناس إن كلية الحقوق حرام، وقال الشيخ (...) أتم الله عليه نعمته إن الآثار نفسها حرام، وفيها تشبه بالجاهلية والأصنام، ولابد على الأقل من طمسها. قلت محتداً: وهل يعرف هذا الشيخُ الدينَ أكثر من عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص؟! هل يعرفه أكثر من عمر بن عبد العزيز؟! غضبوا وقالوا تأدب مع العلماء، فإظفرهم برقبتنا جميعاً. تركتُ مسجدهم، يشغلني رغم كل شيء أن أخرج منه بقدمي اليسرى قبل اليمنى!.

* * *

انتهى الشيخ التونسي من خطبته، وأقام الصلاة، فقمنا، اصطففنا، وأدينا الحركات، من شعر منا بمشاعر دافئة؟ لست أدري. بعد الصلاة هربت من الجامع، يكفيني ذلك القدر من الذكريات البائسة اليوم، لا أريد التفكير في أي شيء.

الجو غائمٌ وزخات المطر في انسجامٍ تامٍ مع ذرات الهواء، ثم زاد وزنها فصارتْ قطرات تضرب المباني والرؤوس والوجوه والأبدان والأرض. جميع زملائي أقصد الذين صلوا منهم قرروا العودة إلى الفندق، هرباً من المطر ربما، لا أعرف، لكني اعتذرتُ لهم وقلت إني سآخذ جولة في الأماكن السياحية التي لم أزرها بعد. لم يعلقوا ولم يهتموا، وأخذتُ أهيم في الشوارع وليس في ذهني أية منطقة سياحية أزورها، وليس حتى لدي أدنى رغبة في أن أزور أي شيء. أريد الذهاب إلى تلك الحديقة التي ذهبت إليها في أول يومٍ لي في هذا البلد. أريد الوقوف أمام حوض الزهور البنفسجية مرةً أخرى. هل هي ذكرى ع؟ أم ذكرى د؟ أم ذكرى ح؟! هل ع لأننا ذهبنا إلى حدائق كثيرة معاً؟ أم د لأنها تتأنق دائماً بعطر الورد؟ أم ح لأنها تحب زهور البنفسج؟! أو ربما لا لشيءٍ من هذا، ربما ذلك الإحساس بالشجن أمام المطر، وبعد كل تلك الذكريات، ربما.. لكني أيضاً لن أذهب إلى الحديقة، لا أريد أية ذكريات. أخذت أسير تحت المطر، والناس حولي يرتدون أكياساً بلاستكية فوق ملابسهم، ويرفعون مظلاتهم السوداء والملونة فوق رؤوسهم.

سرتُ في شوارع نظيفة رغم المطر الذي انسكب لا أعرفها، أضرب الحصى الذي يواجهني من حين إلى حين، والمطر قد أخذ هدنة يحضر فيها لضربةٍ مفاجئة. هناك مقهى يبدو لطيفاً

وهادئاً يظهر لي من بعيد. قررت الذهاب إلى هناك، أجلس قليلاً وأحتمى من الهواء البارد العنيف الذي اكتشف قوته فجأة. أثناء طريقي، لمحتُ فتاة تزعق في الناس وتدفعهم، والناس بعضهم يتحاشونها، والبعض يردون بدفعها فتسقط، أصابتني شفقة، ولم أفهم، فلما وصلت ناحيتها، وجدتها خ، تصرخ في الناس: يا حمقى!. وتظل تضربهم، تقول: ويك آب.. ويك آب. تهزهم بعنف: أفيقوا. فيدفعونها، ورجلٌ دفعها أرضاً وهو يقول: مارسي عهرك على شخصٍ آخر (يُوْ سَنَافْ بيتش). شعرتُ بأنها مسكينة، بعد سقوطها على الأرض وانتحابها الشديد إثر دفعة الرجل. توجهتُ ناحيتها، ومددت يدي كي أساعدها على القيام، وقلت: ما الأمر يا آنسة خ؟! أنا كنتُ معكِ في محاضرة اليوم!. نظرتْ لي وهي تتجاهل يدي وقالت: وماذا تريد؟ تريد صدري الذي كنت ترمقه طوال المحاضرة؟! ثم قامت في شراسة وأخذت تدفعني بقبضتها في صدري، وتحاول ضربي في وجهي. انفعلتُ: أهذا جزائي أني أحاول مساعدتك! خفت حدة ضرباتها، وقالت وهي تستعد للبكاء كما بدا من صوتها: أنا لست في حاجة لمساعدة أحد. (جُو أواي. جُو). لكني لم أذهب، ولمع البرق، تلاه الرعد، وانهمر المطر.

* * *

حقاً جميلة. رغم أن الكحل الذي أحاطتْ به عينيها قد صنع

أخدودين أسودين على وجنتيها بسبب الدموع والمطر. هشة كقشرة بيضة، وشفتاها ترتجفان من البرد. تجلس قبالتي، تتوسد يدها وتحرك الملعقة باليد الأخرى في كوب القهوة الساخن بلا معنى أو هدف. خجلتُ قليلاً، ونظرتُ نحو جدران المقهى الزجاجية فوجدت المطر عنيفاً لا يزال، ولن نستطيع المغادرة. المقهى يزدحم حثيثاً حتى صار لا مكان لأحد، ولا صوت يعلو فوق صوت رصاصات المطر على الجدران الزجاجية للمقهى.

رفعتْ رأسها نحوي فجأة وقالتْ: (آمْ سُوري).

– لا عليكِ. أرجو أن تكوني بخير.

صمتت من جديد. فحاولت أن أدير دفة الحديث نحو أية نقطة: منذ متى وأنت تعملين في هذه المحاضرات؟!

– وماذا يَهمُك؟!

احمّرت أذني، فقالت محرجة: أنا آسفة مرةً أخرى! صدقني. اعذرني أنا هكذا حين أشرب، وأنا لا أتوقف عن الشرب. وتوترت وهي تكمل: لا أريد أن أتوقف. طبعاً ستقول لي مثلهم ولماذا لا تريدين؟! رغم أنه ليس من شأنك ولا شأنهم، لكن تلك هي اللحظات الحقيقية الوحيدة التي أعيشها، أقصد وأنا مخمورة. عالمٌ مجنون، المجانين فيه هم العاقلون، والعاقلون كلهم مرضى. حين تصير مخموراً تصير مجنوناً. أقصد

عاقلاً. تتكشف لك الحقيقة الكاملة، فأحاول إفاقة الناس من عقلانيتهم، أقصد جنونهم، كي ينتبهوا لتلك الحقيقة هم أيضاً.

كدتُ أسألها وما هي تلك الحقيقة، لكني تذكرتُ أنه ليس من شأني أو شأنهم! وانتبهتُ أنها أصلاً تنظر نحوي لكنها لا تراني، هي تحادث نفسها على الأرجح، فأنصتُ وأنا صامتٌ أدير فنجان قهوتي في طبقه الصغير.

قالت: والسفلة يدفعونني إلى الأرض! أغبياء. ثم رفعتْ فنجانها نحو شفتيها الورديتين لكنها قبل أن ترتشف منه رشفة وضعته وقالت في حزم: بالطبع ما قلته لك الآن وما رأيته لا أريد أن يعرف به أحد من زملائك، اعتبر أنك لم ترَ شيئاً، ولا تنتظر أن نكون أصدقاء فأنا لا أصادق تلاميذي، أعني لا تنتظر مني أن أنظر لك على أن بيننا سراً أو أن أنام معك مثلاً!.

أومأتُ برأسي وأنا أحاول أن أختفي في فنجان قهوتي. ثم قلتُ وأنا لا أزال أحاول الاختفاء: أنا آسف بالنسبة لـ... أقصد الصباح.. في المُحاضرة.. أقصد أنا لم أتعمد..

قامت وقاطعتني بيدها ترفع رأسي، وقبلتني على خدي قبلة بلا طعم، ثم غادرتْ، تاركةً عقلي يلتقط أنفاسه. ولم يكن المطر قد توقف، وفنجان قهوتها لم يُمس.

الوطن

في الليل جثم الزمهرير. وابيضت الدنيا بثلوجٍ رقيقة، تتراكم فوق بعضها بعضاً حتى صارت تلالاً فوق تلال، وعتباتٍ أمام العتبات، وطرقاً جديدة غير الطرق. واقفٌ في غرفتي بالفندق، أتطلع من نافذتي الصغيرة وقد اشتعلتْ تدفئة الفندق المركزية بأقصى درجاتها. رغم ذلك تدثرتُ قدر ما استطعتُ، والزكام يداعب أنفي وصدري محاولاً النفاذ إلى جسدي. نزلتُ إلى اللوبي علني أستأنس أحداً من زملائي، بدلاً من هذه الوحشة. أنا أكره المطر. وأهاب الزمهرير. والليل ثالثهما قد جاء يُحكم الحلقة المفرغة حول روحي. وجدتُ بعض العرب الزملاء، واحدٌ فقط منهم زميلي من الشركة نفسها. المتحدث كالعادة هو ف، يتحدث ملء فيه ويضحك ضحكته العالية، وشعره المصفف بعناية على شكل ذيل حصان، يرتج مع ضحكته فيبدو حصاناً فعلاً.

ألقيتُ السلام، رده قليل، وجلست معهم أستمع لصخب ف، يحادث أحد الجالسين ضاحكاً:

– يا عمي، أنا جربت كل الأوضاع، مع بنات من كل الجنسيات، تقريباً من كل بلاد العالم! وما سمعت أبداً عن

هايدا الوضع الغريب اللي قاعد بتوصفه.

بيده كأسٌ كبير فيه سائل أحمر، وأمامه زجاجة رفيعة العنق، يصب منها في الكأس ويشرب على دفعةٍ واحدة، يشاركه بعض الجالسين، وكلما جرع كأساً احمّر وجهه كعرف ديك. أشاح بوجهه وهو يكمل جدياً: صدقني ما توصف هايدا الوضع لأي بنت، عشان ما تطلع أراجوز في عينيها، يمكن تصير تعايرك فيه بعدين، بخاصة إذا فِشلِت وهايدا شي مافيه شك أبداً في تنفيذه.

ثم ضحك كأنما يحادث نفسه: بِدْو يعلمني وضع جديد. ثم علا صوته: يا عمي نحنا اللي اخترعنا الأوضاع.

ابتسمنا جميعاً، ولاحظتُ أنه بدأ يفقد اتزانه. أكمل:

– هأ! الأوضاع! أي أوضاع؟ الأوضاع السخيفة اللي في الأخير بتجيب أولاد متلنا! يجيبونا على هالدنيا بدون ما يسألونا، بعد هيك بيحملونا هموم غصب عنا، ويكسرولنا ظهورنا بشغلات أبداً ماشغلت بالهم كمان غصب عنا، كأنهم هيك بيعوضو تقصيرهم، وبيرضو ضميرهم. مالي أنا ومال فَلَسْطين؟! أبوي فَلَسْطيني آه. لكن أمي إماراتية. وأنا من كل العالم، ما تَرَكِت ولا مكان ما زرته، شفت كل شي وكل الأماكن، لكن في الوقت نفسه ما نِسِيت مكاني الحقيقي، رغم أني ما زرته أبداً. وما خطيت برجلي فوق شبرٍ من أرض فَلَسْطين. ما

بعرف. دايماً أبوي بيلوم على الفلسطينيين ويقول إنهم هم اللي ضيعوا حقوقهم، بفرقتهم وجبنهم، وخيانة كِتير منهم للقضية. أصير أطلعله وبدي أحكيله على أساس أنت حامل الكلاشينكوف يا أبوي؟ أنت قاعد بتسمعنا مواعظك من ورا هالكرسي الجلد الضخم، في أعلى مباني أبوظبي.

قالها محتداً، وضحك الباقون، غمغموا أن بدأنا، وقال لي أحدهم: هكذا ف حين يلبسه شيطان الخمر، يظل يهذي عن أبيه وفلسطين وإسرائيل. ثم ضحك وقال لي: جميعنا متفهم أنك لا تقاوم الجلوس لتسمعه، لذا لنا رجاء بسيط، حين ينتهي ويفقد وعيه أمامك، اطلب من العمال أن يساعدوك كي تعيده إلى غرفته. اتفقنا؟

قالها وغادروني، و ف ينظر مشوشاً ثم تطلع نحوي وقد ملأ كأساً جديدة، أكمل:

– كان أبوي شاب بأول عمره أيام التمانية والأربعين. بيقول إنه كان بيحمل الجرحى على كتافه وهو لسه عمره أربعتاش سنة، بلِف بين أشلاء هالبلد الضايعة، وصفير البنادق والقنابل بدو يخزّق طبلة أدانيه. جدي كان بيحارب هناك، وعميّ كمان، الكل محاصر ورصاص الهاجاناه بتستهدفهم من بعيد. ياه على هالعرب الكلاب، بيبعتولنا

جيش يجردنا من سلاحنا اللي بندافع بيه عن أراضينا؟ خدوا السلاح من جدي وعميّ لجل يمنعوا الفوضى ويعرفوا يحاربوا هالقرود! المقاومة صارت فوضى! جايين يحاربوا ولا يمنعوا الفوضى بسلاحهم الخربان؟ بس أبوي وعمي وغيرهم ما سكتوا هجموا على هالقرود بإيدهم، بيستهدفهم هالخنازير وبيضحكو، جدي وقع عالأرض وماحط منطق، وعمي بعده، والتالت وقع متأثر بجراحه، حمله أبوي على إيده، قال له عمي: روح عالبيت، احمِي النسوان. ترك أبوي كل شي، ضلو يركض، ما بيتذكر أبوي كم ليلة ضلو يركض، بيطارده طيارة مرة، عصابات مرة، جواسيس عرب مرة. بس بالأخير وصل لبيتنا. كان رَدِم مش ضايل منه إلا ربعه. ما كان في سما، كانت الدخنة والصَرِيخ عاملين سُحب سودا خافيه كل الأنوار. وين إمي؟ وين أختي؟ بيدوِر تحت الرَدِم، بيدوِر هون وهناك، كان في زاوية اتكوم فيه الدُبان فوق الجثث، لمح رأس الأولى، وخاتم التانية في إيد مقطوعه. ما راح لعند هالكومه. سافر. عالأردن بالأول. كِيف؟ هو ما بيتذكر. بعدين على سوريا بعدها على لبنان بعدين مصر بعدها ليبيا وبعدين على العراق وآخر شِي على الإمارات. كان بشتِغل كل شي وأي شي، أسأله يا أبوي وين كان وطنك؟ يقول: الوطن هو المكان اللي بتقدر

تاخد فيه قرارك وتنفذه، هو المكان اللي بتقدر تقول فيه أنا قوي. كل الأماكن اليوم وطني! بتعرف ليش؟ لأني قوي وبقدر آخد قراري بهاي لوراق الخضرا.

ذكرني بأبيات لدرويش ربما لا علاقة لها بكلامه، ربما فقط لأن درويش فلسطيني مثله: وتسأل ما معنى كلمة »وطن«؟ سيقولون هو البيت، وشجرة التوت، وقُن الدجاج، وقفير النحل، ورائحة الخبز، والسماء الأولى. وتسأل هل تتسع كلمة واحدة من ثلاثة أحرف لكل هذه المحتويات.. وتضيق بنا؟!

تنبهتُ على صوته يكمل: القوة هي كل شي. وفعلاً أبوي كان مخه غزاوي. إذا أخد قرار مستحيل يتراجع عنه لو إيش ما صار. عنيف بيضرُب أمي ليل نهار، إذا عِمْلِتْ شي بيعجبه، إذا عِمْلِتْ شي ما بيعجبه، أو حتى إذا ما عِمْلِتْ أي شي أبداً، بيضربها بكُندرته أو القشاط تبعه أو يضربها على وجها. طبعاً هاد غير ضربه للشغالين.. آه.. أغلب خدمنا فلسطنيين. وأنا صِغير كنت بفكره بيشغلهم عنا لأنهم متله أو من جنسيته، بس لما كِبرت عِرفت أنه بيشغلهم عنا أصلاً لهاد السبب مش لشي تاني، ما دَخله العَطِفْ هون. يمكن على العكِس كان بيتعمد توظيفهم عشان يتلذذ بممارسة قوته عليهم، يمكن عشان ينتقم منهم كأنهم هم المسؤولون عن موت أهله. الخادم

الخِتْيار هو الوحيد اللي أبـوي مـا كـان يضرُبُه، بطريقة أو بالتانية هو بلش يكرهه، لكن ما بيقدر يستغني عنه. كان هو اللي بيمشي الخدم تحت إيده وبيجيب جداد إذا طرد أبوي حدَ. كان بيطرد كتير. يحكيلهم إنهم مجرد لاجئين زباله. يسكتوا. واحد أو اتنين تحمر وجوهم ويصيروا يصرخوا فيه، يا عيني بعدها شو بيصير لو تشوفوا كيف بيضلو أثر كُندرته معلم على قفاهم. والخادم الخِتْيار كان بيحبني وكنت بحبه. على وجهه دايماً كنت أشوف علامات كتيره، إيده الشمال كانت مقطوعه. كان بيخبْرني ويحكيلي ليل نهار عن فلسطين وجمالها، عن بلدنا اللي احتلوها، وعن الدم اللي بيسيل ولا حد بيدافع عنه. كنت أحكيله وأقوله وشو اللي بتقدر تعمله وأنت مجرد خادم مسكين إيدك مقطوعة؟! ما كان يرد، بس كان يقولي: عملنا كتير زمان هلأ إجا دوركم، لو ما كان انتو على القليله علمو ولادكم كِيف. ما كنت بفهم هالحكي وقتها. لما مات زعلت عليه كتير، وقلت ليش الموت دايماً بياخد اللي ما بستحقوه؟! ليش ما يموت الظالمين مثلاً؟ ليش هما يعيشو كل هالأعمار؟ ولا يمكن الموت فعلاً بياخد الناس اللي بيستحقوه؟ بيريحهم من هاي الدنيا ومن هالعذاب؟ وهو فعلاً كل هادول المتكومين في هالمذابح بيستحقوه ولا لأ؟ هاد الطفل الرضيع؟! وهاديك

الأم المسكينة؟ وهاد الولد اللي حامل شنطة ألوانه يرسم فيها عالم حِلو فوق كل هالدخان والصراخ والدم والقنابل؟! وهاد الخادم الخِتْيار اللطيف اللي وجهو مليان علامات الزمن؟! بيستحق يموت؟ ولا أنا اللي ما بستحقه حي؟!

سألته: وما الذي فعله أبوك حين مات؟!

فوجئ بالسؤال! قال مندهشاً: شو سوى أبوي؟ ولا شي!. راح عالمغسله. بعدها عالكفن. وآخر شي على مقبرة صغيرة اندَفَن فيها من دون ولا أي عنوان أو كلمة. ثم ضحك: بعد هيك عرفت من هو.

سألته: ومن هو؟!

قال: يا الله! أنتَ بتسأل كتير. أنت شربت شِي؟ خلينا نغير هالجو النكد. قوم يلا خلينا نروح نرقص.

قاومته قليلاً لكنه أصر وجذبني من يدي. ذهبنا إلى تلك القاعة في الفندق، موسيقا صاخبة وفتيات شبه عاريات ورجال يتمايلون خلفهم. أضواءٌ بلا معنى أو اكتراث وبلا ترتيب. ناولني كوباً به سائل أخضر وقال: جرب هاد بطعم التفاح. قلتُ: لا أشرب الخمر. لم يسمع وهو يهز رأسه مع اللحن وقال: بتكون إمك داعيتلك وحظك من السما إذا صوفيا طلعت هون هي وصحباتها. تركتُ الكوب، وتلفتُ حولي فوجدته

اندفع لوسط ساحة الرقص وأخذ يتمايل بعصبية، حتى أسقط الكوب من يده، ودار حول نفسه وسقط. ذهبت من فوري وساعدني العمال في حمله وصعدت به إلى غرفته، ثم ذهبت إلى غرفتي، وقد قررت عبثاً أن أنام، ودرويش يسأل لا يزال: «هل تتسع كلمة واحدة من ثلاثة أحرف لكل هذه المحتويات.. وتضيق بنا؟!» ولا أجد له إجابة.

رائحةُ القهوة

صباحٌ جميل. أشعر أني أفضل حالاً من الأمس. شربتُ كثيراً كالمعتاد وقابلني ذلك الطالب الوسيم. لا يبدو من ملامحه عربياً ربما نظرة عينيه فقط إن دققت فيها ستعرف أنه عربي. نظرة (أنطوني كوين) في عمر المختار، لكن تائهة قليلاً.

كنت صلفةً معه أعرف!. أعرف أن أسلوبي حين تستحوذني الخمر سيءٌ جداً. وهو الوحيد الذي حاول أن يساعدني منذ زمنٍ بعيد. ربما منذ أيام مارك زوجي الأول والأخير. أجمل ما في الخمر أنها تنسيني تلك الأيام. أيام مارك وذكرياتنا على شاطئ المحيط في أمريكا. يعدو ورائي ويطاردني عبر النخلات الباسقة، وأنا أضحك كما لم أضحك من قبل، حين يمسكني يوقعني ويقع فوقي، ثم أخجل فأقول له: أهنا؟ فوق الرمال؟ أمام السماء وماء المحيط؟ فيقول: نعم كي يشاهدنا العالم كله ويحسدنا. أتحبني؟ أحبكِ! ثم نستكين وقد انتهينا، السماء زرقاء فوق رأسي وأنفاسي في صدره. ألن ننجب طفلاً؟! يتلجلج. لا ليس اليوم، قلتُ صباحٌ جميل. وقررتُ أن أصالح ذلك الطالب الذي لم أعرف اسمه. لا أعرف ما الذي سأفعله معه لكني على الأقل يجب أن أعتذر له.

حين جاء بدا عليه أنه لم ينم جيداً. عيناه منتفختان قليلاً، ولا يفارق المنديل يده بسبب بردٍ أصابه كما وضح لي من احمرار أنفه المبالغ فيه. من الواضح أنه مر بليلةٍ مرهقةٍ حقاً، المسكين بالتأكيد أصابه البرد بسبب الأمطار التي تلقاها فوق رأسه وهو يحاول مساعدتي. كم أنا حمقاء!. بعد المحاضرة ناديته، تلفتَ حوله متردداً، ثم تقدم نحوي، انتظرتُ حتى غادر زملاؤه القاعة. قلتُ لنفسي: ما هذا الذي تفعلينه؟ ما الذي سيظنه الآن؟! تقدم نحوي متردداً فتصنعتُ الجفاء وقلتُ بلهجةٍ محايدةٍ: شكراً لكَ. غمغم أنه لم يفعل شيئاً يستحق الشكر، وقال وقد بدا صادقاً إنه لم يفتح فمه بكلمةٍ أمام أحد كما وعدني. لا أدري ما الذي أصابني فوجدتني أسأله إن لم يكن وراءه شيء يشغله اليوم.

– ماذا تعنين؟! حذراً أجاب.

– أعني هل وراءك شيءٌ ما؟ ما رأيك في احتساء كوبٍ من القهوة؟

– .....

– دون جنون هذه المرة.

ابتسم،

– أين ومتى؟

– الآن! في المقهى المجاور.

* * *

لم أكن أعرف ما هذا الذي أفعله. أحطم مبدأ قررته منذ آلاف السنين: ألا أصادق أي تلميذ عندي!. ألم أتعلم الدرس؟! في كل مرةٍ أقول لنفسي سيكون الأمر مختلفاً، لكن الأمر يصير ككل الأمور قبله. بدأ بمارك كان مغترباً جاء من الدانمارك ليتعلم، كان وحيداً لكنه ممتلئاً بالدنيا، وكنتُ وحيدة وممتلئة بالدنيا، صارتْ دنياه دنياي، ودنياي دنياه، ساعدتُه في كل شيء احتاجه، علمته كيف يعود إلى بيته وكيف يأتي، علمته كل شيء، ثم ذلك اليوم حين نام معي، شعورٌ غريب، كأني أنام مع ابني! دوماً ما نظرتُ له على أنه ابني، ربما لأني حلمتُ دوماً بطفل، حين حسبتُ أنه لا يزال بداخلي شيءٌ يستحق أن أزرعه في غيري، وحين ظننتُ أن العالم يمكن أن يتغير. أحببتُ مارك، ولا أعرف إن كان أحبني. لكن كيف أحبني وهو نام مع كل صديقاتي؟ لما هجر سريرنا لشهور كرهته، وتساءلتُ كيف يتركني هكذا، أمام السماء وماء المحيط؟! لكني حين اكتشفتُ مرضه هجتُ بشكره في سري. حتى إيزابيل المريضة بالإيدز، لم تعتقها يا مارك!. حين مرض، لم يخبرني، عرفتُ من صديقتي التي تعمل في المستشفى الذي تتعالج فيه إيزابيل، وبكيتُ. لم أبكه. بكيتُ نفسي، وعادتْ لي كل هواجسي،

لكني رغم كل شيء قررتُ أني سأقف جواره حتى النهاية، لن أتركه الآن كما لم أتركه وهو لا يزال غريباً طفلاً. والوغد يأتي فيصفعني ويقول لي إني أنا سبب مرضه بالإيدز بسبب الرجال الذين أنام معهم من وراء ظهره. ابن العاهرة!. أراد أن يذهب بي للمستشفى كي أكشف. سَايكُو! مريض! أتذكر أيامه الأخيرة. شحب وجهه وصار صموتاً، هشاً كجلد رضيع، يظل مستلقياً على سرير المستشفى ميتاً حياً طوال اليوم، لا يقوم إلا في اللحظات التي يتناول فيها دواءه أو يأتي الطبيب فيقيس مؤشراته كي يتأكد أنه لم يحن موعد إعلان الوفاة بعد. لم أبكِ حين مات. وموته لم يكن مفاجأة. بطريقةٍ ما شعرتُ أني حرة. مات الوغد الذي يقيدني. لا أعرف كيف وافقتُ على الزواج منه في تلك الليلة. لا أعرف كيف صدقتُ هاتين العينين الخادعتين كعيني هرة. ولا أزال لا أفهم. أتى وانحنى أمامي: تتزوجيني؟ أمام كل أصدقائنا، احمر وجهي ولم أشعر بنفسي إلا بين ذراعيه. لكني لم أبكِ حين مات. وموته لم يكن مفاجأة. حتى حين سألتني سارة لم أخبرها بشيء، قلتُ لقد سافر. وسألتني سارة عن علاقتي بإيزابيل قلت لها لا يهم فإيزابيل ستسافر قريباً هي الأخرى. إن الإيدز شركة سفر رائعة!. ومن يومها قررتُ ألا أواعد طالباً عندي. لكني أحنث دائماً بوعودي. ربما لهذا لم أستطع أن أغير عملي حين أردتُ تغييره، بعد

سفر مارك، سافرتُ أنا إلى بيتنا القديم، كي أبتعد عن أجواء الموت والمرض قليلاً، وهناك فكرتُ أن أترك عملي كمُدرسة للمرشدين السياحين الأجانب، ثم جاء جورج وجاء ف وسميث وإبراهام. والآن أنتَ أيها الوسيم؟! لن يكون. لا تنظر لي بعينيك العسليتين فالأمر لن يستقيم. ليس بعد كل ما رأيته. وليس بعد كل ما عشته.

فاجأني بهزةٍ من يده، فأجفلتُ..

– واتْ؟!

– أعتقد أننا جئنا لنشرب القهوة لا لنتأملها!.

– معكَ حق. على كل حال، أنا فقط أردت أن أعتذر عن صلفي بالأمس.

كرر غمغماته أنه لم يفعل شيئاً يستحق الشكر وأن ما فعله هو الواجب لا أكثر.

– ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟!

ولماذا يا حمقاء تسألين هذا السؤال؟! أتحسبينه جورج مثلاً؟ سيقول لكِ إنه جاء من جنوب أفريقيا كي يدافع عن حقوق السود هنا؟! هل سيحدثك عن حلمه بمكتب محاماة يدافع عن حقوق المستضعفين في العالم؟ هل سيقول لكِ »جئتُ لأن الأقدار شاءتْ أن أراكِ«؟! هو ليس جورج! والآن لا

– اعتبريه هروباً من بعض الذكريات كتلك الذكريات التي تعيدها رائحة القهوة.

ضحكتُ.

– لكنكَ لا تعرف هل هي ذكريات سعيدة أم حزينة!

– أحقا؟! إن ما تبحثين عنه ليس حقيقياً ولن يكون! سعيدة جداً كما هو واضح!

هززتُ رأسي بلا معنى، ثم قلتُ:

– فرُم وير؟

– مصر.

– قرأتُ عن لعنة الفراعنة، والجِمال، والصحراء. تبدو بلاداً جميلة.

– هي كذلك. لكن هذا يتوقف على معنى كلمة البلاد.

– ماذا تعني؟!

– لو تقصدين المشاهد الطبيعية والآثار السياحية فهي بلادٌ جميلة فعلاً. أما لو تقصدين أي شيءٍ آخر. فربما نختلف هنا.

– لماذا؟! أنا أعرف أن المصريين شعبٌ لطيف، يحب الضحك، ويحب الدين. شعبٌ عاطفيٌ مرتبطٌ بأرضه كثيراً. أليس كذلك؟ كل ذلك أشياء جميلة!

يسخر مني! لكن معه حق. لا أنكر أني لم أكف عن البحث رغم كلماته، لكني ومنذ خمس سنوات اكتشفتُ الحقيقة التي قالها هو في حروفٍ قليلة ومختصرة...

– إن ما تبحثين عنه ليس حقيقياً ولن يكون!.

– ماذا؟!

– آسفة. سرحتُ قليلاً. بعض الذكريات التي تعيدها رائحة القهوة.

قلتُها وابتسمتُ في توتر.

– شاعرٌ أحبه اسمه درويش يقول: والقهوة لا تُشرب على عجل، القهوة أختُ الوقتِ تُحتسى على مهل.. القهوة صوتُ المذاق، صوتُ الرائحة، القهوة تأملٌ وتغلغلٌ في النفس وفي الذكريات..

– جميل درويش هذا! لم تقل لي لماذا جئت إلى هنا؟!

هز كتفيه وابتسم ابتسامة واسعة، وقال:

– قلتُ إني جئتُ لأجل زيادة في مرتبي. الحياة في بلادنا غالية والظروف صعبة.

– لكن زيادة المرتب ممكنة بأي شيء آخر. لماذا السفر والتعب؟

توتر قليلاً ورفع كوب القهوة يرشف منه، ثم قال:

وجود لجورج! ربما هو الآن يقول الكلام نفسه لفتاةٍ حالمةٍ أخرى. وربما بالفعل يدافع عن حق السود في الترشح لرئاسة الجمهورية! وكأن السود في حاجة للترشح لرئاسة الجمهورية! فليوفر لهم الماء والطعام أولاً. ثم يأتي من أفريقيا كي يقاتل في أوروبا؟ يا للشجاعة! يترك قارةً بأكملها مليئة بالاضطهاد والقهر ويأتي هنا ليقاتل! لماذا لم تقولي له هذا الكلام وقتها؟! أستظلين تقولينه لنفسك فقط؟ منذ أن رحل وأنتِ لا تكفين عن لومه. تقولين لنفسكِ إنه هرب من معركته الحقيقية وجاء يصنع لنفسه وهماً. وماذا فعلتِ أنتِ؟ ألم توهمي نفسك فجأة أنكِ دائماً تريدين الدفاع عن حقوق الإنسان؟ ألم تقولي لنفسكِ إنكِ فجأةً اكتشفت أنكِ لا تحبين الظلم وتكرهين الظالمين؟! ألم يكن كل ذلك وهماً كي يحبك؟ منذ متى وأنتِ تعرفين أن أفريقيا قارةٌ مليئة بالقهر والاضطهاد؟ أليس هذا ما قاله لك؟ كفى! كفى كذباً. ليس هروبه من معركته ما يضايقك، لكن هروبه الغريب منكِ! ذلك اليوم حين لم يكلف نفسه عناء مواجهتكِ أصلاً. رسالة على هاتفكِ، يقول فيها: عزيزتي، لحسن حظك أنكِ جميلة، فذلك يجعل فرصتكِ أكبر في اصطياد الضحايا. إن ما تبحثين عنه ليس حقيقياً ولن يكون، حين تكفين عن البحث يمكنكِ إبلاغي.

– أنتِ تقرأين الكثير من الكتب!

– لا أنتَ تظلم المصريين في الواقع!

– ربما. لكن إن قلتُ لكِ فكرتي عن أوروبا ستفهمين مقصدي.

– وما هي فكرتكَ؟

– بلادٌ جميلة يختلط فيها التقدم بالحضارة، لكن أهلها بلا دين وبلا أخلاق، ومجتمعهم «مخوخ»، وأسرهم مفككة. عالمٌ مادي لا يعرف للعاطفة طريق.

– بالطبع لا! هناك من هناك، لكن كلاهما موجود.

– أرأيتِ؟! نحن لا نمتطي الجمال كي نذهب إلى أعمالنا، ولا نرتدي الجلاليب البيضاء ونسكن في الخيام.

ثم سكتَ قليلاً وبدا سيقول شيئاً لكنه توقف وتلاعب في فنجان القهوة بيده اليمنى، يديره حول نفسه، وانتبهتُ أنه لم يُخرج يده اليسرى من جيبه حتى وهو جالس. سكتُ أنا أيضاً، وبدا الصمت ثقيلاً، فوجدته ينظر في ساعته ويطلب الانصراف، لأنه مرهق بسبب البرد الذي أصابه.

قلتُ له مغتصبة ابتسامة من شفتيّ الرافضتين: أراكَ غداً!

أومأ برأسه مبتسماً، وغادر ليتركني وحدي، ورسالة جورج تعوم فوق ريم القهوة: إن ما تبحثين عنه ليس حقيقياً، ولن يكون!.

وقعُ الأصابع

أرسلوا يطلبوني اليوم في قسم البوليس. جاء شخصٌ أنيق أخرج شارته وقال لي: نريد أن نتحدث قليلاً. حدد لي موعداً يناسبني ومشى. اتصلت بـ خ كي أطمئن أنها لم تُقتل. كانت كما هي، لم أخبرها بأنهم طلبوني في قسم البوليس. أول ما تراءى لذهني أنها قُتلت وأني المتهم الأول. المصري الذي جاء ليقتل الإسرائيلية. مانشيت ممتاز. كل شيءٍ كان غريباً في الليالي الطويلة الماضية. تلك الليلة حين أخذ ف يتحدث عن أبيه، جعل كل ذكرياتي مع أبي تحتل الساحة، وتتوسط منصة رأسي. أبي ذلك الرجل الذي لم يجبرنا يوماً على شيء. تذكرتُ ذاك اليوم، حين وقفتُ أمامه نداً لند، آمره: اترك البيت. أمي على الأرض ترتجف، وأخي يربت عليها، وأنا واقفٌ أمام أبي آمره أن يتركنا. رحل وقتها شهراً. ثم عاد ولم يتغير شيء. لم يقل إنه أخطأ. شاهدته بعيني عارياً فوق تلك المرأة، شاهدتهما يرتجفان لذةً، وينتفضان نشوة. ثم يقول لي: أنا لم أخطئ. حتى ولو رأيتني معها عارياً أنا لم أخطئ.

– هل هي زوجتك يا أبي؟!

– لا.

– إذاً. حين تراني فوق فتاةٍ عارية لا تقل لي هذا خطأ.

صفعني. كانت المرة الأولى التي يصفعني فيها. من يومها كُسر ما كان بيننا. شيءٌ ما تحطم مع وقع أصابعه فوق خدي، وعرفتُ أنه لن يعود شيءٌ كما كان. أنا أكره من يكذب ويعرف أنه يكذب ويعرف أني أعرف أنه يكذب. من يومها أخذ أبي ركناً قصياً بعيداً عنا. صار حاضراً غائباً بلا معنى. قبل تلك الصفعة كان يأخذني معه ثم يحدثني عن الزواج، وعن المشاكل التي تنشأ، يقول لي: إن أساس مشكلة أي بيت هو السرير. ثم حكى لي عن خالتي وزوجها وعن المشاكل التي حدثت بينهما ووصلت للطلقة الأولى، قال لي إن زوج خالتي رجل يحب المزاح في ممارسة الحب، وكان قد شاهد فيلماً إباحياً، ويرغب في تقليد شيءٍ فيه، لكن خالتي اشمأزتْ ورفضتْ، فصفعها، واشتعلتْ الأمور بينهما. ثم استدرك: لكن ليس هذا ما حدث بيني وبين أمك، أنا فقط أتحدث معك. في كل الأحوال، السرير يا بني هو سر كل المشاكل. لا يوجد بيت سريره مستقر إلا ويحل جميع مشاكله الأخرى. ليست المشكلة أبداً في المال.

أستمع له، ثم حين أسأله عن تلك السيدة، التي يُشاع أنه على علاقةٍ بها، يُنكر بشدة: يا بني أنا رجل أحب الخير وهي ست متزوجة وزوجها مسافر، أنا فقط أحضر المدرسين لأولادها

وأظل هناك في أوقات الحصص، حتى لا يدخل الرجال عليها بمفردها. أبتسم وأنا أتذكر تلك المحادثات الهاتفية الساخنة المليئة بالعواطف، التي يبثها إياها وتبثها إياه، ونتصنت عليها أنا وأخي من هاتف غرفتنا دون أن يشعر هو. ثم مرةً أخرى، يقول لي إنها ست متزوجة وغلبانة، زوجها سافر وتركها بلا سند في الدنيا، نحن هو وزملاؤه نجمع لها مبلغاً كل شهر. هي لا تستطيع أن تأتي بمدرسين لأولادها فتطوعت أنا وكذا زميل كي نذاكر لأولادها. وأسأله تذاكر لهم أية مادة؟ فيقول: فيزياء. فأقول له: ألم تقل إن أكبر أولادها في خامسة ابتدائي؟ يكذب، يكذب، يكذب، حتى صدق كذبته، وصار يشعر أننا نظلمه، وأننا نضطهده، وأننا أخطأنا في حقه، وهو البريء. ما الذي فعلناه؟ ما الذي فعلته أنا وأخي؟ قد تكون أمي فعلت شيئاً لا نعرفه خلف الأبواب المغلقة. هذه مشكلتهما سوياً، لكن ما ذنبي أنا وذنب أخي حتى نرى أبانا وأمنا يتبادلان السباب المقذع، يتضاربان بالأيدي، أمي تصفعه على وجهه، وأبي يجرها من شعرها ويوقعها على الأرض، ونحن بعيد خلف الستار، نشاهد من وراء سحابات دموعنا. وكل صفعةٍ وكل سبةٍ وكل اصطدامٍ بالأرض، يدمر بداخلنا شيئاً جديداً لا ينصلح، ويفتأ جُرحاً لا يندمل. كلماتهم وسبابهم وعراكهم،

سيوفٌ تتعاورنا من الداخل، تمزقناً، وتشوه ملامحنا، وتغوص في قلبينا فتقتل فيهما كل جميل. ونصير خلف الستار يوماً بعد يوم مسخين يشاهدان معارك لا تخصهما، صارت أمراً لا يمثل لنا أي معنى.

وانتهى كل شيء داخلنا فجأة. بلا أي تدريج أو ترتيب. وانفرطتْ أسرتنا الصغيرة، وتناثرتْ كل حبة في مكانٍ بعيد. يجمعنا مكانٌ واحد لكنا شتى. وترانا من الخارج مبتسمين سعداء، فتحسبنا أسرةً صغيرة متحابة، لكنك ما إن تدخل معنا وتغلق خلفك الباب، حتى يحطم أذنيك الصمت الثقيل الذي يجثم ثمَّ بيننا.

وف يذكرني بكل هذا ويتركني. لم أنم تلك الليلة، وجاء الصبح عليّ مريضاً بالبرد والسهر. بعد المحاضرة نادتني خ. اندهشتُ وتسمر لساني. ثم تقدمتُ قلقاً. بدت لي لطيفة، لكنها تحاول أن تبدو غير ذلك. شربنا فنجانين من القهوة سوياً، في مقهى قريب، وانتبهت إلى جداول الحزن في عينيها. أمٌ محمومة تبحث عن طفلها الضائع، عيناها. وددتُ لو أسألها ما الذي تبحثين عنه كي يسبب لكِ فقده كل ذلك الحزن؟! وفاجأتني أن قالت إن ما تبحثين عنه ليس حقيقياً ولن يكون. لم أشأ أن أكون سخيفاً وأقول لها إني كدت أسألها عما تبحث

عنه، وقلتُ لا داعي لإثارة جنونها. كان إصبعي يؤلمني في جيبي ولم أخرجه أبداً حرجاً من أي سؤال عن منظره المشوه. أثناء جلوسي معها، قلتُ لنفسي: أهذا هو الحلم الذي أتيتَ من أجله؟ على الأقل أنتَ أتيتَ فحاول تحقيق حلمكَ. وقرصتُ على إصبعي، وأنا أسأل نفسي كيف أجلس مع إسرائيلية أحتسي القهوة، ودم محمد الدرة لم يجف بعد؟ لكنا في اليوم التالي، تناولنا الغداء معاً، واليوم الذي تلاه دعتني إلى السينما وذهبتُ. كان فيلماً فرنسياً اسمه «معلمة البيانو»، يتحدث عن أستاذة كبيرة تحب أحد طلابها الذي يصغرها بأكثر من عشرين عاماً. وتلك الأستاذة عانس تعاني من كبت جنسي مهول. فيلم مريض جداً، لكنه مليء بالدراما ومؤثر. بعد الفيلم قالت لي خ: أنا أحب كثيراً هذا الفيلم.

قلت لها مجاملاً: فيلم جميل.

– ليس الأمر أنه فيلم جميل. أحياناً أشعر أني أشبه البطلة إلى حد كبير.

– أتذهبين إلى بيوت الدعارة، تشاهدين الفتيات هناك وتتأملين أجسادهن، كي تتذكري أنكِ أنثى؟!

ضحكتْ.

– يا للسطحية! بالطبع لا. أنا أدرك أنوثتي. لست أحتاج إلى

أجساد أحد.

– واثقة من نفسك جداً أنتِ!

– بالطبع!

ثم سكتت هنيهة.

– دعني أسألك: ألم تشاهد فيلماً مرة أو تقرأ روايـة، ثم شعرت أنك تشبه بطل الفيلم أو القصة؟

– حدث كثيراً. بالتأكيد في شخوص كل فيلم أو رواية شخصٌ لابد أن يشبهنا.

– لست أقصد العموم. أقصد مثلاً أن تجد شخصية البطل تشبهك جداً، والمواقف التي مر بها هي نفسها التي مررتَ أنتَ بها، والمبادئ التي يعتنقها هي مبادئك. ثم يصل في الفيلم إلى مرحلة تكون تلك هي حياتكَ في اللحظة الحالية. يستمر في الفيلم بعدها في أحداث وتفاصيل لم تحدث لك بعد، فتشعر كأنك تشاهد فيلماً لمستقبلكَ أنتَ! ألم تشعر مرةً بأنك تعيش الحياة تقلد بطلاً، لأنه كان في أول الفيلم يشبهك، ثم وصل لمنتصف الفيلم حيث تقف حياتك الآن، ووجدت أنك لابد أن تكمل حياتك الحقيقية مثلما اكتملت في الفيلم. ألم تعش ذلك الإحساس أبداً؟ أن الحياة فيلم كبير، كذبة كبيرة؟!

هل تريدين أن أنـاديـكِ يا (بيرجيت) كي تصدقي أني

أشعر بكل هذا فعلاً؟! أني أعيش في روايـة؟! لكني لم أتكلم. استحوذتني عيناها. وانتبهتْ لي فابتسمتْ حرجاً.

بدتْ جميلة جداً أجمل من المعتاد.

* * *

ذكرتني عينا خ الحزينتان بعينيك يا د. لم أر وجهاً في غرابة وجهكِ. من يراه يجده كله مبتسماً، وعينيك مليئتين بحزنٍ عميق، وكأنها ترى نهاية العالم وتُحمّلكِ عبء منعها وحدكِ. حين رأيتكِ أول مرة، شعرت بإشراقة الشمس، وأن الدنيا لا يزال فيها جمال وبراءة. وتلك المرة حين وجدتكِ قادمة وأشلاء الدموع تطل من عينيكِ والسواد تحتهما. سألتكِ ما بكِ؟! قلتِ: قرأتُ بالأمس وشاهدتُ صوراً وفيديوهات لمذابح البوسنة والهرسك. ولماذا تعذبين نفسكِ؟ سألتُكِ فوجدتُ جداول الدمع تترقرق من جديد وأنتِ تردين: يا للبشاعة!. شاهدتُ فيديو لرجل يسلخونه حياً في ماءٍ مغلي. صراخه لن يفارق أذني ما حييت. تقززتُ وقلتُ لكِ: كفى أرجوكِ لستُ أحبُ هذه الأشياء. ضحكتِ وقلتِ مداعبة إياي كعادتنا: قلبكَ قلب خس. ضحكتُ وقلتُ: على الأقل لستُ سادياً مثلكِ. عقدتِ حاجبيكِ وقلتِ: لستُ سادية لكني فقط أحاول مشاركة المعذبين عذاباتهم، طالما لا أستطيع أن أمنعها.

– سببٌ غريب. لكنه مثلكِ على كل حال!

– حقاً؟ لماذا؟ أقصد لماذا تقول عني غريبة؟

– لم أرَ عيناً بها حزن مثل عينيك.

رفعتِ حاجبيكِ ولم تعلقي. ثم وجدتُني أقول لكِ: أمي لها العينان نفسهما. تلك العيون التي رأت الكثير وترفض الإفصاح عنه. تعذبتِ كثيراً أنتِ أليس كذلك؟!

لم تردي. لكني أخذت أروي لكِ كل ما حدث بين أمي وأبي، وبيني وبينهما، وبين أخي، وقصتي مع ح، لكني لم أقل لكِ إني متزوج من ع. وأنا لستُ من الرجال الذين يرتدون دبلة. ولا أعرف ما الذي جرى لي لكني حكيتُ كل شيء بكل التفاصيل كأني كنتُ أتخفف من عبءٍ أثقل كاهلي، ووجدتُ في عينيك ما يحثني على الكلام، كنتُ أعلم أنكِ ستفهمينني وتستوعبينني. حين انتهيتُ، ضحكتِ ضحكة خفيفة وقلتِ: حتى أنتَ!.

– ماذا تقصدين؟!

– أتعرف أن ما حدث لك، حدث لي بالضبط!

ظللتُ صامتاً، أستحثكِ بسكوتي أن تتحدثي، وألمح سحابات الحزن تغزو عينيكِ. قلتِ كلماتٍ قليلة، لكني فهمتُ منها أن قصتينا متشابهتان.

– أتبكي؟!

سألتِني، فانتبهتُ إلى الدمعة التي تكومتْ في عيني دون

أن أدري. وقلتُ لا لا.. أكملي. لكنكِ لم تكملي.

هشةٌ أنتِ كغزل البنات. جميلةٌ بأنفكِ الدقيق وشفتيكِ المنمنمتين، وعينيكِ الواسعتين. تبتسمين دائماً وروحكِ هفهافة كطيف نسيم حين يمس الواحد لابد أن يبتسم وأن يشعر بجمال الدنيا.

لكم تقتُ أن أروح في عناقٍ مع عينيك الهائمتين في دُجى الألم ومستنقعات الهموم. ودموعكِ الآسنة خلف جفنيك دعيها تنساب على صدري. لو أصرخ: عانقيني واتركي روحينا تذوبان أبداً. ودعي جسدينا يلتصقان فيختلطان فيمتزجان فيسيلان فيذوبان فيتبخران عنبراً وترياقاً للخلود.

اسمحي لي أن أقبل جبهتكِ وعينيكِ وأنفكِ وشفتيكِ وشحمتي أذنيكِ وكفيكِ ظاهرهما وباطنهما. اسمحي لي بالتذلل بين يديكِ والتطهر من آثامي أمام بهاء جمالكِ وقدسية قوامكِ. اسمحي لي أن أتوضأ من دموعكِ وأصلي في محرابكِ وقلبكِ قبلتي.

ما أحن التذلل بين يديكِ!.

عانقيني لأصير سماءً ورياحاً وغماماً وبرقاً ورعداً. عانقيني فأكون أرضاً وطيناً وتراباً ورماداً. عانقيني، امنحيني سر الحياة وسر الموت وسر الخلود.

قبليني. عانقيني. ثم دعيني... أموت!.

* * *

أتذكر حين حكتْ لي قصتها مع القطار: كانت تلك هي المرة الأولى التي يمرض فيها سائق سيارة أبيها، وتضطر أن تسافر بالقطار. أثناء الذهاب حجز لها أبوها، وفي العودة ذهبت إلى المحطة قطعت تذكرة درجة أولى سياحية، وحين وقفتْ هناك في محطة مصر تبحثُ عن الرصيف، شعرتْ أنها وحدها في هذا الكون الفسيح، بعيداً عن عربة أبيها التي تحميها من شرور كل هؤلاء. يومها اتصلت بأبيها فهرول وجدها متكومة على جانبٍ تبكي، وترتجف. تخيلتُها وكدتُ أقوم من مكاني وأحتضنها وأقبل رأسها وأقول يا طفلتي الصغيرة! لكني تماسكتُ، وقلتُ لها: سآخذكِ يوماً في جولة بالأوتوبيس العام. ضحكتْ وطرقعت بيديها وقالتْ: ستكون رحلة شائقة جداً.

* * *

وذكرتني بـ ح. جميلة مثلها. حرة مثلها. مجنونة مثلها. تتنمص، وتتبرج، وترتدي ملابس ضيقة تبرز مفاتنها، وتتعطر. لكنها تضع حجاباً فوق شعرها. وحين حادثتها وقلت لها إني جربت هؤلاء مدعي التدين تعصبتْ بشدة. قالت لي: خطأ طبعاً. الجلباب الأبيض والنقاب هما الدين الصحيح.

– ولِمَ أنتِ تعرفين؟ سألتُ مندهشاً.

– أعرف أني على خطأ لكني لا أزال صغيرة. وعموماً حين

أتزوج سأرتدي النقاب.

– أفهم من ذلك أنكِ الآن بهذا المظهر كي تجذبي رجلاً؟!

– لا طبعاً. أنت لم تفهم!

– اشرحي لي!.

– الفكرة أني لا أجائر في الصحيح. ليس معنى أني أعرف الصحيح أني أفعله!!. أنا مخطئة أعرف، لكني لا أبرر لنفسي خطأي بقولي عليه صواب.

– والنقاب؟ افترضي زوجك رفض أن ترتديه؟!

امتعض وجهها وقالت:

– لن أتزوج رجلاً يرفضُ ذلك! ثم أصلاً كيف يكون رجلاً وهو يترك الناس تراني هكذا! كيف يكون يحبني ويغار عليّ! أعتقد أن من سأتزوجه لابد أن يأمرني أن أرتدي النقاب!. هكذا أستشعر غيرته عليّ.

لم أعلق. وقلتُ في نفسي: حتى في تناقضها جميلة. وعرفت أني على شفا حفرة حبها. هل لأنها جميلة حقاً؟ أم لأنها تشبه ح؟ أنا لم أرَ ح. لكني رأيتُ تناقضاتها، وشروطها. رأيتُ د. وأحببتُ د. وخنتُ ع بهذا الحب. واليوم أعترف أنها سبب هروبي. حين أفكر مع نفسي أحياناً أقول ربما تفاهة الأسباب تؤدي لنتيجة عظيمة. ربما هروبي بسبب حبٍ أحادي الجانب، وأنا أصلاً متزوج، حب مستحيل. حلم بعيد. فحتى لو

لم أكن متزوجاً فلست في مستواها. فلماذا إذاً أحبها؟ أأنا حقاً أهوى تعذيب نفسي؟ أم أن البشر كلهم يهوون ذلك؟ أقول: ربما هروبي بسبب هذا الحب المستحيل، إن فكرت فيه ربما يكون سبباً ربانياً لوجودي هنا. ألا أستغل فرصة وجودي كي أحقق الحلم الذي حلمته ولو وهماً؟! أعرف أن الأمور اليوم أصعب كثيراً عن الأمس. يومٌ فقط فارقٌ في تاريخ الأمم. كنت أجلس مع زملائي في الفندق، وعلا صوتُ الصراخ، ومشهد سقوط البرجين يملأ شاشات التلفزيون المتناثرة في أنحاء اللوبي. دخانٌ أسود كثيف. صوت مذيع يصرخ، وصوت ارتطام الأشياء بالأرض، وصورة أناس معلقين من أيديهم في أعلى مكان في العالم، ثم يسقطون فجأة. كان البرج عالياً هائلاً مهولاً، مغروراً، وكُسر أنفه. كانت الحضارة المادية تنهار أمام عيوننا. كأنها نهاية العالم. أو على الأقل صفعةٌ هادرة على وجهه. تسمرنا في أماكننا لحظات، غير مصدقين. ثم انهار سد الصمت، وانفجر فيضان الصخب. كأننا قررنا فجأة أن نتكلم. هجنا ومجنا. هل هو فيلم هوليوودي جديد يصور نهاية العالم؟ بكتْ بعض السيدات وبعض الناس جرى يتصل بأهله في نيويورك وآخرون يتصلون بأصدقاء والبعض بوكالات الأنباء للتأكد من صحة الخبر. ساد الصمتُ من جديد، نتأمل الدخانَ على الشاشة والأنقاض وهي لا تزال تنهار. نتأمل

الخراب. والباكون على الأطلال يقفون يبحثون عن جثث ذويهم. ثم إعادة لمشهد اصطدام الطائرة بالبرج.

في الأيام التالية قالوا إنهم يتهمون مسلمين إرهابيين منضمين لتنظيم القاعدة. وأعلنوا أن عدد الضحايا زاد عن ثلاثة آلاف ضحية، ما بين قتلى وجرحى. وبدأت بعض المناوشات والمضايقات لنا. صار المسلم إرهابياً والعربيُ غير إنسان رغم أنه مجرد اتهام بلا أي دليل. في السوبر ماركت يرفض البائع أن يبيع زملائي أي شيء، بسبب بشرتهم القمحية وملامحهم العربية الواضحة، كنت أنا خلال هذه الأيام المسؤول عن شراء أي شيء قد نحتاجه، مظهري الموحي بأني ألماني أعفاني من كثير من المصائب. لكن هذا اليوم لم يعفني أي شيء. جاء شخصٌ يرتدي بذلة أنيقة، طلبوني في الفندق كي أقابله في اللوبي، نزلتُ فوجدتُه يُخرج شارته ويخبرني أنه شرطي وأنه يرغب في الحديث معي قليلاً. بشأن ماذا؟ بشأن أخيك. وماله أخي؟ ستعرف حين تأتي. وحدد لي موعداً وتركني. وقفتُ متردداً قليلاً، ثم حين صعدتُ إلى غرفتي في الفندق، وجدتُها قد انقلبتْ رأساً على عقب، ولم يعد شيءٌ في مكانه، رفعتُ الهاتف واتصلتُ بالاستقبال، زعقتُ فيه وأنا أقول إن هذه ليست طريقة لمعاملة السائحين. قال ببرود: نعم لكنها طريقتنا في التعامل مع الإرهابيين. وهل

وجدتَ شيئاً في غرفتي يثبت أني إرهابي إذاً؟ قال: لا يهم. الحيطة واجبة. لم أجد رداً لاذعاً يناسبه غير سباب أمه وأغلقتُ في وجهه الهاتف. اتصلتُ بهاتف السفارة ورد عليّ شخصٌ طلب مني الانتظار، ثم انقطع الخط. نزلتُ لزملائي فوجدتُهم يتهامسون، قال لي زميل: سمعنا أنك مطلوب للتحقيق. فقلت إن الضابط لم يقل لي إن تحقيقاً ما هناك، لأنه لا توجد قضية أصلاً أنا متهم فيها، هو فقط أراد الدردشة. هز رأسه دون اقتناع. والتفتَ للباقين ورفع يديه كأنما يقول: ألم أقل لكم؟ فلم يعلق أحد، لكن نظرات عيونهم وشتْ بهم، واعترفتْ بأنهم جميعاً سيتجنبونني من اليوم فصاعداً. فأدركتُ أني سأدفع ثمن وقع أصابع التطرف على وجه العالم.. وحدي!.

* * *

في الأيام التالية تحققتْ وشاية أعينهم جميعاً. أفطر وحدي صامتاً، أذهبُ معهم في الطريق متخلفاً عدة خطوات، صرتُ وحدي وحدةً مطلقة. في بلدٍ غريب، وَسْطَ أغراب. عارياً من كل شيء، والخوف والوحشة داخلي يتناثران حبات موجٍ هادر تضرب في شاطئ صخري. رحتُ السفارة. طلبتُ مقابلة أحد المسؤولين، فسألوني إن كنت قد أخذت موعداً، فتعللت بأن الأمر عاجل وأني لم أجد وقتاً لأخذ موعد. تركوني في مكتب الاستقبال قليلاً ثم جاء أحدهم أشار لي أن أتفضل فقمت معه،

قطعناً ممراً ثم دخلنا أحد المكاتب: رجلٌ أنيق يجلس خلف المكتب، يرتدي نظارة وصلعته يلمع فيها ضوء النجفة كثيرة اللمبات المعلقة في السقف. المكتب كله أنيق. جلستُ أمامه على كرسي بني ضخم حتى انتهى من بعض الأوراق أمامه، ثم رحب بي وقال: تحت أمرك؟ حكيت له عن البعثة وعن التحقيق، وأخبرته برغبتي في أن يأتي أحدٌ معي من السفارة لضمان الإجراءات القانونية، أنا لا أعرف أحداً في هذا البلد ومن يعرف ربما أحتاج محامياً. هز رأسه ثم طلب مني بيانات جواز السفر، وأشار لي أنه سيتصرف ويبلغني. متى التحقيق؟ حسناً لا تقلق سيكون كل شيء على ما يرام.

وخ أنهتْ حصصها وجاء محاضر جديد منذ يومين. متأففٌ دائماً، يكرهنا، ولا يحاول إظهار غير ذلك. حتى أنه في مرةٍ قال: لا أفهم لماذا تستمرون في أخذ هذه الدروس، لن يأتي إلى بلادكم سواح بعد الآن! ربما سيأتون يوماً لمشاهدة جثثكم فقط!. صاح ثلاثة فيه، واحتدوا، والباقون يُهدئون الأمور، بحجة لا داعي للمشاكل، دعونا ننهي ما جئنا لأجله في سلام وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. الوحيد الذي لا يزال يحادثني، ف، حكيتُ له ما جرى مع المحاضر وزملائي، فاحمر وجهه وقال: أكيد أمه جابته من ٩٩ رِجّال. ابن هالساقطه!. راح يشوفوا جثثنا فوق نساوينهم هادول الكلاب. قلت له: حسبكَ

ما هذا الذي تقول؟ قال: أنا بعرَف هاد المحاضِر، مش يعقوب؟! قلتُ: بلى. قال: هو يهودي كَلِب. سألته: من أين تعرف كل هذا رغم أنك لا تأتي معنا إلى الحصص. ما الذي تفعله هنا في هذا البلد أصلاً؟ ضحك: كنت بساعدهم في تعليم العرب، وكنت بعلم العربي للي بدو. كنت تلميذ متلكم في يوم من الأيام. قلتُ: ومن أين تعرفهم؟ أكانوا يدرسون لك أيضاً؟ قال: مش كلهم. مثلاً خ كانت مُدرسة، كانت صغيرة كتير، بس هُني هون ما بيعترفو بالسن، بيعترفو بس بالكفاءة. يعقوب كمان كان تلميذاً متلي. وهو سبب أني طلعت من المكتب. بتعرف ليش؟ كان بيكرهني لأن خ حبتني. المهم، مابدي إياك تحط براسك زمايلك، العرب دايماً بيقفو جمب بعضهم في الغربة! هأ هأ! وما رح تلاقي يهودي بترك واحد يهودي تاني محتاج لشي في الغربة. أما احنا فمتل مانك شايف!. سألتُ وكنتُ أسأل نفسي بالأساس: أتحسب هذا التحقيق سيكون فيه خطر عليّ؟! أجاب: ما تقلق، راح يكون شي روتيني. ما بستبعد أنهم يطلبونا كلنا هون. امتى رح تروح لهالتحقيق؟ أجبته: غداً. قال: بدك آجي معك؟! شكرته، فلم يلح وطمأنني، ثم ضحك: ما رح تغير رأيك وتشرب عشان يصدقوا ويستوعبوا إنك مش إرهابي؟! ضحكتُ وقلت له: دعني في إرهابي، فالإرهابيون اليوم هم نجوم العالم.

* * *

تركتُ ف ووصلتُ السفارة. أدخلوني المكتب نفسه مرةً أخرى، لكن بعدما أبقوني في الخارج ساعة. دخلتُ قلتُ للرجل الأنيق نفسه إن التحقيق غداً ماذا أفعل؟ رفع حاجبه خاملاً: أي تحقيق؟ قلت له لقد جئتُ هنا منذ ثلاثة أيام وحصل كذا وكذا. قال: أحقاً؟ ثم جاءه هاتف فرفعه يستمع إلى محدثه، ثم كسا صوته الاحترام والنشاط وهو يقول: أهلاً أهلاً معاليك. لا تقلق يا سمو الأمير كل شيء على ما يرام. لقد اتصلتُ بالشركة المنظمة للحفل، وأرسلتُ بعثة استقبال في المطار، وباقة كبيرة من الورد كُتب عليها اسم معاليك. القلادة الماسية وصلت بالفعل. آه بالطبع ستجد الفنانة (....) استقبالاً حافلاً. سيادتك تعرف أن إحدى مهامنا هنا هي نشر الفن المصري والثقافة المصرية، والفنانة (....) هي خير من يمثل الفن المصري. بالطبع لم أنسَ. بعد الحفل ستعرج على معاليك في الفندق، نجعلها القصر؟ الذي هنا أم الذي في... حسناً حسناً.. كما تريد معاليك. نرجو أن نكون عند حسن ظنك. شكراً شكراً.. هذا كثير والله خيرك سابق. هاهاها بالتأكيد الفنانة (....) تستحق! في حفظ الله معاليك. ألف سلامة.

ثم نظر نحوي وهو يعدل من وضع نظارته متسائلاً وقد عاوده خموله: ماذا كنت تقول؟!

الحياةُ في مستنقع

لم أجدْ كرسياً أجلسُ عليه، ولم يكن هناك كراسي للجلوس. خصص القسم غرفة، جمعنا فيها نحن المسلمون ولم يضع فيها كرسياً واحداً. وجدتُ مصريين وسودانيين وصوماليين وأفارقة وأفغان وباكستانيين وهنود وسوريين ولبنانيين ومغاربة وتوانسة وجزائريين، لا أعتقد أن هناك بلداً لا يدين أهله أو بعضهم بالإسلام إلا وكان يمثله شخص. ثم لم تمر سوى عشر دقائق حتى جاء ضابط ونادى بالإنجليزية على غير العرب، فخرجوا. خف الزحامُ، وبدأ البعضُ يفترشون الأرضَ، وسمعتُ رجلاً يبدو مهماً في جلبابٍ أبيض أنيق، يزعقُ في هاتفه المحمول، ثم دخلَ ضابطٌ أعلى رتبة، صافحه واعتذر كثيراً، ثم أخذه وخرج. دقائق وبدأوا ينادون علينا واحداً واحداً. افترشتُ الأرض جوار رجل يبتسم طوال الوقت. وحين جلستُ جواره ضحكْ. فابتسمتُ متوتراً:

– أضحكنا معك.

– اليوم الذي أنجح فيه في دخول هذا البلد والهرب من المستنقع الذي كنت أعيش فيه، يطلبونني في قسم الشرطة ويشتبهون فيّ أني إرهابي. أتعرف؟ الكذبُ حقاً بلا أقدام.

أنا يَمنيّ. قلتُ لهم إني من الصومال، وطلبتُ اللجوء. ماطلوا، لكنهم يحسبون أنفسهم أذكياء، سألوني عن عنواني في الصومال، وكان لي صديقٌ صومالي، حفظني عناوين الشوارع وأماكنها، فقلتُ لهم على عنوان كامل وبتفصيلٍ دقيق، وكأنهم سيرسلون صبياً يسأل عني! هم فقط يلعبون على أعصابك كي يروا هل توترت؟ هل تكذب؟ هل تلفق؟ لكني كنت أحفظ العنوان عن ظهر قلب. قلته لهم دون أن أرمش حتى. وتأكدوا من أن الشوارع التي ذكرت أسماءها حقيقية، وأن البقال الذي قلت إنه على ناصية شارعنا موجود حقاً. وصدقوا، وقبلوا لجوئي. ثم حين آتي ينهار مبنى، فيدمر كل خططي. لن أسمح لهم بأن يعيدوني. حتى لو اضطررت لتغيير ديني أمامهم، أما أن أعود، فلن يحدث أبداً.

فزعتُ من قوله تغيير ديني، وقبل أن أعلق سألني: هل أنت مهاجر بلا رجعة مثلي؟

– لا. أنا قادم في بعثة.

– حسناً ما الذي يقلقك إن أعادوك؟

هززت رأسي لا أجد جواباً. ما الذي يقلقني حقاً إن أعادوني أو أبقوني هنا؟! هل أخشى أن أعود إلى ع التي لم أحدثها منذ أن سافرت ولم أطمئن عليها أو أطمئنها عليّ؟! أم إني أرتجف

شوقاً للقاء د وأنتفض خوفاً من هذا اللقاء؟ آخر أيامنا قبل السفر كنا قد اقتربنا كثيراً من بعضنا، فتحتْ لي قلبها البريء، حكتْ لي عن حياتها، عن الذين يحبونها ويطاردونها؛ مرشدين سياحيين زملائنا، طيارين مدنيين، مهندسين. حكتْ لي عن أردني أحبها، وطلبها من أبيها، لكن أباها قال لن تتزوجي إلا مصرياً، نعرفه ويعرفنا، نسأل عن أهله ويسألون عنا، يعرف تقاليدنا ونعرف تقاليده. وكلام أبيها حاسم. لكن هذا الطيار الأردني ظل يهاتفها، يرسل إليها كارت وباقة ورد من كل بلدٍ يهبط فيه بطائرته ولو دقيقة. قالت لي إنها حقاً حاولت أن تحبه، أرادت أن تمنحه فرصة، شخصٌ يَظَلُ أربع سنين يرسل باقات وردٍ من كل مطارات العالم، لهو شخص جدير بأن يأخذ فرصته. لكنها فعلاً لم تجد فيه ما يثير مشاعرها ويؤجج عواطفها. كل ما يفعله لأجلها جميل، لكن شيئاً ما هناك هي لا تدريه ينقصها. حدثتني عن كثيرين أحبوها، ولما سألتُها وأنا أغمز بعيني: ولم تحبي أحداً أنتِ قط؟ ضحكتْ وقالتْ: لم يطرق أحدٌ باب قلبي بعد. كنا نتلاقى كل يوم سواء كنا في الواحات أو في القاهرة، نخرج سوياً، نروح مكاناً سياحياً مرة، نجالس أصدقاء أجانب مرة، لكنا كنا سوياً. صدقتَ يا درويش حين تحدثتَ عنا..

صديقان نحن.. فسيري بقربي كفا بكف
معاً نصنع الخبر والأغنيات
لماذا نسائل هذا الطريق.. لأي مصير
يسير بنا؟
ومن أين لملم أقدامنا؟
فحسبي وحسبك أنا نسير
معاً، للأبد.

بدأتُ أنهار أمامها، وصار مجرد وجودنا في مكان واحد، يسعدني جداً، ويجعلني طفلاً لا يدري كيف يتصرف ولا ماذا يقول. أتحول إنساناً مختلفاً، لا يحمل هماً ولا أعباء سوى رؤية عينيها سعيدتين. وأنسى الدنيا وما فيها، وكأنها هي الدنيا ذاتها فلا يصير لما حولها معنى، وأني أحبها لأني أحب الحياة، لأني أحب أن أحلم، لكنها لا تعرف أي شيء. وماذا أقول لها؟ أقول أحبكِ؟ قالها كثر قبلي فما جديدي؟ جديدي ربما أني متزوج! أتخيلها ستطرقع بيديها وتقول سيكون شيئاً مشوقاً جداً! كنت أعرف ولا أزال أني باعترافي لها قد خسرتها إلى الأبد، وأنا أخشى خسارتها. إن اعترفتُ فإما تقبلني أو ترفضني، فإن قبلتني، فسأصير خائناً لزوجتي التي لا ذنب لها، فأكره نفسي وأكرهها، أما إن رفضتني فلن

نصير صديقين كما كنا، ولن يصير شيءٌ كما كان. ولن تكتمل القصائد. وجدتُ صمتي أفضل، لكنه يعذبني. والآن تريدونني أن أعود؟ إلى كل تلك العذابات ودون أن أحقق أي شيء؟ لم آخذ البعثة، ولم أحاول تحقيق الحلم الوهمي الذي ادعيته حتى، لم أنسَ ح، ولا د، ولا ع. لم أنسَ أبي. لم أنسَ أي شيء. لم أصالح نفسي بعد. لا. إن كنتَ يا صديقي عشتَ في مستنقع، فقد هربتَ منه. أنا أسوأ منك. مستنقعي لا يبرحني!.

جاء الضابط ونادى اسمي. دخلت غرفة بها كرسي واحد ولا يوجد بها نافذة، غير واحدة عريضة بعرض الغرفة، لكنها لا تظهر لي ما خلفها. فهمت أنهم يروننني لكني لا أراهم.

صدح صوتُ شخصٍ ما بالإنجليزية، سألني عن اسمي، سني، جنسيتي، وظيفتي في بلدي، أين أقيم في بلادهم. وكنت أدرك أن كل هذه المعلومات معهم وأكثر لكني أجبت. ثم قال:

– أجرينا بحثاً عن العرب المسلمين الذين دخلوا البلاد قبل الأحداث الإرهابية الأخيرة، ثم أجرينا بحوثاً حول أهاليهم في بلادهم وعاونتنا سلطات البلاد العربية، والواقع أننا وجدنا أن أخاك له سجل مشرف حقاً.

– أخي لم يدخل المعتقل سوى مرة واحدة، ولأجل قضية حقوقية، ليس لانتمائه لتيار بعينه. أليس هذا ما تنادون به؟

حقوق الإنسان؟ قد صدقكم هو!.

– إذاً أنت لا تصدقنا؟! أنت ترى أننا مجرمون في حق الإنسانية ونستحق الموت؟!

– أنا لم أقل هذا. أنت الذي تقوله.

– لكنك قلت »قد صدقكم هو«. وأعادوها بصوتي أنا. يسجلون لي كل حرف.

توترت في جلستي، وبدأت يرقات العرق تتكوم فوق رأسي.

– لماذا توترت هكذا؟!

– أنا لا أفهم ما دخل أخي بي الآن!

– حسناً نحن فقط نريد أن نعرف ما الذي يفعله أخوك الآن في مصر؟ هل انضم لتنظيم القاعدة؟ هل يخطط لذلك؟

– ما هذه الأسئلة؟! بالتأكيد لا. كل ما هنالك أن أخي اختار لنفسه منهجاً معيناً يتقرب به إلى الله.

– وهل تتفق معه في هذا المنهج؟!

– كل واحد حر في اختياراته.

– وهل هذا المنهج يحث على قتلنا؟

– الإسلام ليس ديناً للقتل. وليس ديناً للإرهاب.

– تدافع عن الدين رغم ما فعله أتباعه؟!

احمر وجهي غيظاً، وكدت أقول كلاماً كثيراً لكني آثرت السلامة، أنا لا أفهم ما الذي يدور هنا، قد يأخذوني فلا يعرف أحد عني أي شيء. إن حقوق الإنسان تطبق هنا لأجلهم فقط، لمصلحتهم فقط، أما حين يكون الأمر علينا، فلا حقوق ولا إنسان ولا يحزنون.

– وعلاقتك بـ خ؟! أليس غريباً أن يصاحب عربي إسرائيلية؟!

– ألستم تدعون للتطبيع؟!

– وأنت ضد التطبيع؟!

– علاقتي ب خ أمر شخصي لا يخص أحداً.

– أليس غريباً؟!

لم ينتظر مني رداً، هو فقط أراد أن يوصل إليّ أنهم يراقبونني. ثم طلب مني الانصراف، وأنا خارج من الغرفة، كان الداخل بعدي، يرغي ويزبد ويقسم أنه سيرفع الأمر للمدعي العام، لأنه لا يقبل أن يعامل معاملة الحيوانات هذه، هو يحمل جنسية مزدوجة، وجنسيته الأخرى هذه تحيله آدمياً!.

* * *

في كابينة الهاتف، وقفتُ أستمع للجرس الآتي من بعيد، حاملاً شوقاً عنيفاً وافتقاداً، ومفاتيح لكل هذه الوحشة التي أشعر بها. جاء صوت ط، فمازحته، عرفني.

– أين أنت يا حيوان كل هذه الأيام ولم تتصل منذ وصولك؟! أرسلت لك مائة إيميل!

اعتذرتُ متعللاً بأشياء ليس لها معنى، فقال: هل حسمتَ أمورك؟ أرجو ألا يكون صوتي مثيراً لذكرياتٍ لم تعد ترغبها. ضحكتُ وحكيتُ له بعض ما حدث معي منذ جئتُ إلى هنا، لم أخبره كثيراً عن خ، لم أشأ أن يقول أو يفكر حتى ذهب لينسى واحدة فعرف أخرى!. سألني عن حالي وأحوال المسلمين بعد انهيار البرجين، فأخبرته بكل ما دار، صمت قليلاً، قلت له: أنا أفكر في العودة. على صمته لا يزال. أخبرته بما حدث حين عدت من التحقيق، كان الفندق قد وضع حقائبي في اللوبي، وعاملوني بقمة الازدراء، أخبروني أنه لا مكان (لمن هم مثلي) في فندقهم المحترم، وزملائي حتى العاملين منهم في الفندق آثروا الصمت، ولم يعرض حتى واحد منهم مساعدة في حمل الحقائب. ف لم يكن موجوداً، لو كان لكان الوحيد الذي سيساعدني. ف؟ ألم أحكِ لك عنه؟ إنه صديق فلسطيني، سأخبرك عنه لاحقاً. الذي أنويه الآن؟! لا أعرف، كما قلتُ لكَ أنا الآن في الشارع وحقائبي معي أحادثكَ من كابينة هاتف عمومية، حتى معتز المسؤول عن شركتنا هنا لا يرد، وترك (الأنسر ماشين). فكرتُ في الذهاب إلى السفارة كي يعيدوني

إلى مصر. إياي!. لماذا؟

– حسناً لم أشأ أن أقول لك، لكن الأحوال هنا مثل عندك. تم استدعاء أخيك، وبالتأكيد وصل لعلم الأمن هنا التحقيقُ معك في أوروبا، أعتقد أن الأفضل في هذه الظروف أن تبقى عندك قليلاً حتى تهدأ الأمور أو ينسوا أمرك. ربما حين تدخل من المطار يأخذونك ولا نراك بعدها ولا نعرف عنك شيئاً، وأنت تعرف أن هذا وارد جداً.

ابتلعتُ لعابي بصعوبة: والعمل؟!

قال: اعمل أي شيء مؤقتاً، حتى يقضي الله أمراً. لكن لا تجعلهم يرسلونك إلى هنا الآن. وعدتُه أن أطمئنه عليّ كل حين، ودعا لي أن يعينني الله.

وضعتُ عملاتٍ جديدة، واتصلتُ بـ د. صمتٌ ثم جرسٌ طويلٌ بعيد. قلبي يدق وأنا أنتظر صوتها ملهوفاً، أبحث عنها جانبي في هذه الشدة وهذا الضيق. الجرسُ يتبعه آخرٌ ببرودٍ وعنجهية. ثم لا شيء ولا رد. أتصل ثانية. مرة ثالثة. ثم يطرق على باب الكابينة شخصٌ. أشير له أن دقيقة واحدة. أتصل بـ ع. ترد. ازيِّك. الحمد لله. عاملة إيه؟ الحمد لله. مش محتاجة حاجة؟ شكراً ربنا يخليك. .... إ.. آ.. سلام. مع السلامة.

هل كانت تبكي، أم أنا الذي بكيت؟!

ليالٍ ميتة

استقبلتْني بابتسامةٍ لطيفة، رحبتْ بي، وصبتْ لي نبيذاً في كأس. كنتُ محرجاً جداً، لكني لا أجد ملاذاً آخر ألوذ إليه. لم ألمس النبيذ، فضحكتْ، قالتْ: ألم يقل درويش شيئاً عن النبيذ؟ ابتسمتُ وأنا أهز رأسي: لا أعرف. قالتْ: إذاً قهوة؟ ثم أضافتْ: تصرف كأنك في بيتك. قلتُ لها: أنا لا أعرف أحداً آخر في هذا البلد. أنا آسف. قالتْ: لا عليك. ثم اختفتْ في غرفةٍ داخلية.

شقتُها بسيطةٌ مثلها، ثلاث غرف، فيها من الأناقة ما يوحي بأن أنثى جميلة تعيش هنا. هناك صالة ومطبخ وغرفة نوم وحمام. حين فكرتُ في كلام ط، لم أجد أحداً يمكنني البقاء عنده تلك الليلة سوى خ. بالطبع بحثتُ أولاً في فندق أو اثنين عن غرفة شاغرة، لكن لم يكن ذلك متاحاً، إما لأسباب عنصرية، أو لأنها الحقيقة فعلاً. وجدتُ أن ما معي من نقود لن يكفيني كثيراً، وأن عليّ منذ اللحظة أن أقتصد وأن أبحث عن عمل. الوحيد الذي توقعتُ أن يساندني، هو ف. لم أجده في الفندق حين عدتُ من التحقيق، وحاولتُ الوصول إلى عنوانه من زملائنا فقابلني الصمت، لم يقف معي أحدٌ منهم لدقيقة حتى كي يقول الله معك. فكرتُ أن خ قد تعرف طريقاً إليه،

ألم يقل إن بينهما علاقة قديمة ونام معها مرتين؟! اتصلتُ بها، شرحتُ لها موقفي، فلم تبدِ ترداداً ورحبتْ بي من فورها. أعطتني عنوانها. والآن تمد يدها بالقهوة. تناولتها منها. قالت: لا أفهم ما الذي يدور.

– الذي يدور هو ما يحدث في كل الدنيا، لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار، ومضاد له في الاتجاه.

– كيف؟! لماذا فعلتم ذلك؟! أقصد لماذا فعل المسلمون ذلك؟

– لم يفعل المسلمون شيئاً، هم لا يزالون يشتبهون في الأمر، ولم يعلنوا شيئاً. لكن ألا تفهمين حقاً؟ حسناً دعيني أشرح لكِ: ألم تسألي نفسكِ مثلاً عن محارق المسلمين في الفلبين؟ عن انتهاكات الصرب في البوسنة والهرسك، عن بهيمية الروس في الشيشان، أو مثلاً مذابح مسلمي الإيجور في الصين الشيوعية، أو حتى عن مسلمي إريتريا؟! دعكِ من فلسطين، فالحديث يطول وأنتِ تعرفين بالتأكيد، لكن ربما لم تعرفي بأمر مذبحة وادي الملوك في إندونيسيا، هذه المذبحة حدثت منذ شهور فقط، لكن لا أحد في العالم تكلم عنها، دماء المسلمين كما ترين رخيصة. ما حدث هناك أن قامت مليشيات مسيحية مسلحة، بقتل وذبح المسلمين هناك، فقط لأنهم مسلمون.

– لكن المسيح لم يأمر بذلك!. ردت وامتعض وجهها.

– ولا موسى أمر بقتل محمد الدرة. ولا مُحمَّد أمر بضرب

البرجين. كل ما هنالك أن إعلامَكم يصور لكم فقط ما يريدكم أن تروه، لا يخبركم عن تطرفكم وعن قبليتكم، لا يخبركم بوحشيتكم وهمجيتكم، يصنع لكم وهم الإنسانية وحقوق الإنسان، عالمُكم ازدواجي وأنتم مصدقون هذه الازدواجية وتعيشون بها. دماء قططكم التي تسقط في بالوعات الأنفاق أغلى عندكم من دماء المسلمين، ما أجمل إنسانيتكم!.

– وماذا عنكم أنتم؟ ماذا فعلتم أنتم يا مسلمون لإخوانكم؟ لم تحركوا ساكناً! ماذا فعلتم لمحمد الدرة هذا؟ ماذا فعلت لمحارق المسلمين في الفلبين، أو الشيشان؟ ظللت تلقي اللوم علينا وتقول أنتم وأنتم.

– لم أفعل شيئاً لأنه ليس بيدي ما أفعله. لكني على الأقل لا أكذب على نفسي. لا أرى الغرب جميلاً، ولا أراه أمل الإنسانية، على الأقل لم أملأ عقلي ببذاءاتكم. وعموماً البعض فعل لو كان من فعلها هم المسلمون حقاً ما لم أستطع أنا فعله. هذا هو رد الفعل الطبيعي الوحيد.

سكتنا.

– أحياناً أشعر أن الأديان جاءتْ كي تفرق البشر، لا أفهمها. جاءتْ فكانت سبباً في الفرقة وفي الصراعات وفي الحروب.

– تظلمين الأديان. الأديانُ تأتي لتقيم العدلَ وتنشر السلام. البشرُ هم الذين يصنعون الفرقة والصراعات والحروب.

– لكن لو لم يكن هناك دين لما قتل مسلمٌ يهودياً ولما قتل يهوديٌ مسيحياً ولما قتل مسيحيٌ مسلماً! ألا يستطيع الناس أن يعيشوا حياتهم دون حروب؟ أكره الحروب. لماذا لا نعيش متحابين دون دين ودون حرب. دون صراعات. لقد سئمتُ كل هذا. ألا يمكن أن يدين الناس بالحب فقط؟

قلتُ لها مترفقاً: وكيف يدين الناس بالحب فقط؟ ساعتها كيف يكون هناك خير وشر؟ ثواب وعقاب؟

– سيكون هناك حب وبالحب سيأتي التسامح، سيأتي الصفح، وستأتي الرحمة، سيأتي السلام فالسكينة فالاطمئنان. أليس ذلك هو الخير؟!

– أتعتقدين أن العالمَ جميلٌ لهذه الدرجة؟ لدرجة أنه لن يكون هناك شر؟ لن يكون هناك صراع على المال؟ على السلطة؟ على العنجهية؟ على المرأة الجميلة؟ على كل شيء صغير، على حفنة من تراب؟

– لكن الناس إذا تحابوا لن يكون هناك هذا الصراع. سيحب الفقيرُ الغنيَّ، فلن يود سرقته وسيدعو له بالمزيد، وسيحب الغنيُّ الفقيرَ، فيعطفُ عليه ويمنحه كي يقتل فقره. ثم احتدتْ وهي تكمل: لن يكون هناك خيانة!.

– لكن يبقى الشر موجوداً، أدينٌ أمر قابيل أن يقتل أخاه؟!

لهذا جاءت الأديان كي تكون المقياس الذي نحدد به الخير والشر، الصواب والخطأ.

– كان صراعهما دينياً!. كانا يتقربان إلى الله!.

– كان صراعهما بشرياً! أحدهما أناني يحب الخير لنفسه فقط، طماع يحركه حقد.

سكتت. اتسعت عيناها، وبدت ستبكي.

– إن الحب دين رائع، ويا ليتنا ندين به، لكنه لن يكفي لحقن دماء القتلى، ولا رد ظلم الظالمين، ولا ردع عصي العساكر. للأسف ما تحلمين به ليس حقيقياً ولن يكون!.

وانتبهتُ أني قلت لها تلك الجملة التي ترددها هي على نفسها، وجدتُها تنتفض ثم تعتدل في جلستها، وقد انطفأ بريق عينيها، ثم قالتْ في حسم: دعنا من هذه السيرة. قل لي ما الذي تنوي فعله؟ تناولتْ كأس النبيذ، وهي تسألني وارتكنت بظهرها على المقعد، ورفعت خصلات شعرها لتقلبها إلى الوراء خلف أذنها. بدتْ كسلانة وشاردة ولا مبالية كأننا نتحدث عن كيفية طبخ الملوخية. قلتُ لها إني سأبحث عن عمل، وإن لدينا صديقاً مشتركاً، فكرتُ أن لديها وسيلةً للاتصال به. هزتْ رأسها كأنها تتابعني وكنتُ أدرك أن تلك النظرة الخاوية في عينيها تعني أنها الآن تتذكر شيئاً ما ربما

تذكرته بسبب جملتي الأخيرة. آثرتُ الصمت. لكنها قالتْ: كنتَ تريد وسيلة للاتصال. هاتفي تحت أمرك. ثم قامت فقالت: لا أعرف كم ستقضي من الوقت في ضيافتي، لكن لا مشكلة عندي، لدي فقط بعض الشروط، لا تتدخل مطلقاً في حياتي. لا تقل لي افعلي كذا أو لا تفعلي. لا تطلب شيئاً ولا تستأذن، افعل ما تريد. إذا أردت أن تحضر فتاة تضاجعها، أنت حر. هنا الحمام، وهنا المطبخ، وهذه الثلاجة، هنا التلفزيون كما ترى. في الداخل صنعتُ لك سريراً بسيطاً، متأسفة أنك مضطر للنوم على الأرض. سأضع المفتاح أسفل المشاية أمام الباب. أي شيء آخر؟

ولم يكن هناك شيء.

* * *

متقلبة كسماء شتاء. في ليلتي الأولى عندها، وبعدما أملت شروطها بلهجةٍ آمرة، خرجتْ ولم تعد إلا الفجر. شعرتُ أن شيئاً ما فترَ بيننا بعد حوار الأديان ذلك. محرجاً أنام فوق تلك الفرشة الصغيرة التي بسطتها لي. لم أتقلب شاعراً أن مجرد الحركة ليستْ من حقي، وكادتْ الظلمة تطبق فوق عنقي، تخنقني، أحتاج نوراً، لكن شعوراً ثقيلاً بأنه ليس من حقي كان يسيطر عليّ. ظللتُ ليلتي ساهداً أنتظر عودتها، كي تشعل ضوءاً، أو تصدر صوتاً، كي تمنح الحياة لهذا الليل الميت.

ولم تأتِ إلا الفجر. فاطمأنيتُ قليلاً ثم غفوت. حين أفقتُ كان الظهر قد حان، وكانت هي نشيطة تروح وتجيء، ورائحة شهية اقتحمتْ أنفي. وجدتها تطهو طعاماً ثم ابتسمتْ لي ابتسامة مرهقة، وطلبتْ مني أن أقوم لأشاركها الطعام. ثم أثناء الطعام تعبس وأشعر أنها لا تطيقني. كموج بحر تعلو وتهبط، تغضب وتضحك، ثم تهدأ.

كثيراً ما كانت تتحدث أثناء نومها، تردد «إن ما تبحثين عنه ليس حقيقياً ولن يكون». مرةً كانت تبكي أثناء نومها، تنادي أمها، ومراتٍ تسبها. أشفقتُ عليها، واحترمت صمتها ولم أقل لها شيئاً. كنت كثيراً في اليوم الواحد مائة مرة على الأقل ما أشعر أني الآن أعيش عالةً على امرأة وحيدة. لا يربطني بها أي شيء. لا دين ولا وطن ولا عقد ولا ولد. أهذا الدين الذي أردت أن أعرّفه لأهل أوروبا؟ ربما خ معها حق! أنزل في الصباح أبحث عن أي عملٍ في أي مكان. غسلتُ صحوناً، وكنستُ أمام دكاكين، ولم يقبل أحد أن أعمل عملاً يدوم ولو ليومين. كنتُ بالكاد أحصل مصاريف غدائي، فأعفي نفسي من حرج تناول شيءٍ من ثلاجتها، ودون إرادة مني كنت حين أرى عربة البوليس أهرب وأختبئ. أروح فندقي القديم، لا أجد ف. بقيت ثلاث ليالٍ أعيش كابوساً مقيتاً من التوتر، نادراً ما تتكرر أحلامي، لكن ذلك الكابوس ظل يقتحم لياليّ. فيه

رأيتني أمسك رايةً خضراء، أعدو بها، ضاحكاً، والناس تصفق على الجانبين، كأني أحمل شعلة الأولمبياد، ثم يتبعني واحد، ثم اثنان ثم كثير، حتى أني لم أعد أنظر ورائي في الكابوس، أظل أعدو ثم أسمع صوت انفجار، ثم دخان، ثم أناس كثيرون يأتون في مواجهتي، وأقع بين مطرقةٍ وسندان، ألتفت لمن هم خلفي، لكني أرى وجوههم مكرمشة غاضبة، يلتف الفريقان حولي، أقول أنا... ثم أفيق. أنا ماذا؟ لست أعرف. ربما في الليالي الميتة الماضية كان الكابوس ينتهي عند أنا. في تلك الليلة انتهى بصراخ وأنين، حين انتبهت وفتحت عيني، عرفت أن الصراخ لم يكن من الكابوس، كانت خ. لمحتُها في غرفتها عاريةً على سريرها، وفوقها رجل ربما في الثلاثين، يلتحمان، وصرخات نشوتها تقتحم أذني. أجفلتُ، وأدرت ظهري للباب فوراً. ظللتُ أرتجف طوال الليل لا أعرف ما الذي عليّ فعله. ساد الهدوء ولكني لم أحرك ساكناً، وتسّرب إليّ النوم.

تكرر الصراخ. تأتي في هجيع الليل، تتطوح كالبندول، تستند على كتفٍ مختلفة كل ليلة. مرةً كتف شابة، ومرة في أوج الرجولة ومرةً عجوز. حتى شباب الثانوي رأيتُ منهم واحداً معها. تأتي بهم لا أدري من أين، يضاجعونها، ثم تبقى

هامدةً طوال الليل، وأقوم أنا مع أول شعاع شمس، أهرب بحثاً عن عمل أو فندق رخيص، لا أعود إلا ليلاً تكون قد خرجت هي. أحياناً تأتي بالرجال في النهار. وكيف أدعي أني لا أرى؟! تأتي برجلها، فيصطدمان بي، وأنا على فرشتي على الأرض، تضحك وتقول: متأسفين. ينظر لي الرجل ويقول: ما رأيك؟ هل تشاركنا؟ تركتُ البيت، وقررت أن أعود ليلاً آخذ حقيبتي وأمشي. ما كان يدهشني، أني بقيت معها أسبوعاً ونصف تقريباً ربما أسبوعين فقدتُ الإحساس بالزمن لكنها لم تحاول حتى أن تلمسني، لا أفهم!. عدتُ ليلاً فوجدتُ رجلاً خارجاً لتوه من الشقة. دخلت عليها فوجدتها عارية لا تزال، لم تحاول حتى أن تغطي نفسها حين رأتني، ظلت على حالها وكأني شبح. اندفعتُ نحوها وصفعتُها على وجهها ألف صفعة، ألا تريننني رجلاً يا بنت العاهرة؟ ثم حملتُ حقيبتي ورحلت.

ضمائرُهم

صليتُ العصر، ثم جلستُ أختم صلاتي، أتذكر بلاداً وشخوصاً لم أعد أعرف كيف صاروا. لا يبقيهم على قيد الحياة بالنسبة لي سوى أني حين أرسل الحوالة الشهرية، لا تعود!. ربما هذا عامي السادس أم السابع؟! بلا انقطاع. الشرطُ واضحٌ من اللحظة الأولى. تذهبُ هناكَ عشرة أعوام لا تعود فيها كي تحظى بالإقامة. بيتنا القديم لم يعد بيتنا، وقيراطا الأرض صارا ملكاً لعمي والمقابل خمسون ألفاً. عشرون في شقة تسع أمي وإخوتي، وثلاثون ثمن غربتي. رحلةٌ لن أنساها عبر حدود ليبيا، ثم خلال البحر إلى إيطاليا ومن هناك إلى ل. لم أعد أذكر كيف بدأتُ ولا كيف تجاوزتُ مِحني الأولى. ذكرياتٌ كثيرة تبخرت كأن لم تكن. بالكاد أذكر درجاتي في الثانوية العامة ورفضي دخول أية كلية. بالكاد أذكر إصراري على السفر. ربما وقتها تخيلت أني سأعمل أي شيء، تزامناً مع دراستي في الجامعة الفلانية، لأصير مهندساً عبقرياً. شغفي بالهندسة واضحٌ منذ صغري. في قريتنا البعيدة كانوا يسمونني عبقرينو. ع ب ق ر ي ن و.. ألوك الحروف في فمي كأني أستكشفها من جديد. دائم السؤال كنتُ، حين أضع يدي

على شيء لا أنتهي منه قبل أن أفككه قطعة قطعة ثم أعيد تركيبه. لم أرَ أبي، لكنهم يقولون إني وريثه. وسط إخوتي الستة شعرتُ بتميزي، أصلح جرارات الأراضي حين تتعطل، وأرش نصائحي حبوباً فيتلقفها الناس كالطير. واليوم أنا هنا أعمل ثوراً في ساقية. لم أتعلم ولم أصر المهندس الذي تمنيته، لكن لا بأس، أثق بالله وتقديره. كان صعباً أن أتخلى عن أمي وإخوتي حين طردهم حسين من الشقة كي يتزوج فيها. تعارك مع إبراهيم وأخرج إبراهيم مطواةً ضرب بها حسين. حسين أبلغ الشرطة. إبراهيم دخل السجن. كأنهم ليسوا إخوتي!. لا أستشعر أي أسى في تذكر ذلك كله. هي ذكرياتٌ فقط. بلا معنى أو نكهة. عامي الأول، أُرسل لأمي كل ما أستطيع إحضاره من نقود، حتى استطاعت الانتقال من عند خالي إلى شقة بسيطة. في عامي الثاني عرفتُ من أمي في خطاب كتبته أختي، أن هناك عريساً تقدم لإحدى أخواتي لا أتذكر أكانت زينب أم حميدة؟ وأنهم يريدون مزيداً من النقود كي يغطوا تكاليف العرس والذي منه. لا يزال في رقبتي أختان تكملان تعليمهما وأرسل بعض الأحيان للمتزوجَتْين. رسائلُهم كانت كثيرة في العام الأول. ثم في عامي الثاني قلّت، وتعللوا بالانشغال في الفرح. في أي عام تزوجت الثانية؟ لم يعد لرسائلهم وجود.

حتى أنا لم أعد أتذكر وجودَهم سوى بالحوالة. بعض الأوقات حين «تلعبكتْ» ظروفي هنا، أرسلوا يتساءلون عن الحوالة؟ هل أرسلتُها؟ إنهم يشكون في العاملين في البوسطة! هل أرسلتُها وسرقوها هم؟! ولم أرد لكن بعد شهر أرسلتُ إليهم الحوالة. وقتها بدأتُ العمل في الفندق الذي لا أزال أعمل فيه. لم يكن ممكناً أن أوفق ما بين حوالاتهم وبين مصاريف الدراسة. ناهيك عن استغلال البعض، حين يطلب الواحد نسبة لما أطلب منه أن أرسل حوالة باسمه لهم. لم أملك طبعاً سوى أن أدفع صاغراً، فأنا وجودي ليس قانونياً. قيودُهم تربط أقدامي فلا أستطيع التحليق عالياً. عزائي الوحيد أني لا أزال صغيراً، أستطيع أن أبدأ في أي وقت. ريثما أزوج الباقيتين ربما سأبدأ خطوتي الأولى نحو حلمي. أدعو الله خاتماً وأقوم خارجاً من المسجد، أقابل صديقاً، نؤكد على موعد الغد، ثم أثناء خروجي أصطدم بكتف رجلٍ يحمل حقيبةً ثقيلة، أعتذر، لا يرد. أغادر المسجد كي أنتهي من الاستعداد للغد. سيكون يوماً طويلاً.

* * *

«مات الولد.. إسعاف.. مات الولد»

يستنجد وهو يرى الملائكة تحيط بروح وليده، حزينة ترتفع معها إلى أعلى، صوتُ الرصاص يختلط بصوتِ الإسعاف، وسائق الإسعاف يصر على اللحاق بركب الملائكة. تضربه

الرصاصات فينبثق من ثقوب صدره نوراً. والصغيرُ ينام على فخذِ والده، والأب ينادي: يا ولدي. آه يا ولدي. والولد لا يرد، وكأن الأب انتهى لتوه من حكايةِ ما قبل النوم. يتوسد فخذ أبيه، ويضم جسده إليه، أتشعر بالبرد يا صغير؟ يحتميان خلف برميل أسمنتي، يرفع الأب يديه: طفلٌ صغير هنا! لم يكن صوته أخرس، ولم يكونوا هم صماً. والعالم كله لم يكن أعمى. لكنهم ادعوا الصمم، وادعى العالم العمى، وبقي صوته وحده يحارب الخرس. الشياطين تتدافع مع الرصاص، تتصارع على جسد الطفل، يغيظها طهرُه، ويحرقها نورُه، والملائكة تستل سيوفها وتدافع، وصوت المعركة المحتدمة يغلب على صوت الرصاص، ينشغلون عن الأب وطفله. ينتهي العالم، ولا يبقى فيه سواهما، يدوران في دوائر أبدية، وسط ليل سرمدي. يصرخ: مات الولد. مات الولد. ألم يدرك أن الولد لا يموت؟! صار حياً دائماً ينبعث كل حين، يتنزل من السماء كي يذكرنا بعمانا وخرسنا. كي يقول للملائكة خسرتم معركتكم ثانيةً. يربت على كتف أبيه، يقول: أنا هنا، أنتظرك. لما بشت دماؤه للكون، صارت سهاماً تنغرس في ضمائر العالم فتوسع ثقوبها.

«أصابوني الكلاب. أصابوني الكلاب. أصابوني الكلاب.» أكان يقصدنا؟ أكان يعرفنا؟ أكان رغم صغر سنه يدرك أن الذي قتله لم يكن رصاصاً. كان صمتاً. كان خنوعاً. كان ذلاً.

هناك يجلس الآن مع الأطفال الآخرين. يتساءلون: لماذا دائماً يقتلون الأطفال؟! محتلون يقتلون الأطفال. حكومات يقتلون الأطفال. حروب أهلية يقتلون الأطفال. حتى حين حاربوا العنصرية وضعوا الأطفال في مقدمة الصفوف، وتركوهم للكلاب تنهشهم، وللخناجر تذبحهم، كي يهزوا ضمير العالم المليء بالرقع، وأين كانت ضمائرهم هم؟! كيف يحتمل التاريخ القبيح دمامته؟ كيف لم ينتحر بعد؟

«مات الولد. إسعاف. مات الولد» لكن الولد لم يمتْ. نحن الذين متنا ونحن الذين نموت.

* * *

«قد بدأ إطلاق النار من مصادر مختلفة، إسرائيلية وفلسطينية، لم تدم أكثر من ٥ دقائق. بعدها، بدا لي جلياً أن إطلاق النار ناحية الطفل محمد وأبيه من الجهة المعاكسة لهم. بشكل مُركّز ومتقطّع، إطلاق النار كان باتجاه مباشر ناحية الاثنين (الأب والطفل) وناحية المركزين (مراكز قوات حفظ الأمن الفلسطينية). المراكز الفلسطينية لم تكن مصدر طَلَقَات الرّصاص، لأن الطلقات من هذين المركزين توقفت بعد خمس دقائق من الصمت، ولم يكن الطفل والأب مصابين وقتها (يقصد وقت الدقائق الخمس)، ولكن الإصابة وحالة الوفاة

وقعت وقت الـ ٤٥ دقيقة التي تلتها.

أستطيع أن أجزم أن الطلقات التي أودت بمحمد الدرة وأبيه كانت من أبراج المراقبة الإسرائيلية المذكوره أعلاه، لأنه المكان الوحيد الذي من الممكن إطلاق النار تجاه الأب والطفل. إذاً من الناحية العقلية والمنطقية، وبسبب خبرتي الطويلة في تغطية مناطق الأحداث الساخنة ومناطق الاصطدامات العنيفة وتمييز أماكن طلقات الرصاص، أستطيع التأكيد أن الطفل قتُلَ عمداً ودون أية مراعاة وبأن الأب أُصيب بواسطة القوات الإسرائيلية.»

شهادة المصور الفلسطيني: طلال أبو رحمة.

لم يكن إلا القليلون على استعداد لتحمل المسؤولية التي قد تنشأ عن مقتل طفل، ولكن (مارتن لوثر كينج) لم يتردد كثيراً في حربه ضد العنصرية في أمريكا، فسمح لآلاف من الأطفال السود باحتلال المراكز الأمامية في مواجهة رجال الشرطة والمطافئ وكلاب شرطية متوحشة، فارتكبت الشرطة خطأها الفاحش، واستخدمت القوة ضد الأطفال الذين لم يزد عمر بعضهم عن السادسة، ثم اقتحم رجال الشرطة صفوفهم بعصيهم وبكلابهم؛ مما أثار حفيظة الملايين، وانتشرتْ في أرجاء العالم صور كلاب الشرطة وهي تنهش الأطفال، وبذلك نجح كينج في خلق الأزمة التي كان يسعى إليها، ثم أعلن أن الضغط لن يخف، مضيفاً: »إننا على استعداد للتفاوض، ولكنه سيكون تفاوض الأقوياء« فلم يسع البيض من سكان المدينة إلا أن يخولوا على الفور لجنة بالتفاوض مع زعماء الأفارقة، وبعد مفاوضات طويلة شاقة تمت الموافقة على برنامج ينفذ على مراحل بهدف إلغاء التفرقة وإقامة نظام عادل وكذلك الإفراج عن المتظاهرين، غير أن غلاة دعاة التفرقة بادروا بالاعتداء بالقنابل على منازل قادة الافارقة؛ فاندفع الشباب الأفارقة الغاضبين لمواجهة رجال الشرطة والمطافئ، وحطموا عشرات السيارات، وأشعلوا النيران في بعض المتاجر، حتى اضطر الرئيس جون كنيدي لإعلان حالة الطوارئ في القوات المسلحة، وسارع كينج محاولاً أن يهدئ من ثائرة المواطنين، وكان عزاؤه أن من اشتركوا في العنف من غير الأعضاء النشطين المنتظمين في حركة برمنغهام، وقام بجولة ناجحة في عدة مدن كشفت عن البركان الذي يغلي في صدور الأفارقة السود تحت تأثير مائة عام من الاضطهاد. العنفُ صار من الجانبين كأنه لم تكن هناك أية دماء لأي أطفال!!.

تشارلز إندرلاين، مراسل قناة (France ٢)، لاحقاً كتب أنه بنى استنتاجاته الأوليّة على أساس أن قوات الدفاع الإسرائيلية قد أطلقتْ النار على محمد الدرة، بحسب ما صرح به المصور طلال أبو رحمة، وقد أقسم أبو رحمة خطياً بأن ذلك ما حدث وقد بعث بالتقرير إلى منظمة حقوق الإنسان الفلسطينية في غزة بتاريخ أكتوبر من العام ٢٠٠٠، وهو على يقين بأن القوات الإسرائيلية أطلقت النار عمداً على الطفل وأبيه. وفقاً لما قاله أبو رحمة :«إنهم كانوا ينظفون المنطقة، بالتأكيد رأووا الأب، كانوا يصوبون ناحية الطفل، وذلك ما فاجأني، نعم، كانوا يطلقون النار تجاه الطفل، ليس لمرة واحدة بل لمرّات عديدة».

المصور صرّح بشهادته الخطيّة بأنه تم تنبيهه إلى الحادثة بينما الجزء الشمالي من الطريق يقود إلى نقطة وصل مع مستوطنة نتزاريم، ويسمى بنقطة وصل الشهداء. قال إنه كان باستطاعته رؤية البرج العسكري الإسرائيلي في شمال نقطة الوصل، وفقط خلف شقة شابين فلسطينيين يسميان بـ (التوأم). وأيضاً في مقدور أبو رحمة رؤية مركز قوات الأمن الفلسطينية، والذي موقعه في جنوب نقطة وصل الشهداء، فقط خلف البقعة أمام الأب والطفل وهم يتنحّون على قارعة

الطريق، لقد لاحظ أبو رحمة إطلاق النار من تلك الجهة أيضاً، ليس فقط (كما قال أبو رحمة)، خلال الوقت الذي كان يُطلق فيه النار على الطفل. القوات الإسرائيلية كانت تطلق النار على مركز قوات الأمن الفلسطينية ويوجد أيضاً مركز آخر على بعد ٣٠ متراً. إن جُلّ انتباه أبو رحمة على الطفل بواسطة شمس عودة، مصوّر لوكالة رويترز، والذي كان يقف بجانب محمد الدرة والأب جمال الدرة. ثلاثتهم كانوا يحتمون بواسطة طوب إسمنتي.

كنتُ أحمل كل هذه المنشورات، المكتوبة بعدة لغات، إنجليزية، فرنسية، عربية، وعبرية، ومنشورات تحمل صوَر استشهاد الدرة مرتبة.

التقيتُ في المسجد مع كثيرين، وكان هناك جلبة واضطراب، والرجل الذي كان يحمل حقيبة ثقيلة بالأمس واقفاً يتحدث بعصبية مع مسؤول المسجد، والأخير مقطب حاجبيه، يقول في حزم: لقد حذرتك أنك المسؤول عن أشيائك، لا تجعلني أندم على سماحي لك بالمبيت هنا. والرجل يقول: لكن حقيبتي كلها سُرقت، كل ملابسي وكل أشيائي، على الأقل أخبرني من كان يبيت هنا غيري. وانتقل الأمر من حوار عصبي إلى زعيق، فأخذت الرجل الذي تنبهت من صوته ولكنته أنه مصري

ونحيته جانباً وأنا أهدئه، ثم قلت له: نخلص بس اللي ورانا وأنا مش هسيبك غير لما تحل المشكلة، اتفقنا؟ طمأنته لكنتي المصرية الخالصة، فهدأ قليلاً وإن ظل الإرهاق والقلق باديين عليه.

سار جواري كظلي، مضطرباً، وانشغلتُ أنا مع زملائي، نجهز الأعلام الفلسطينية، والعلم الإسرائيلي الذي سنحرقه في الميدان، صنعنا دمىً لشارون، وباراك، وبوش. خرجنا من المسجد، ضباط الشرطة أوقفوا الطريق، وفتحوا طريقاً آخر كي لا يتوقف المرور، الشارع أمامنا مفتوح، أمسك زميل بالميكروفون، وبدأنا الهتاف..

«يا فلسطين يا فلسطين.. احنا وراكي ليوم الدين»

ترفرف أعلام فلسطين في أيدينا عالياً.

«يا شارون يا خسيس.. دم الدرة مش رخيص»

لافتات يرفعها بعضنا وهم يسيرون، وآخرون يرفعون صور جريمة قتل الدرة، أو صورة محمد نفسه وقد كُتب عليها: الشهيد محمد الدرة، انتفاضة الأقصى الثانية. والبعض رسوم لعلم أمريكا وهو يحتضن علم إسرائيل، وصور أخرى تعبر عن التحام الكيان الصهيوني بالأمريكي.

«يا إيهود يا إيهود.. جيش محمد سوف يعود»

وأحدنا قيد رسغيه بكلبشات، وأغلق فمه بلاصق أبيض

كبير، يرفع يديه عالياً وهو يسير حاملاً في يديه المقيدتين لافتة كتب عليها: أنا ضمير الغرب!.

أثناء المسيرة، كان الناس يقفون على الجانبين، يشاهدون حيناً، وحيناً يشيرون بإشارات بذيئة، وبعضهم وقف حاملاً لافتات بالإنجليزية تشتم العرب والمسلمين وتتهمهم بالإرهاب والعنصرية. هناك من أهل البلد أناس متعاطفون مع القضية، لا يزال في إنسانيتهم بقية، وفي ضمائرهم ذرة عدل، ساروا معنا، وبعضهم وبعضنا كاد يشتبك مع هؤلاء الذين يسبون المسلمين ويتهمونهم بالإرهاب، ويدافعون عن الكيان الصهيوني.

«بالروح بالدم، نفديك يا أقصى. بالروح بالدم، نفديك يا أقصى.»

اشتد الحماس، حين وصلنا حيث المنصة التي نصبتها الجالية الفلسطينية في الميدان الكبير، حيث سفارة إسرائيل، والتقينا بالمسيرات الأخرى وأسعدنا كل هذا العدد. بخاصة أنه كان هناك كثير من أهل البلد الأجانب. أطفالٌ كثيرون وفتيات ورجال يرتدون شالات فلسطينية، بألوانها الأخضر والأحمر والأبيض والأسود، أو تلك الفلكورية الفلسطينية البيضاء المنقطة بالأسود، يحملون لافتات بالإنجليزية والفرنسية تقول إنه لا سلام طالما هناك إسرائيل، أو يصبون بكلماتها

جام غضبهم على إسرائيل وعلى نكثها كل العهود. من أكثر اللافتات التي أعجبتني: «أنا لا أقبل أن يدخل خنزير إلى كنيستي حيث أصلي، رغم أني لا أكره الخنازير، فكيف يكون حال المسلمين تجاه شارون وقد دخل محرابهم المقدس؟!» يحملها طفلٌ صغير أبيض الوجه، أشقر الشعر، يحمله أبوه على كتفيه.

كل هذا التواجد، وكاميرات التلفزيون العالمية، والصحفيون، كل هذا جعلنا سعداء، وشعرنا بأننا جعلنا العالم ينتبه ولو للحظة. أحرجنا حكومات العرب المتخاذلة الذليلة، وبصقنا على تنديد وشجب وإدانة حُكامنا ولو لوهلة.

رُفعت الدمى على المنصة، ورُفع العلمان الإسرائيلي والأمريكي، ثم شنقنا الدمى، وأحرقنا الأعلام ونحن نكبر. جاءتنا الأخبار، انتفاضة الشباب في مصر، اشتباكات حدثت في مدارس مصر وجامعاتها، بخاصة جامعتي القاهرة والأزهر ما بين الطلبة الذين انتفضوا في مسيرة عارمة دعماً لغزة والأقصى في ذكرى الدرة السنوية الأولى، وبين قوات الأمن المصرية. وعرفنا أن الاعتقالات والضرب بالعصي المكهربة وقنابل الغاز، قد بدأ هناك. زادنا هذا تكبيراً وتصميماً. قيل إن الاشتباكات بدأت بين قوات الاحتلال الإسرائيلية وبين المصلين الفلسطينين الذين خرجوا في مظاهرة ضخمة بعد

صلاة الظهر في المسجد المقدس. وصلنا أنهم بدأوا حملة اعتقالات موسعة للشباب وأن الاشتباكات لا تزال مستمرة بالحجارة والرصاص. وغزة نفسها كان القصف لا يزال مستمراً عليها، والضحايا يتزايدون، والدماء تسيل، وسمعت أحد أصدقائي يقول غاضباً: وهل منعتْ مظاهراتُنا وإحراقنا لأعلام وشنقنا لدمى تلك الاعتقالات وتلكم الدماء؟ لا! ولن تمنعها! لن تمنعها سوى هذه وهذه (رافعاً قبضتيه تباعاً).

هدأته.

– هذا ما بيدنا الآن. على الأقل نحن نخبرهم أن اثبُتوا نحن نفكر فيكم لكن ما بيدنا حيلة.

– أحقاً؟! إنهم يشكرونكَ من قبورهم!.

سمعت المصري الغريب صاحب الحقيبة المسروقة يتدخل محتداً:

– هؤلاء الطلبة الذين يضيع مستقبلهم، يضيع لأجل ماذا؟ هم يؤمنون على الأقل بالقضية. وهم على الأقل يشاركون المعذبين عذاباتهم طالما لا يستطيعون منعها.

ثم سكت. وصديقي نظر إليه ملياً ثم أشاح بوجهه ولم يرد. ربتُ أنا على كتفه ولم أعلق. ثم لمحته تنفرج أساريره، وهو يشير إلى شخص وينادي عليه، كان أحد رجال الجالية، وكنت أعرفه ولا أطيقه، اسمه ف، يبدو دائماً خبيثاً ورائحته خمراً،

ولم أحبه قط.

احتضنا بعضهما، وصافحتُ أنا ف. ثم انتحيا جانباً، فحسبتُ أن المشكلة قد حُلت وذلك المصري سيذهب معه. لكن بعد دقائق لمحتُ وجه المصري يعبس من جديد، ثم يعود إليّ متوتراً، دون كلمات. لم أعلق ولم أنظر ناحيته حتى، اصطنعتُ أني لم أنتبه له، وأن تركيزي مع الرجل الذي ينشد شعراً للأقصى فوق المنصة.

ميلاد

متحلقون في دائرةٍ يتوسطها فانوسٌ صغير، مغطى بقماشٍ أخضر، فيخرج ضوؤه الأصفر أخضر باهتاً، والشعر يُعزف على أوتار صوت منشده،

»أَبداً تَحنُّ إِلَيكُمُ الأَرواحُ ... وَوِصالُكُم رَيحانُها وَالراحُ
وَقُلوبُ أَهلِ وِدادكم تَشتاقُكُم ... وَإِلى لَذيذ لقائكم تَرتاحُ
وَا رَحمةً للعاشِقينَ تَكلّفوا ... سرّ المَحبّةِ وَالهَوى فَضّاحُ

الكل في الحلقة صامتٌ، والكلام ينسرب من الآذان إلى القلوب فتذوب، وإلى العقول فتسكر بنشوة المحبوب،

لا ذَنبَ لِلعُشّاقِ إِن غَلَبَ الهَوى ... كِتمانَهُم فَنما الغَرامُ فَباحوا
سَمَحوا بِأَنفُسِهم وَما بَخِلوا بِها ... لَمّا دَروا أَنّ السَّماح رَباحُ
وَدعاهُمُ داعي الحَقائقِ دَعوة ... فَغَدوا بِها مُستَأنسين وَراحوا
رَكِبوا عَلى سنَنِ الوَفا وَدُموعهُم ... بَحرٌ وَشِدّة شَوقهم مَلّاحُ
وَاللهِ ما طَلَبوا الوُقوفَ بِبابِهِ ... حَتّى دعوا فَأَتاهُم المفتاحُ
لا يَطربونَ بِغَيرِ ذِكر حَبيبِهم ... أَبَداً فَكُلُّ زَمانِهم أَفراحُ
حَضَروا وَقَد غابَت شَواهِدُ ذاتِهم ... فَتَهَتّكوا لَمّا رَأوه وَصاحوا
أَفناهُم عَنهُم وَقَد كشفَت لَهُم ... حجبُ البقا فَتَلاشتِ الأَرواحُ
فَتَشَبّهوا إِن لَم تَكُونوا مِثلَهُم ... إِنَّ التَّشَبّه بِالكِرامِ فَلاحُ

والدنيا نغمٌ موصولٌ بالروح، تهفو الروح مع الهمهمات

التي تعلو شيئاً فشيئاً،

الله،

الله،

الله،

تتمايل الرؤوس، وتتهادى الأيدي، تتباعد ثم تتلاقى فيخرج صوت تلاقيها منغماً مع التمايل ومع دقات القلوب،

أصبحتُ فيكَ كما أمسيتُ مُكتئباً ... ولم أقل جزعاً يا أزمة انفرجي.

عذِّب بما شئت غير البعدِ عنك ... تجد أوفى محبٍّ بما يرضيك مبتهجِ.

الله،

الله،

الله،

والتصفيق يصدح، والرؤوس يشتد تمايلها، ثم يقفون فجأة تشتبك أياديهم، وآهات المنشد تسمو فوقهم، دوامة تجذب أرواحهم بعيداً عن الدنيا، وعن العبث،

عجبتُ لصبٍّ من شمائلهِ يختالُ ... ما بين أزهارٍ ببستانِ

فقلتُ لنفسي يا نفس لا تتعجبي ... ممن ترين فقد أبصرتِ نفسكِ في مرآةِ إنسانِ

ومن أعجب الاشياءِ ظبيٌ مُبرقعٌ ... يشيرُ بِغُنّابٍ ويومئ بأجفانِ

ومرعاه ما بين الترائبِ بالحشى ... ويا عجباً لروضةٍ وسط نيران

ينفجرون فجأة في دوران وهبوط، تضطرب الرؤوس

والأيدي، والتصفيق يعلو ويطرد، ثم كأن العالم يختفي ولا يظل شيء سوى هالة النور الأخضر الخارجة من الفانوس الصغير، ولا شيء في الكون سوى الشعر الذي يتغنى، وأنتَ هناك في الأعلى تحلق، مع النغم، مع حركاتهم من اليمين إلى اليسار، واليسار إلى اليمين، تهفو روحكَ فتدور مع أرواحهم، في الفلك البعيد، حيث لا يراهم ولا يراكَ أحد،

الله،

الله،

الله،

ألا يا حمامات الأراكةِ والبانِ ... ترفّقن لا تظهرن بالنوح أحزاني
ترفقن لا تظهرن بالنوح والبكى ... خفيّ صباباتي ومكنون أحزاني
تطوف بقلبي ساعةً بعد ساعةٍ ... بوجدٍ وتبريحٍ وتلثم أركاني
كما طاف خير الرسل بالكعبة التي ... أفاض دليل العقلِ فيها بتبيانِ
وقبّل أحجاراً بها وهو قائلٌ ... وأين مقامُ البيتِ من قدر إنسان

ثم حين يهدأ النغم، ويبطئ التصفيق، تفيق، تود لو علا النغم من جديد، وابتسامة تغرق وجهك حتى تكاد تخفيه.

لقد صار قلبي قابلاً كُلّ صورةٍ ... فمرعى لغزلانٍ وديرٍ لرهبانِ
بيتٌ لزوّار وكعبةُ طائفٍ ... ألواحُ توارةٍ ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحبّ أنّى ركائبهُ... فالحبُّ ديني وإيماني
فالحب ديني وإيماني..

فالحب ديني،

وإيماني.»

انتشيتُ، وأحسستُ أحاسيس شتى، ردّدتُ هامساً: هذه الدنيا نغم. هذه الدنيا نغم. لحنٌ دريٌ يتلاعب بالأجساد، يفتتها، ينفذ منها، موصولٌ بالأرواح، والأرواح موصولةٌ بالله، فمتى وصلت إلى الروح وصلت إلى الله وانتشيت.

كنت أضحك. وكنت أحب.

– حَضْرَة في أوروبا! وفي ليلة رأس السنة! يخرب بيوتكم!

ضحك م، وهو يمد يده لي بكوب الشاي باللبن الدافئ، قائلاً:

– تفضل النفَحَة!

تناولتها منه.

– وما المشكلة في أوروبا أو غير أوروبا! إن كنا في جهنم نفسها! هكذا نحتفل نحن! طالما الروح تهفو إلى بارئها مالك من سبيل سوى الإذعان، سوى طأطأة الرأس والسجود. لكنهم كما تعرف صاروا يضيقون علينا كثيراً بعد ثلاثاء الغبرة.

أومأت وقلت: هذه أول مرة أحضر حَضرة. لم أكن أتخيل أن هذه الأشياء تحدث فعلاً. ولم أكن أتخيل أني يمكن أن أشارك فيها لحظة.

ابتسم،

– ما في التواجدِ إن حققتَ من حرجٍ ولا التمايل إن أخلصتَ

من باسٍ ... إن السماعَ صفاءُ نور صفوته يُخفى ويُحجب عمن قلبه قاسٍ.

– لكن أحقاً يمكن أن يعيش الإنسان بالحبِ دينِه وإيمانِه؟!

– طبعاً! أتعرف ما المقصود كله؟! الحب عقيدة كل الأديان، الأديان الحقيقية كلها حتى غير السماوية تجيء كي تجعلك فخوراً أنك عبدٌ لله، تستشعر نعمة حبه، ونعمة الوهيته، ونعمة عبوديتك إليه. تحبه. تذوب في ملكوته عشقاً، وتدركه في كل الموجودات حولك. يتجلى جماله في قطرة ماء ندية تلمع فوق زهرةٍ وسط صحراء موحشة، وتنبلج عظمته في سحابات الغروب فوق قمة جبل شاهق، وتتكشف رحمته مع كل دقةٍ من قلبكَ تنبض بحبه. كل الأديان جاءت تنادي بحب الله، لكنها تضع قوانين مختلفة في حب البشر، بأي دينٍ وصلت إلى الله، وبأية عقيدة لمست نفخته داخلك، فأنت على صواب. لا يهم بمَ تدين، ولا يهم بمَ تعتقد، المهم أنك وصلت إليه. علاقتك بالبشر جاء الدين ليرتبها، لينظمها ويقننها، لكن إن الحب طغى عليك، وإن أخلصتَ وأحسنتَ، ستجد الحب طوفاناً جارفاً، يتفجر في صدرك، فينبثق منك يشمل كل البشر وكل الأشياء، ستجدكَ تصير ترتب علاقاتكَ بالدنيا من حولك، بالبشر، بالحيوانات، بالطيور، بالنبات، بالسماء، بالأرض، ترتبها بالحب، وستجدك

مطمئناً، مستكيناً، لا تشعر أبداً بوحشة، وكيف تحسها وهو معك وأنت معه؟ هو يغنيك عن الدنيا وعن الآخرة، عن الجنة، وعن ذاتك ولذاتك، وستجد أجمل لذاتك حين تستشعر أنه قريب منك، وأنه راضٍ عنك.

– وكيف يمنع الحبُ الظلمَ، وسفكَ الدماء، والتعذيبَ و و و و ؟ كيف يردع عصيَّ العساكر؟

– الحبُ هو الرادعُ الوحيدُ لكل هذا. اعقلها فقط! أمن يحب سيظلم؟ سيقتل؟ سيعذب إنساناً؟ أقصد بمفهوم الحب الواسع، تفهمني طبعاً!

– لكن هذا كلام! غير قابلٍ للتطبيق في الدنيا. أحلام!.

– نحن نحاول على الأقل. وأجدادنا حاولوا ووصلوا، يمكننا أن نصل أيضاً.

هززتُ رأسي، وتذكرتُ خ، وأنها ربما كانت على صواب. تذكرتُ ثلاثة شهور مضتْ وأنا مع م. منذ تلك المظاهرة وأنا معه كحيوان كنغارو صغير لا يغادر جراب أمه. هربتُ من عند خ، بعدما حدث ما حدث، لم أجد مكاناً ألجأ إليه سوى الجامع الكبير، للمرة الثانية في حياتي أستغيث بالمسجد هرباً من امرأة، كنت متأكداً أني سأجد هناك حتماً من يساعدني. على الأقل تخيلتُ أني ممكن أنام ليلة حتى أرى ما الذي سأفعله.

بالكاد وافق مسؤول المسجد، وفي الصباح لم أجد أشيائي. أنقذني وجود م. أنقذني من نفسي. وفي تلك المظاهرة، تذكرتُ (الحب في المنفى). وتساءلتُ في ذهني: إلى متى ستقودني يا سيادة الصحفي الهمام؟! أتراني سأموت في النهاية مثلك هنا غريباً؟ بأزمةٍ قلبية أمام أحواض البنفسج؟! وأستعيد الرواية في عقلي مرةً أخرى، كلعبة الكمبيوتر QUAKE I التي كنتُ ألعبها قديماً، أو كظاهرة Déjà vu، كأني كنتُ هنا من قبل، أصطحبُ (بيرجيت) الجميلة نبكي ونصرخ في مظاهراتٍ لأجل دم المذبوحين في صبرا وشاتيلا، لكني أنا أنا الحقيقي كنتُ أسير جوار رجلٍ لم أكن أعرفه بعد منديداً بقتل محمد الدرة. لا فارق كبيراً، العدو واحد. القاتلُ واحد، والمقتولُ واحد. الدمُ واحد، والعارُ واحد، دماؤنا، عارُنا وعريُّنا، هونُنا وهوانُنا. أنارتْ في عقلي د. كم أوحشتني!. تقمصتُها وأنا أدافع عن المعتقلين الذين يشاركون المعذبين عذاباتهم. وتذكرت أخي، تذكرت شبابه الذي ضاع. أخذني م إلى الفندق الذي يعمل فيه، عرف أني في زمنٍ بعيد ماضٍ كنت أعمل مرشداً سياحياً، وعرف أني أتقن بعض لغات، توسط لي عند صاحب المكان، لم أره بعد، لكن م دائماً يمدحه ويقول إنه رجل طيب. ما وصلني من كلام أدركت منه أنه أمير خليجي، لكني لم أعرف من أية دولةٍ تحديداً. وعملتُ في

الفندق مترجماً، وتوطدتْ علاقتي بـ م.

م ملتحي. وحسبته واحداً من أدعياء الدين الذين أعيوني في حياتي. لكنه لطيف حقاً. واحترمته لما علمتُ أن لديه حلماً، يؤجله لأجل إخوته وأمه. شعرتُ وأنا معه أني أولد من جديد، غيَّر تفكيري في كثيرٍ من الأمور، منحني صداقاتٍ، وعملاً، وسريراً، وعطاءَ أخوياً بلا حدود. كان كالسفينة لغريق. لم يكن قشة، كان سفينة كاملة. واليوم أقنعني أن أحضر معهم حَضْرَة. كنت أرفض كل تلك الأمور، وأقول إنها أمور شركية. ما هذا الدين الذي يتعبد أتباعه بالرقص؟! وكنت أرفض التوسل (بالأسياد). أقول له: كيف أجعل بيني وبين الله واسطة، والله نفسه لم يجعل بيني وبينه أحد؟!

يضحك: ولماذا أنت غاضب؟! لا تتوسل بأحد.

– أنا لا أمزح. أنا أريد أن أفهم.

– هؤلاء أناسٌ نحسبهم على خير، فنحتسبهم عند الله مقربين منه، فنتقرب إليه بهم، كأنك حين تريد شيئاً من شخصٍ مثلاً تقول له وغلاوة فلان، أتفهم؟!

– أفهم لكني أرفض. الله لن يسمعني إن لم أتوسل بهم؟ الله لن يستجيب لي إن لم أرجُه بهم؟ طبعاً لا. الله يسمعني كما سمعهم. ومعي كما كان معهم. ولي كما هو لهم. وفي منه كما فيهم منه. ما الذي يفرقهم عني؟ كيف أكون أحبه ويحبني

ويجعل بيني وبينه واسطة؟ ومن أدراني أنهم حقاً مقربون منه؟ أليس فيهم أحد مُراءٍ؟ أكلهم ملائكة؟!

– لم أقل أنهم ملائكة. لكن أولياء الله لهم كرامات!

– هل يطيرون مثلاً؟! هذا الكلام نضحك به على أنفسنا، الحقيقة أنك لا تثق بالله ثقة كافية، هل كان الصحابة يتوسلون بالنبي، وهو أولى الناس بالوسيلة؟!

– سندخل في جدال طويل. لن ننتهي. علماءٌ كثر أفنوا عمرهم في تكفير التوسل، وعلماءٌ أخر أفنوه في إثباته أصلاً من أصول الدين. ونحن بين هذا وذاك. لا يهم توسلت أم لم تتوسل، حضرت حضرة أم لم تحضر. المهم أن تحب، وأن تدرك. أن تحسن وأن تخلص. هذا هو المهم.

وهل حقاً يا م يكون كل شيءٍ جميلاً بالحب؟ ويسود السلام وتطمئن النفوس؟

– الحبُ هو الهدف، وهو المغزى والمعنى. أحبّ الله فتسكن إليه، أحب زوجتك فتسكن إليها، الحب هو السكن. والسكن هو الغاية. والوسيلة صعبة، تحتاج إلى عزيمة، تحتاج إلى صبر.

أتأتي اليوم يا م وتفقأ هذا الدمل القذر؟ أبهذه البساطة؟ وبعد كل ما حدث؟ وكأني لم آت إلى هنا هرباً من الحب أصلاً؟! وكأن شبح ح غادرني، أو عيون د برحتني؟ ألا يمكن أن أحبهن جميعاً؟ ألا يمكن أن أحب ح ونصير معاً، نتفلسف معاً، ونقرأ

معاً، ونشطح بأفكارنا بعيداً معاً، نضع شروطاً ونُحكِم قيوداً ثم نحطمها جميعاً معاً؟ ألا يمكن أن نُحلق مع موسيقاها الصاخبة، ونصرخ في وجه العالم كله، إننا معاً ولن تفرقونا؟ أما يجوز أن أحب معها د أيضاً؟ بعطورها الهادئة، وأناقتها الكلاسيكية؟ ألا يمكن لي أن آخذها إلى باريس أحتضنها من خلفٍ ونحن نتأمل العالم من قمة إيفل، ثم ألفها ناحيتي ساعة الغروب وأقبلها من شفتيها؟ أو نروح إلى ماليزيا فنغرق في نشوتنا وسط الشلالات؟ نبكي سوياً على المذابح، ونحزن سوياً على آبائنا، ونضحك سوياً على الدنيا كلها؟ نقول أشياء ونفعل عكسها، ونفعل أشياء ونقول عكسها، نغوص في تناقضاتنا سوياً؟ وأحب معهما ع؟! ولمَ لا؟ لا أنكر لها مواقف لطيفة كثيرة، لو فقط تفهمني. ربما أنا لم أمنحها الفرصة. ماذا لو منحتها الفرصة؟ ألا أذكر يوم أن مرضتُ وسهرتْ هي ثلاث ليالٍ تضع الكمادات فوق رأسي؟ ألا أذكر جزعي عليها حين وقعت من فوق سلم أمها؟ أيصير عطلاً في نواميس الكون لو تفاهمنا؟ لو ذهبنا معاً إلى المسجد فسمعنا الدرس، ثم تناقشنا فيه؟ نتناقش في فرضية الحجاب وجدلية النقاب ولا ينتهي الأمر بخصام؟ ثم نعود إلى البيت فتطهو لنا في عز الليل، وأنا أشغل أم كلثوم، نأكل، ثم نتيه في ملهانا؟ تتجاوب

معي، تصرخ معي، تلهث معي، ونتجاوز حدود الكون ونصير أسمى؟ أشعر دائماً أن قلبي كبير. يسع كثيرات. وكأني كلما قابلت واحدةً وجدت فيها مزيةً تجعلني أحبها، أم أني أدين بدين الحب حقاً ولست أدري؟ وهل يسع قلبي الكبير خ أيضاً؟ وهل تدين هي حقاً بدين الحب؟ أم هو الذي تبحث عنه وليس حقيقياً؟ وإن كانت تدين به حقاً، فلماذا تُرخِّص نفسها لهذه الدرجة؟ لماذا تفعل ما تفعله؟ وهل سامحتني؟ وبعد كل هذه الليالي هل سامحتُ أنا نفسي؟ لو يرتاح قلبي من كل هذا. لو يسود الحب حقاً. لو تكون كل هذه الحروب، وكل هذه الدماء، هي ولادةٌ متعسرة لعالم جديد. لو يكون كل هؤلاء المعذبين والمذبوحين بالخناجر وبالكراهية؛ هم قرابين على مذبح كيوبيد؟ لو يكون كل ذلك ميلاداً لعالمٍ يظلله الحب ويسكنه السلام؛ لهان كل شيء، ولاحتملنا.

أخرج الولاعة، ألقيها في صندوق القمامة بعنف حتى تتحطم، أقوم فأشبك يديَّ في أيديهم، نتمايل مع النغم، أولد معهم من جديد، وأشارك بدوراني في تسريع هذه الولادة المتعسرة علها تنتهي قبل أن ننتهي نحن، وقبل أن نفنى.

كرمُ الأمير

من هاتف الفندق، اتصلتُ بـ ط. أحسبني كنت أحدثه كل يوم. الجرسُ الطويل، ثم صوته إما ناعساً أو مجهداً. بالوقت أدركتُ فروق التوقيت، وبدأتُ أضبط ساعتي مع مواعيده. يحكي لي بحماسة عن مدونةٍ صنعها، ولم أكن أفهم ما المدونة. شرح لي. ثم قال إنها الفرصة الحقيقية كي نغير العالم، وإنه لن يستطيع أحد أن يمنع أصواتنا بعد الآن. سنقول. سنقول. سنقول، ولن يمنعنا أحد. هكذا يقول لي متحمساً. صرنا نتحدث على الإيميل يومياً تقريباً. أحكي له عن يومياتي في الفندق. أقوم في الصباح، أتناول الإفطار، أخرج إلى مكتب الترجمة، أحياناً يكون لي فائدة، أترجم أشياء للأمير، أو لبعض الزملاء، ثم أستريح للغداء، أقابل م. م يعمل كبيراً للجارسونات. يشرف على تقديم الطلبات، يقول لي إنه كان يعمل فراشاً في البداية، ثم حمالاً، ثم صار نادلاً، ثم جرسوناً، ثم كبيراً للجرسونات. سألته وما الفرق بين النادل وبين الجرسون؟ قال لي الجرسون يقدم الطعام، أما النادل فيقدم هنا الشراب. قلت وهل كنت تقدم خمراً؟ همس لو وراءك كوم لحم! وصمت ولم يزد. لم أستسغ هذا المبدأ يا ط. وتذكرت نقاشاتنا عن الغاية

والوسيلة ومبادئ مكيافيللي. وكنتَ تقول إن الناس يتذرعون بالقاعدة الفقهية: أن الضرورات تبيح المحظورات، كي يبيحوا لأنفسهم كل شيء. ربما معك حق. بعد الغداء أعود للمكتب أعمل ساعتين ثم أنتهي في السادسة. نجلس في اللوبي سوياً أنا و م وكثير من العاملين. أغلبهم مصريون، لكن كلهم عرب. وكانوا معظهم ملتحين. وبدا لي الفندق إرهابياً. أتضحك؟ هو شيء مضحك فعلاً. حتى أنا قد التحيت. ألم أخبرك؟ كيف؟ هذا ما حدث قد التحيتُ يا ط. تخيل! لا ليس كما في رأسك، لم أصبح واحداً منهم. أنا فقط شعرتُ بالرغبة في إطلاق لحيتي. شعورٌ غريب ينتابني، كأني أولد من جديد، وكأن لحيتي تنبت لأول مرة، قررت أن أتركها على راحتها قليلاً. المهم كل العاملين في الفندق عرب، وكلهم يتغنون بالأمير، بتدينه الشديد، بورعه وتقواه، وأنه يساعد الكثير من العرب المهاجرين، خصوصاً الغلابة! المهاجرين غير الشرعيين أعني!. بالطبع لم أتغنَ معهم بالأمير، رغم أني لا أنكر فضله عليّ وتكرمه بالموافقة على العمل رغم أن القسم تقريباً لا يحتاج إلى مترجمين ولا فائدة منه كله أصلاً. لم أعد أعرف هل بقائي هنا سيطول؟ لم تقل لي رأيك يا ط؟ ماذا أفعل الآن؟ العمل في الفندق لا بأس به، لكني اتصلت بشركة السياحة التي كنت أعمل فيها،

هل تذكرها؟ كلمت (الثلاجة) وبعد المجاملات، والسؤال عن حالي، سألته عن د. كنت كلما اتصلت بها لا ترد، أو تخبرني المرأة المعدنية أن عطباً حصل. سألته ولم أدرك إلا بعد السؤال أني سألته. قال إنها تركت الشركة، لم يخض في تفاصيل، ولم يطاوعني لساني أن أسأل أكثر. ألا يمكنك أنت يا ط أن تسأل عنها؟ لأجلي. لأجل صديقك البعيد. قال لي (الثلاجة) إن الشركة تحسبني هربت من البعثة، قلت له لكن مستر معتز يعرف كل شيء، ويعرف كيف طردوني من الفندق، كيف يحسبونه هروباً؟ أخبرني أن مستر معتز قال إن السفارة أرسلت كي تعيدك إلى مصر، ولكنهم لم يجدوك والشرطة تبحث عنك الآن! ضحكت. أليس ذلك مضحكاً يا ط؟ أذلك الموظف القواد ذو الصلعة أرسل كي يعيدني إلى مصر؟ ألهذه الدرجة أنا مهم؟ رغم أني لست أمثل الفن المصري ولا الثقافة المصرية! أيذكرني أصلاً؟ الكل يخلي مسؤوليته وانتهينا. حتى (الثلاجة) أخبرني أنه غاضب مني جداً، لأن فعلتي هذه أحرجته، كان يحسبني رجلاً يعتمد عليه، وأنا صغرته الآن وسط موظفي الشركة. الغربة شيء مقزز يا ط. شيء مقرف. بخاصة لو كانت مع من هم مثل هؤلاء. بخاصة لو كنت غريباً وسط ناسك، وسط أصدقائك، وسط أهلك. أنا هنا في الفندق أشعر بغربةٍ شديدة،

نعم الأحوال المادية والجسدية كلها استقرت، أعمل وأقبض وأنام مستريحاً. لكني أشعر باغترابٍ شديد، وسط كل هذه اللحى المخيفة. م هو الوحيد الذي لا يطلق لحيته للسبب الذي تعرفه. كلهم هنا مثل أخي وأكثر. كلهم هنا يقولون بغلظة: حرام. يقولونها لكل شيء. حتى يوشكوا أن يقولوها للحياة ذاتها. و م لا يحاول منعهم. يضحك عليّ حين أبدأ في مناقشتهم، أصرخ فيهم أن الإسلام دينٌ للحياة، ليس ديناً يدفن أتباعه في لحى شعثاء، وجباه متأففة، وعقول مغلقة، ثم حين ننتهي يأخذني على جنب، يقول لي: لا داعي لهذه المناقشات مرةً أخرى، فهذه المناقشات تغضب الأمير. ولم أكن أفهم يا ط.

لم أكن أفهم.

وتقول لي بحماس إنه قد صار للمدونة ثلاثة قراء. تقول إنهم بداية التغيير، وإنك سعيد أن مقالاتك بدأت تأخذ بعض الصدى عند الناس. ولم أشأ أن أصدمك وأعيد على الشاشة أمامك أنه قد صار للمدونة ثلاثة قراء. ثلاثة قراء يا ط! ثلاثة!. أي صدى الذي تتحدث عنه؟! أنسيت أننا ننحت في صخور الألماس؟ لكني لم أركَ متحمساً لشيءٍ من زمن، لن أخذلك.

تعطيني رابط المدونة، فأعدك أن أتابعها، أعدك أن يزيد القراء واحداً. أما الفاعلون؟! تحادثني عبر الهاتف تقول إنك

تشن حملةً قوية على التعذيب الذي يحدث لطلاب الجامعة، بخاصة ذوي الميول الإسلامية، تقول ربما نتفق أو نختلف معهم في أفكارهم، لكن لمجرد أن يترشح واحدٌ منهم لانتخابات اتحاد الطلبة يقبضون عليه؟! أي بلدٍ هذا؟ وأية حريةٍ يتشدقون بها؟ وبالطبع لم أعترض، هناك مئاتٌ مثل أخي. تقول لي إنك تريد الذهاب إلى أخي كي تتحدث معه في الموضوع، لكني أطلب منك الابتعاد، يعلم الله وحده مع أي جانبٍ أخي الآن، وقت الجد سيضعونك في الكفة نفسها مع أخي وجماعته، لن يرحمك أحد. لا تخاف؟! وما الذي ستصل إليه؟ هل ستمنع وحدك التعذيب؟ هل ستمنع الاعتقالات لمن هم دون السن القانونية؟ وكأنها تجوز لمن هم فوقها؟! هل ستُخرِج وحدك كل هؤلاء المسلوخين والمشوهين لأنهم فقط دافعوا عن محمد الدرة؟! أنا لا أثبط من عزيمتك يا صاحبي، أنا فقط أشفق عليك، تعرف؟ لقد تعلمتُ هنا شيئاً! الحب هو الحل حقاً، علم الناس في بلادنا كيف يحبون وأنت حقاً ستغير العالم. لا. أنا لم أقل إن الحب يعني السلبية. أخي ضاع وما كان كان! ما فائدة الذي تقوله الآن؟؟ بعد كل هذه السنين؟! أية قضايا التي لا تسقط بالتقادم؟! لن يرفع أخي قضايا ولا يحزنون. أنت حر لكن لا تقل إني لم أحذرك. آ صحيح.. جاء م وأخبرني أن الأمير

يريد أن يراني. كان متوجساً، وبدا قلقاً. قلت له لماذا؟ بيني وبينك حسبته سيحدثني عن تلك النقاشات، كان لديّ أمل أن يكون قد اقتنع بكلامي. العصافير التي تنقل كلامي إليه كثيرة بلا ريب، وإلا كيف يتابع فندقاً بهذا الحجم؟! قلت لنفسي: وما الذي يمكن أن يحدث؟! سيطردني من الفندق؟! ساعتها سأروح وأسلم نفسي إلى السفارة وأنتهي من كل ذلك! أحياناً يراودني هذا الإحساس، أن أذهب إلى هناك وأقول ها أنا ذا. أنا واثق أصلاً أنه لا أحد يذكرني ولا أحد يعرفني، مشاغلهم كثيرة كما حكيت لك!. المهم أني ذهبت مع م، جاءت سيارة فارهة انتظرتنا أمام بوابة الفندق، عرفتُ أن اللقاء سيتم في قصر الأمير، حين بدأت السيارة تبتعد عن العمران، وتسير بمحاذاة النهر، بدأت أقلق قليلاً، وخطر على بالي خاطر جعلني أبتسم: يبدو أن (الحب في المنفى) مصرة أن تسطر حياتي، هذه المسكينة! لا يبقى سوى أن يكون اسم الأمير: (حامد) ولا يفرق معه أني مرشد سياحي، ويطلب مني عمل صحيفة. أنا المترجم مرشد سياحي، وهو سيادة الصحفي الهمام مترجم! لا يهم، في النهاية نحن الاثنان نترجم للأمير!. سألتُ م: هل اسم الأمير (حامد)؟ هز رأسه أن لا. كان يحاول أن يبدو متعقلاً، يبدو عليه أنه لم يذهب إلى ذلك القصر من قبل هو أيضاً. هو الذي

أصر على المجيء، قال سيجلس في باحة القصر ريثما أنتهي، كنا نحسب أن الأمير سيطردني، وكأنما قرأ م هواجسي، قال محدثاً نفسه في الأساس: الأمير حين يطرد أحداً فهو يرسل الأمر مباشرةً بفاكس، لا يتكبد كل هذا! نفثتُ توتري بضحكة وأنا أشير إلى قلبي وقلت: كله بالحب يا صديقي! لا تقلق. الحب سينتصر. لم يضحك وبدا أنه يخفي شيئاً عني!. صعدنا وهبطنا ومررنا بحدائق، ثم وصلنا إلى الجنة. قصورٌ فخمة، وسيارات فارهة، ورقي ما بعده رقي. حتى رائحة الهواء كانت مختلفة وبها لمسة حنو. نحن في يناير والجو هنا معتدل! الغريب أن الشتاء هنا جوه ألطف من الخريف. استقبلنا خدم، ثم صعدنا سلماً ثعبانياً، ثم استقبلتنا سكرتارية، فدخلنا غرفة انتظرنا فيها قليلاً، ثم دخلتُ أنا وحدي، أشارت السكرتيرة إلى م أن يجلس وإليَّ أن أدخل. لماذا إذاً سمح الأمير له أن يأتي من البداية؟! بالتأكيد يعرف أنه معي. دخلت. ألقيتُ السلام. كان موظف السفارة الأصلع يصافح الأمير، ويكاد ينحني حتى يقبل يده، ثم يعتدل ويضع ورقة في جيبه (بالتأكيد شيكاً) ثم يثني على الأمير وهو يرجع بظهره إلى الباب، حتى يظل وجهه ناحية الأمير، وأثناء مروره جانبي، هز رأسه محيياً وابتسم ابتسامة واسعة. أخذتني المفاجأة، حتى سمعت الأمير يرحب بي، وينادين باسمي.

أفقتُ وأنا أرد تحيته بغمغمة لا معنى لها، أشار لي أن أجلس، لم يقم ليصافحني ولم يمد يده، وكان ذلك سخيفاً جداً. تنبهت إلى الرجل الواقف وراءه، سمرته تنضح بطمي النيل لا شك، يرتدي جلباباً فضفاضاً أبيض، ويربط فوق رأسه عمة تجمع ما بين عمم الأفغان والصعايدة، كان واقفاً يضع كفه فوق الأخرى أمام عانته، مثلما يقف الحرس الخاص. بدا لي وجهه مألوفاً بطريقة ما.

الأمير نفسه لم يكن عجوزاً ولم يكن شاباً، ربما هو في أوائل الأربعينيات، لحيته مهذبة، تشوبها شعيرات بيضاء، يرتدي قميصاً أنيقاً وربطة عنق ويعلق الجاكيت على مشجب قريب، كان يتطلع إلى أوراق أمامه، ثم قال إنه يعرف قليلاً من الإنجليزية، إنه من الجيل القديم الذي لا يهتم باللغات ويعتمد على المترجمين. ثم أثنى على ترجمتي، التي فيما يبدو تظهر في الأوراق التي أمامه. قلت مجاملاً إن هذا شرف كبير أن الأمير يعتمد عليّ. هزّ رأسه وقال: تمام أنت جولت كذا. أنا أبغى أعتمد عليك أكثر.

– لا أفهم يا سيادة الأمير.

رفع نظره من فوق الأوراق. ثم نحاها جانباً وتطلع إليّ ملياً، وقال وهو يشبك كفيه أسفل ذقنه ويتأملني:

– إيش رأيك في نص مليون دولار..... بالشهر؟!

رفعتُ حاجبي وقلتُ مبتسماً: سموك لا تضيع وقتاً!.

رن جرس هاتفه، فرفعه وأخذ يغمغم ويستمع أكثر مما يتحدث، بطريقةٍ ما أدركت أنها وسيلة لتدمير أعصابي، لجعلي أفكر في المبلغ الكبير، فقررت أن أتناسى الرقم، وأتأمل المكتب. كان المكتب أنيقاً، إضاءته لا تعرف من أين تأتي، وموسيقا خفيفة تحيط بالمكان كأنها حقل مغناطيسي، تشعر أنها تخرج من الحوائط نفسها، وخلف كرسي الأمير، تستقر خريطة كبيرة للعالم، ثم تروح عيني دون إرادة، نحو الرجل الواقف كوتد. يبدو مألوفاً، بخاصة هاتين العينين الذكيتين المتقدتين، أين رأيت هذا الوجه من قبل يا ترى؟!

– ها إيش رأيك؟!

– عفواً سموك، لكن لماذا هذا المبلغ الضخم؟! لا أحسب أن الترجمة تدر مثل هذا الدخل!

ضحك ضحكة وقورة مجاملة،

– اسمع أنا ما أحب اللف ولا الدوران، مثل ما تجولونها كِذا بالمصري؟ طيب. الموضوع باختصار، تاخذ نص مليون دولار بالشهر طول الحياة مجابل اعتراف صِغِير وتوجيع وخمس سنوات.

ما هذا الكلام الملغز؟! وأين رأيت هاتين العينين ووجههما

الأسمر هذا من قبل؟!

– راح يصير حادث بسيط في محطة المترو، ونبغاك تروح البوليس، وتِعترِف إنك إنت اللي دبرت الحادث. راح نحفظك كل شَي، راح تجول كيف جهزت الجنابل، وكيف حطيتها ووين، ومين اللي ساعدك، بالأسماء والصور، وبالمواجيت، وبأرجام جوازات السفر، كل شي مسجل بدجة ينتظر بس توجيعك اللطيف عليه. ما تجلج ما راح يموت حَدَ، وكل اللي راح يصير خمس سنوات تجضيها في السجن، أنت مالك حَدَ هُنا تبكي عليه، وأهلك في مصر ما يعرفون عنك شي، لولا صديجك ط اللي يطمئن أمك كل فترة ما عرفوا أصلاً أنك مسافر. رأيي فيك أنك عاجل وراح تحسبها زين، فكر في اللي تجدر تسويه بعدين بالمبلغ، تقدرتحجج أمك، وتجيب لأبوك بيت بدال من بيت جدك اللي راح يطيح فوج راسه بيوم من الأيام، يا أخي مهو عشانك! اعتبره لأجل مدام ع والبيبي الجاي، قلي إيش الاسم اللي اخترته له؟

قنابل؟ سجن؟ ط؟ أمي؟ أبي؟ مدام ع؟ أي بيبي؟ ماذا يقول هذا المعتوه؟

– أي بيبي؟

بخبثٍ ابتسم،

– أنت ما تدري؟! مو المدام حامل في الشهر السادس!

دار رأسي. قمت واقفاً: وبالطبع سأقول إني ضمن جماعة مسلحة تريد أن تصنع خلافة إسلامية، هذا الاعتراف الضمني، بالطبع لن أقص لحيتي، وبالطبع سيظهروننني مقطب الحاجبين. هذه اللعبة السخيفة التي تلعبها لن تفلح معي، أمي وأبي والمدام والبيبي. أتأتي أنت لتخبرني أن زوجتي حامل؟

وجدت الرجل الأسمر ينتفض ويقول: تحدث باحترام يا ابن .....

– ..... هي أمك.

قال الأمير: اهدأ يا ج. وأشار له أن يستكين، ثم قال لي مبتسماً: ليش أنت معصب الحين؟ اجلس. نسينا نجدم لك واجب الضيافة. ايش تبغي تشرب؟ ثم ضغط على هاتف السكرتارية وأمر بكوب ليمون بارد.

ج؟ وهاتان العينان؟

– ليش تكبر الموضوع؟ أنت في كل الأحوال متهم في هذي الجضية، لا تنس أن لك شبهة وأنك هربان من البوليس! لا تنسى أن اسم أخوك له تجله! ليش ما تعجلها كذا وتهدأ وتفكر في قرارك؟!

أُسقط في يدي. هكذا إذاً!.

– أنا فظلت أكون كريم معك، أنا أحترم الأذكياء، وأنت

تعجبني!.

قال إنه سيعطيني فرصة كي أفكر حتى الغد، خرجت من عنده مذهولاً، في عالمٍ غير العالم، يسألني م عما بي فلا أرد، نصل إلى الفندق، أتصل بـ ع، لكنها لا ترد، ألا تطمئن عليها يا ط؟ لأجلي. لأجل صديقك البعيد. ودبرني ماذا أفعل؟! أشاركهم في جريمتهم؟ أشوه الدين مقابل نصف مليون دولار شهرياً؟! يبدو أنه ليس شرطاً أن يكون اسم الأمير: (حامد) كي يحاول شراءك! كي يعرض عليك ثمن الخيانة! ربما لا يشترط أن يكون أميراً أصلاً؟ وما أدراني؟! لكنهم لن يتخذوني ذريعة كي يعتقلوا آلافاً مثل أخي ويضيعوا شبابهم! كي يقتلوا ويذبحوا ويسلخوا ويشوهوا! لا أريدك أن تتوقف عن التدوين. هل كلمت أخي بخصوص تلك القضية؟ لم يرد عليك؟ أعرف طريقته. لا تيأس يا صديقي، قل له إني أريده أن يرفعها. لا أعرف ما الذي يدبرونه لي، لكني لا أريدك أن تقلق، وسأطمئنك عليّ كلما سنحت الفرصة. وع لماذا لا ترد؟ هل جرى لها شيء؟ هل هي حقاً حامل والآن تتألم؟ هل ذهبت إلى أمها؟ وأمي كيف حالها؟ كنت هاتفتها مرتين منذ جئت هنا، شكراً لأنك تطمئنها. ط؟ أين رحت؟ وما هذه الأصوات؟ ما هذه الجلبة عندك؟ ط؟ أين أنت؟ ط؟ ما الذي يحدث لك؟ ط؟ ألو؟!....... ألو، أمي. كيف حالكِ؟ أنا بخير لا تقلقي. ادعي لي يا أمي. كم أوحشتني. لا تقلقي

أنا بخير. أرجوكِ اتصلي بأبي وأخبريه أني أحبه، تعرفين أن هاتف شقة جدي معطل، أرجوكِ أخبريه، لا تبكي، قولي له ابنك يحبك، وأحبك أنتِ أيضاً..... ولماذا أنا بالذات دوناً عن كل هذه اللحى في الفندق؟ رغم أنهم جميعاً سيوافقون ويهللون ولن يطلبوا حتى مليماً؟! لماذا أنا ولا أحد غيري؟ وهل يعرف موظف السفارة عن الموضوع وقبض الثمن أم أنه جاء ليأخذ شيكاً لدعم الفن المصري والثقافة المصرية؟ هل هو الذي أحضر له بيانات أهلي في مصر؟ هل يدبرون الأمر معاً؟ ولماذا تمر الأيام بهذه السرعة؟ لماذا هرب الليل، وجاء الغدُ بهذه السرعة؟ وما هذه الأصوات في التلفزيون؟ ما هذه النار وهذا الدخان؟ ومن هؤلاء الخائفون؟ وكل سيارات الإسعاف والمطافئ هذه؟ هل هي حرب؟! ولماذا أسمع صوت ج يسألني عن قراري في غلظة؟ متى جاء؟ وكيف دخل؟! ويقول إن الأمير لا يحب الخنوعين. هل قلت له يا أحمق أنا زوج أختك؟! هل سألته ألهذا هرب من أبيه؟! ليصير هذا المسخ؟! هل سألته؟ هل هو أخو ع حقاً؟ لكن العينين نفسهما، والوجه نفسه الذي جعلتني ع أحفظه في عقلي حتى إذا رأيته أدلها عليه. ها هو أخوكِ يا ع! ولماذا لا ترد هي عليّ؟ وهذا الأحمق يهددني؟ هل صرخت فيه اذهب إلى الجحيم يا ابن الأوساخ؟ وصوت م ينادي عليّ؟ ما هذا الذي يحدث؟ ومن هؤلاء؟ وما كل هذا الظلام؟!

هزيمةُ الملائكة

امتد الظلام حتى شعرتُ أنه الأبد، ثم نزعوا العصابة عن عينيه فأخذ يجرب رموشه، كأني أكتشفها لأول مرة، وضعوه في مكان لا يستطيع أن ينام فيه مفروداً، كل ما أستطيعه أن أجلس متقرفصاً حول نفسي، يلقون الماء البارد فوقه ويملأون به المكان، وكأن النوم أصلاً يجوز.

هذا الصمت يؤلم، ويشعر بثقله يضغط على أذنيّه، لو فقط أسمع صراخاً، أنيناً، أو حتى سباباً لفهمت أين أنا. أم تراني سأخاف أكثر؟! ما الذي يدبرونه لي؟

بعد ثلاث ليالٍ بدأوا التشريفة. دخل عليّ اثنان ضخام كالبغال، شدوني من يديّ، لا أقوى على الوقوف، ثلاث ليالٍ في البرد والماء والصمت، دون نوم ودون طعام، جرجروه من إبطيه إلى غرفة الضابط، قال لي: لا تتعبنا وتتعب نفسك ستخبرنا بكل شيء يا روح أمك، لو أردنا أن نجعلك تقص علينا لون ... أمك الذي خرجت منه وليداً، وعما رأيته داخله لجعلناك، كل شيء جاهز، نحن في انتظار توقيعك، وتظل محافظاً على كرامتك، وعلى إنسانيتك، يرفع رأسه نحو الضابط، يقول لا تستطيعون أن تمسوني، أنا لديّ حقوق، وسأدور العالم كله أفضحكم، يضحك ويقول: هل لا تزال مصدقاً لوهم حقوق

الإنسان ذلك؟ هي أشياء نضحك بها على الشعوب، ونترك للمثقفين الحمير أمثالك أن يتشدقوا بها بدلاً من الفراغ الذي يملأ حياتهم، نحن لا نريد تضييع وقت، أظن أننا تركناك ثلاث ليالٍ كي تفكر جيداً، يضحك في وجه الضابط ويقول: نعم، شكراً لأنكم سمحتم لي بهذه الفرصة، هذه هي الورقة، وهذا هو القلم، يبصق على الورقة فيبتسم الضابط ولا يقول شيئاً فقط يشير إلى الرجلين، قبضاتهم ترتع في وجهي، وأقدامهم الغليظة تضرب قدميّ حتى سقطت على الأرض وسطهم، فانهالوا فوقي بأحذيتهم وعصيهم المكهربة، لا يزال مبلولاً بسبب الماء الذي أغرقوه به، وعصيهم تضربه فتثير في جسده عاصفة من الشحنات المؤلمة، أكتم آلامي وأجز على أسناني محاولاً ألا أتأوه، فيغيظهم صمتي وتحملي فيشتدون أكثر، حتى يكاد فكه ينخلع من كثرة الضرب فيه، وأنفه صار قطعة مفرية من لحم وعظم، جرجروني من قدميّ إلى غرفةٍ رائحتها مقبضة، والموت يلهو في أركانها، علقوه من رسغيه إلى السقف، أطراف أصابعه تكاد تلمس الأرض، فيحاول النزول كي يقف بقدميه على الأرض ليريح ذراعيه، فيشتد ألم ذراعيه أكثر ولا يصل إلى الأرض، أروح في الظلام وأعود، وكلما رحت عن العالم، ضربوا الماء في وجهي، وصفعوني، أمي، أأخبرتِ أبي أني أحبه؟! يتأمل الأرض وهو لا يقوى على لمسها، يتذكر

الواحات، يتذكر تلك الرواية التي يريد أن يكتبها كي يهز بها ضمير العالم، أم أنكِ يا أمي لم تحدثيه؟ كيف أخبره الآن؟! ع هل تتألمين الآن؟ هل أنت حامل حقاً؟ حامل؟ ولم تخبريني؟! آه يا أخي! هل جرى لك هذا؟ هل علقوك في السقف من رسغيكَ؟ ثم جاؤوا فأنزلوه، كم بقي معلقاً؟ مجرد أن لمس الأرض حتى تمدد وآلام عنيفة تغزو رأسه، انهالوا فوقه بسياطهم، أتقلب من اليمين إلى اليسار، أحاول أن أحمي نفسي من لسعاتهم. يا سيادة الصحفي الهمام لم نتفق على هذا! ثم جذبوه كذبيحة من قدميه وخلعوا لي ثيابي وأنا بالكاد أقاوم، علقوني من قدميّ، هل علقوك عارياً من قدميكَ يا أخي؟! أراد أن يقول لهم ساخراً إنها فرصة جميلة ليريح ذراعيه، لكنه لم يقوَ على قول أي شيء. جاء الضابط قال: أكره المثقفين، عالم فاضية، ما تمضي يا بني وتخلصنا، ولا عجباك التعليقة اللي أنت فيها دي؟! لا يرد عليه، أم أنه غمغم؟ ماذا تقول؟ يسألني! لا أقوى على قول أي شيء، الدماء تملأ رأسي وتسيل من أنفي وفمي، وأكاد أشعر بها تسيل من عيني، هل سأرى د ثانية؟! ألست تظن نفسك بطلاً؟ ودابر على النت تقول كلاماً كثيراً؟ تركناك! قلنا زي ابننا برضه! أيصل بك الحال كي تقوي الناس علينا؟ تريدهم أن يرفعوا قضايا؟ يقول لي: تستغل أنك تشبه الألمان وتتعامل أنك ألماني، حتى لا يشك فيك أحد! انكشف قناعك.

لماذا فجرت المترو؟ »سبيك يُوْ تِريريست سَانِفْ هُور«.. انطق قبل ألا تجد لساناً تتكلم به، نحن لم نركَ شيئاً بعد، كل هذا من باب المرح، لا نريد أن نريك الوجه الآخر. وسيادتك توكل محامياً من المحامين الذين بلا شغلة ومشغلة ويقولون حقوق إنسان كي يرفع علينا قضايا!و و؟! فلتتْ منك هذه، ألم تجد سوى و؟ و يا راجل؟ ثم ضحك، وقال و أخلص رجالنا، كان معلقاً مثلك يوماً ما، لكنه آثر السلامة. بيفهم! مش زيك حمار!. تطبع مقالاً وتنزل توزعه على الناس في الشوارع؟ أين تظن نفسك في أوروبـا؟! وما الذي يفرقه المرح هنا عن المرح هناك؟ هنا مثل هناك، والمرح هنا مثل المرح هناك، هل كانوا يمرحون معكَ هكذا يا أخي؟ يعلقونك حتى ينتفخ رأسك ويصير لونك أزرق؟ كل دقيقةٍ يدخل عليكَ أحدهم يتحرش بك، يطفئ سيجارته في مؤخرتك؟ شكلك هتتعبنا معاك يا .... أنا ممكن ألبسك قضية تخابر وقلب نظام الحكم دلوقتي بمكالماتك مع صاحبك المتهم في ل بس احنا عاملينها جدعنة لـ و.. فانجز وقصر.. وحياة أمك لأخليك تقول أنا ابن.... وابن.... أليست أمك ...؟ و...؟ ثم يمسكه من شعره ويرفع رأسه لأعلى، ويبتسم في وجهه: إيه رأيك تجرب الجلاشة ولا الغُريّبة؟ ما رأيك يا سيادة الصحفي الهمام هل سأصير أنا (بيدرو) في النهاية؟!

* * *

قيدوني على سرير حديدي، ذراعيّ مربوطتين جواري، وقدمي مكبلتين على امتدادهما. علقوا حلقة خطافية متصلة بسلك في حلمتي اليسرى، والحلقة الأخرى علقوها في كيسه، شعر بها تخترق إحدى بيضتيه، غاب عن العالم من الألم، لماذا أسموها الغُريّبة؟اسمها الحقيقي الشوايّة، ربما اسمها صار (بيدرو)!. الكهرباء تسري، وأنا أنتفض حتى تسامت ذراتي وصرت أرى ملائكةً وشياطين تتعارك داخل المكان، أليس هذا النور ملائكة؟ ولماذا لا يفعلون شيئاً؟ يشير الضابط كي يرفعوا الكهرباء أكثر، آآآآآآه.. آآآه.. آآآه.. آه. رائحة الشواء تلك! لماذا ينحسر نور الملائكة؟ ولماذا يطغى هذا الظلام؟!

* * *

أرقدوه عارياً في وضع السجود، كبلوا ذراعيه في بعضهما خلف ظهره، جاء الضابط وحشر عصا في مؤخرتي، ثم ضحك وقال: إن قضيب ميمون كبير لن تكفيه هذه المؤخرة الضيقة! يدوسون على رأسه، والدموع تنهال من عينيه، وهم يخرجون العصا ويدخلونها، ثم هدأ كل شيء، والضابط قال: الآن أرجو أن تعجبك الجلاشة. خرجوا وأدخلوا عليه قرداً، وأنا راقدٌ في وضع السجود، والقرد محروم من وليفته من زمن، يصرخ، والقرد يناكحه ويطلق صيحات همجية، يصرخ ويتقلب ويقاوم، ينتفض، والقرد يعضه، يناكحه. الشياطين تشاهد،

والملائكة، لماذا لا تفعلون شيئاً؟ لماذا لا تقتلون كل هذه الشياطين؟ لماذا لا تمنعون ضحكاتهم؟ تتكومون في هذا الركن البعيد، والشياطين تناكحني مع القرد. ابتعدوا عني بنوركم المزعوم هذا. والشياطين تتكالب على الملائكة وعليه، الملائكة يرتفعون إلى أعلى، يبتعدون بنورهم حتى يتلاشى، لكنه لا يملك الارتفاع، يشتد ساعد الظلام أكثر، وتزداد الشياطين التي تناكحه، ودمعة أخرى دافئة تسيل من عينيه..

لماذا تُهزمون مرةً أخرى؟ لماذا تُهزمون؟! ولماذا يسود الظلام؟!

حريقُ الحدائق

الآن لم يبقَ لأي شيء أي معنى. واليوم أدرك حقيقة العالم، وهذا الرجل الأنيق ذو البذة السوداء ونظارة الشمس الـ police يقول لي مبتسماً: هذا دليلٌ آخر على كرم الأمير. بالأمس فقط كنت في زنزانتي، ثانياً ركبتيّ وضاممهما إليّ. لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا لا أزال جالساً في هذا الوضع. هل بقيت أياماً هكذا؟ شهوراً؟ ربما منذ ولدت! فجأة انفجر من وسط الظلام نور، فأبعدت عيني عن الباب، ألقوا شخصاً ما، تكوم في الركن الضيق الآخر، كنا شبه متلامسين رغم أن كل واحدٍ فينا أخذ ركناً من الزنزانة الرطبة. بدت رائحته مألوفة، فغمغمت: مرحبا.

سمعته ينادي اسمي مستفهماً جزعاً وملهوفاً. آه! كدت أنسى اسمي!.عرفته من صوته.

– م؟! ما الذي جاء بك إلى هنا؟!

– كيف حالك يا صاحبي؟ ما الذي فعلوه بك؟!

– دعك مني! ما الذي أتى بك إلى هنا؟ هل اعتقلوك أنت أيضاً؟!

صمت.

– م لا تجعل عقلي ينساب في هواجس وتفسيرات. أجب.

– .....

– بعت بكم يا م؟ بنصف مليون دولار شهرياً؟ يا للخسارة!

تنهد وقال: اعذرني يا أخي! نصف مليون دولار شهرياً تخلصني من كل أعباء إخوتي، إن لم أفعلها أنا سيفعلها غيري! أنت لم تكن الأول، غيرك كثير جاؤوا ولما علت أصواتهم ذهبوا إلى قصر الأمير ولم يعودوا! الفرصة لا تأتي سوى مرة. سيمنحوني إقامة جديدة باسم مختلف، وسأبدأ حياة جديدة مختلفة، سيجعلونني أنهي دراسة كلية الهندسة خلال هذه السنوات الخمس التي سأقضيها في السجن.

– والدين الذي يدعو إلى الحب؟ والحب الذي هو الغاية والوسيلة إليه صعبة؟ استسهلت؟! وأين كلامك عن الله الذي يكون معك وتكون معه؟ أين هو الآن؟!

لم يرد فبصقت في وجهه، ثم أعطيته ظهري، بكى: أعرف أنك تراني الآن خائناً، وتراني كافراً، وحتى لا تريد أن تنظر في وجهي، لكن ألم تقل أنت إنك صرت تدين بالحب؟ ألم يعلمك الحب أن تلتمس الأعذار؟ وأن تسامح؟

– ليتكَ غيرتَ دينكَ كاليمنيّ! لكان ذلك أهون عليّ!

فسكت. ثم جاؤوا فتحوا الزنزانة، أخرجوني منها، ذهبوا بي إلى مكتب الضابط، كان هناك غير الضابط: ج، وموظف

السفارة، ورجل يرتدي بذة سمراء ونظارة شمسية أنيقة. جلستُ، وطلب لي الضابط كوباً من الليمون. قال: متفهمٌ أنك الآن ربما تكرهنا، «آي أنْدَرِسْتاند»، لكن يجب أن تعذرنا فنحن نؤدي واجبنا. اليوم أنت ستخرج، قد وجدنا من صنع التفجيرات واعترف ووفر على نفسه وعلينا الكثير. قالها وهو يتبادل النظرات مع الجالسين، ثم قام وصافح الرجل الأنيق باحترام، الذي أشار له أن يغادر المكان. قال الرجل الأنيق: تفضل الليمون. لم أمد يدي ولم أحرك ساكناً. قال: أتعبتَ نفسك أنت كثيراً بلا داعي، الحمد لله أننا وجدنا الإرهابي الحقيقي. ضحكتُ. تجاهل ضحكتي، وأكمل: كان ممكناً أن نتركك هنا، أن نقتلك حتى، ولن يعرف لك أحد طريقاً، لكن الأمير يريد أن يثبت لك كم هو كريم. «وِيْ تُو». سهلنا لك إجراءات الإقامة، وهذه هي الورقة، يمكنك البقاء هنا كيفما تشاء، وهذا شيك صغير إهداء من الأمير ومن حكومتنا اعتذاراً عما حدث، »فورْ شُوُرْ« أنت رجل كبير وعاقل وتعرف أن ما حدث كله سوء تفاهم، وتشابه أسماء، فلا داعي لأي شوشرة لأنها لن تفيد. كل هذا وهو مبتسم. وضع الشيك أمامي، وقال موظف السفارة: جهزنا لك مكتباً فخماً في مكتب الترجمة في السفارة، وأرسلنا إلى الشركة في مصر نخبرها أن سوء تفاهم قد حصل، ولا تقلق

الأجهزة الأمنية كلها متفهمة الموقف، ولن يضايقك أحد!.

يشترون سكوتي ويهددونني. ج صامت، تمطر عيناه حقداً عليّ، فنظرت له وقلت: أخبر الأمير أن كرمه فعلاً كان زائداً عن الحد، ولكني لا أريد هذا الشيك، (وقطّعتُ الشيك) ولا هذا المكتب. وددت لو قلت: قل له أنت يا سيادة الأمير لم تقتلني، الحب هو الذي قتلني. لكني قمت واقفاً، هل قلت: كل ما أريده هو ألا أرى وجوهكم الدنسة؟ أم فقط قلت: أخرجوني من هنا؟

* * *

في شوارع المدينة الأجنبية أسير. تبدو لي الحدائق المليئة بالورود كلها تحترق، ويصير الأخضر أسود، ولم أعد أرى سوى الرماد. الهواء ثقيل محمل بأنات وبكذب وبخيانات، كلما أخذت شهيقاً زفرته بسرعة، كارهاً ملامسة هذا الهواء لأنفي، وباصقاً رائحته النتنة. الناس حولي يسيرون وعلى وجوههم جميعاً الأقنعة نفسها، هذا قناع البراءة ترتديه هذه المراهقة، وهي تضحك مع صديقتها، وبداخلها لابد أنها تستعر بحثاً عن طريقة لتوقع بها حبيب صاحبتها. وهذا الرجل العجوز يرتدي قناع الحكمة، وأكاد أسمع صوت أفكاره الباحثة عن شمة هيروين.

أرمق وجهي في مرايا السيارات المركونة على جانبي الطريق، وفي واجهات المحلات التجارية، أهلاً يا أنا!. كيف

حالك؟ هل لا تزال مؤمناً بأي شيء؟ أم أنك مثلي قد كفرت بكل شيء؟ لا شيء حقيقياً ولا شيء صادقاً في هذه الدنيا. الحقيقة التي يجب أن تعرفها أن العالم كله يرتدي أقنعة. إن خلعتها عنه سترى وجهه الحقيقي الدميم البشع، ستدرك مسوخاً مشوهة، مهشمة، مبددة، حائرة، تائهة، تبحث دوماً وأبداً عن حقيقتها وحقيقة كل العالم، وإن عَرِفَتْها فستدرك أنها مسوخ، ستذبل، ستتلاشى، ستصير حقيقتها المجردة ولن تحتمل!. ارتدِ أقنعتك، ارتدِ الحب، والإيمان، والأمل، والتفاؤل، والخير، فأنت لن تحتمل الحقيقة، احتمِ بابتسامتك الملفقة الزائفة، ولا تنظر في عيون أحد، العيون فاضحة، أعرف أنك تريد أن تذبل، أن تتلاشى، لكن صدقني إن الحقيقة موحشة، وهي شيءٌ لا يُحتمل، حتى التلاشي لن يزيل الألم!.

* * *

عبرت جوار الجامع وكانوا يؤذنون للعشاء داخله. بعد الجامع لمحت هذا النادي الليلي. تجاهلت الأذان. دخلت النادي الليلي. ليس معي نقود، ولا أدري ما الذي سأفعله، لكني دخلت. جلست إلى البار، طلبت خمراً، سألني أي نوع، قلت أي شيء حرام!. لم يفهم فقط ناولني كوباً ثلاثة أرباعه ثلج. صب لي جرعة صغيرة، فتأملتها قليلاً ثم ألقيتها في جوفي. شعرت بوجهي يحتقن، وسمعت ضحكةً أعرفها، التفت خلفي، كان ف

يسير وسط فتاتين حسناوين، يحيط خصريهما بيديه، تذكرت يوم قابلته في تلك المظاهرة، قال لي: إني لن أحتمل الحياة معه، أنا حتى لا أشرب الخمر. شعرت أنه يهرب مني، لكنه قال إنه ليس لديه أي مانع طبعاً، لكني أنا الذي رفضت يومها. واليوم يا ف ها أنا أشرب الخمر. ما رأيك؟ هل سأحتمل الحياة معك؟ قمت إلى حيث يجلس، تأملني لحظة غير مصدق، ثم قام فاحتضنني وشعرت بيدي تربت على ذيل حصان شعره الذي لم يتغير، وتأوهت دون إرادة حين ضرب بيده فوق ظهري، وقد لامس إحدى الكدمات الكثيرة المنتشرة في جسدي.

* * *

صرتُ أحفظ أنواع الخمور، وخبيراً بأنواع الأفلام الإباحية، وفأراً لتجريب كل المقويات الجنسية. هذه هي الوظيفة التي وفرها لي ف. نجم في الأفلام الإباحية. قال لي: للأسف جسمك حلو، وملامحك حادة ومبين سكسي. قال هذا بعد إصرار مني على العمل معه، قال في البداية إنه يعتبرني أخاً له، ويخشى عليّ من هذا الطريق المقرف، يقول إنه يصيبه القرف من نفسه كل ليلة لكنه لم يعد يجد شيئاً يتقنه غير ذلك. وأنا لا أبالي، أقول له خذني إلى المخرج. بعد إصرار أخذني، وكرر المخرج الأمريكي كلماته نفسها، ثم زاد عليها وقال لي: اخلع ملابسك. توترت قليلاً ثم خلعتها كلها.

أفروديت

أذهب أنا وثلاثة أو أربعة، إلى حفل في فيلا أو بيت كبير. يكون الحفل كله فتيات ونساء ولا يوجد رجل واحد غيرنا. في البداية لم يكن ف يأتي معي، وكان ذلك أفضل وقتها. هناك نذهب نخلع ملابسنا كلها، ونظل نسير وسط الحفل عراة، لابد لذكورتنا أن تظل متأججة طوال الحفل، لذا كان هناك ذلك الخليط العجيب من المقويات الجنسية الذي نبتلعه وندهنه. بوطأة العهر ومقتل الخجل اعتدت العمل، وصرت أبحث في عيونهن عن تلكم اللاتي لا يزلن محرجات، فأذهب إليهن أغويهن وأتحسسهن حتى يصرن مثل الأخريات. هذه حقيقتنا جميعاً: عراة، «داعرين»، عاهري الأفكار. موسيقا Techno تصم الآذان، وتثير الحماس، صرت آريس. وأبحث في كل النساء عن أفروديت. أبحث في عيونهن عن أفروديت، عن إيروس، أين أنت يا صغير؟ أين أنت في عالمٍ مثل الذي نعيش فيه؟ لكن معك حق! لا مكان لك هنا في هذا العالم، وإن جئت ماذا سأقول لك؟ هل أقول لك: الحب هو السكن. والسكن هو الغاية. والوسيلة صعبة، تحتاج إلى عزيمة، تحتاج إلى صبر؟ ومن أين لنا بالصبر؟ من أين لنا والحياة قلعةٌ زجاجية، كلما نظرنا إليها لم نرَ سوى أشباح أنفسنا؟ لم نرَ سوى عيوننا تتطلع إلينا؟

والشقوق داخلنا تطل علينا؟ وكأن الحب سهل! كأن الحب سهل في عالم يقتل بعضه بعضاً كل يوم. وكأن الحب ممكن في عالم مليء بالكره والسم والحرائق والخناجر، ممكن في عالم يصبح فيه الإنسان حياً ثم يمسي ميتاً، لأجل لا شيء، لأجل كل شيء. أو ربما الحب جائز في دنيا تلهث وراء الذهب، دنيا تقتل لأجل الذهب، وتزني لأجل الذهب؟! ربما الحب كامن في تلك الأجساد الشبقة، أم أن شبق الأجساد انعكاس لشبق الأرواح، وبحثها عن الحب المستحيل في هذا العالم؟ لا أريدك أن تكبر فتصير آريس آخر، إلهاً للحرب والدمار، تعشق أخرى غير أفروديت×، فتنجبان آريس آخر!.

أمر على صفٍ من النساء، ألهث باحثاً عن شيءٍ لا أدري كنهه، وجسدي لم يعد يرتوي من كل ذلك، أو عل ارتواءه لم يعد يحمل أي معنى ولا أي طعم، وداخلي شيءٌ ما لست أدريه لكني أبحث عنه وأنتظره. ثم هذه الشقراء أجذبها من شعرها نحوي. ظللت واقفاً أمام عينيها، وخجلي من عريي بُعث من مرقده فجأة، من ذلك القبر البعيد داخلي، لكني سرعان ما قتلته ثانية، وف يجيء فيقول لي ضاحكاً: صاحبتك هون، لكني أتجاهله، وكأني بهذا غيرت شيئاً من الحقيقة التي ظلت

×: في الميثيولوجيا الإغريقية، آريس هو إله الحرب والدمار، وأفروديت هي إلهة العشق والجمال، تزوج آريس من أفروديت فأنجبا إيروس إله الحب. وكان آريس كلما تزوج من واحدة ينجب قاتلاً، حتى تزوج منها.

تخمش خلايا عقلي: ما الذي يفرقك الآن عنها يا سيد أنا؟ ما الذي يفرقك الآن؟!

* * *

وجد المخرج سيناريو يناسبني: فتاة منتقبة تصلي، لكنها ممحونة، أثناء الصلاة تأتيها هواجس جنسية وخيالات، أدخل أنا إليها وحين تسلم تجد وجهها في عانتي.....

هذا السيناريو، يرى أنه لا يسيء لشيء، هو فقط تمثيل في تمثيل، كم من أفلام إباحية صنعوا لقساوسة يواقعون المعترفات؟ كثير جداً. ثم إنه لا يحق لي الرفض. العقد الذي وقعته واضح، ادفع ثم غادر. لا شيء اسمه استقالة. صار هناك فريق دائم يحرص على طعامي، ويحرص على ساعات نومي، وتكلمت عني إحدى المجلات بعد هذا الفيلم، والمخرج وف سعيدان، يقولان إن هذا يبشر بمستقبل جيد لي. أعطوني مبلغاً لا بأس به، لكنه يقل كثيراً عن الشرط الجزائي، لم أجد سبيلاً لإنفاقه، يوفرون لي السيارة والشقة وكل شيء. غيروا لي تصفيفة شعري ولحيتي، وذهبت إلى نادٍ صحي، أمارس التمارين بانتظام كي يصير جسدي منحوتاً. اقترح المخرج أن أحلق شعر صدري، لكن لما رأى ف الرفض قاطعاً في عيني أقنعه أن ذلك جديد، وأن الأوروبيات لم يجربن هذا من قبل! ضحك وقال ليس لهذه الدرجة، فكرر ف: قصدي ما جربوه

في الأفلام. وصرت أُطلب كفتاة ليل. يتصلن بالشركة يطلبن الشاب العربي الوسيم الذي يشبه الجرمان. وتلك الليلة كانت هي العميلة التي اتصلت. لا أزال أذكر العنوان، وأذكر الشارع الذي همت فيه غير واعٍ حاملاً حقيبتي، والسلم الذي هرولت فوقه هارباً من شقتها. رننتُ الجرس. فتحتْ. دخلتُ جلستُ. ابتسمتْ: ألابد أن أدفع كل هذا المبلغ كي أراك؟!

وكانت ليلة مليئة بالنسيم. صنعتْ لنا طعاماً بيديها، وأوقدتْ شمعتين. أكلنا، وكان حديثنا قليل، كله عن الموضة، وعن ممثلين سينمائيين وإباحيين تعرفهم وأعرفهم، كأننا كنا معاً بالأمس! ثم قامتْ فخلعتني قميصي، واندمجت معها في عالمها البعيد، وارتوى جسدي ارتواءً لم أعهده من قبل، نذوب معاً في عوالم خاصة، فنشتعل أكثر، ونلتهم بعضنا بعضاً، حتى صار جسدانا واحداً، وصار التحامنا أبدياً، وزدنا فوق الساعة، مائة ساعة، ولم يكن للزمن معنى، لم يكن هناك سوى النشوة وسوى بريق العينين والآهات المدوية، نلهث ونعرق، ثم نهدأ، نقوم إلى الحمام نغتسل فنبدأ مرةً أخرى، كأن كلانا يبحث عن شيءٍ ما داخل الآخر بلهفةٍ محمومة، وكأنه يخشى أن يفلت الآخر منه، ثم انتهينا على وعدٍ بلقاءٍ جديد.

صرت معتاداً على الذهاب، تقودني قدماي إلى بيتها،

تضحك وتقول: أجمل ما في الموضوع أني لم أعد أدفع. فأضحك. أكون معها على طبيعتي، لا أتناول أية مقويات، وكان هذا طلبها، وشعرت معه براحة. ألوذ بها، أحتمي داخلها، وأبعث فيها رجولتي القديمة، والسيناريوهات تتزايد، وصرت أخشى أن أرى وجهي في أية مرآة، وكلما فكرت في ط أو أمي أو ع اندمجت أكثر في ذلك العهر، وكأني ارتضيت حقيقة ذاتي، وتقبلت المستنقع الذي يجرفني ويغرق رأسي رويداً رويداً. يقول لي ف: ما بتعجبني رُوحاتك الزائدة على خ، هاد خطر، حاول ماتحب العملاء! خ عميلة رضيت أو ما رضيت. كنت أدفع أنا لهم وأقول إنها طلبتني كي يفرغوني من العمل، وهي تعرف ولا تعترض. رأيت في عينيها فرحاً.

في ليلةٍ تالية قادتني قدماي إلى البيت وحدها، دون إرادة، فتحتْ وبدت مضطربة، ألقتْ نفسها في حضني وقالت: لماذا تأخرت؟! قبلتني. وحملت قبلتها هذه المرة طعماً مختلفاً. ترتدي ملابس الخروج. جميلة. تعلقتْ بذراعي، تشبثتْ بها، كأنما تخشى أن أذهب عنها ولا أعود. ونزلنا، صحبتها إلى مطعم، تناولنا العشاء، ثم ذهبنا إلى السينما فشاهدنا فيلماً كوميدياً لجيم كاري، عدنا إلى البيت، أول ما أغلقت الباب، احتضنتها بشدة، طعم قبلاتنا كان مختلفاً، وكنت أدرك أن

شيئاً ما يكبر وينضج بيننا، لم يعد الأمر أجساداً ترتوي، ولا نشوة نصل إليها ثم نلهث، تلك الليلة أخرجت هي كل فنونها، وأظهرت أنا كل براعتي، وتزاوجت الطيور، وكنت آدم وكانت حواء، والجنة كانت سريرها الصغير، وذبنا وتلاشينا ثم ولدنا ثم تسامينا ثم بعثنا ثم ارتقينا إلى السماء، وارتدينا أجنحة من فضة، وتيجان من ذهب، وحلقنا سوياً بعيداً، وقلت لها: أفروديت! ووضعتْ إصبعها على فمي، قالت: هش!. وقبلتني في عينيّ وأنفي وأطعمتني عنباً ورماناً وتيناً، ولم أكن أنا هو أنا، ولم يكن العالم هو العالم.

* * *

لكني لم يعد لدي ما أمنحه غير هذا الجسد. حتى هذا الجسد نفسه صار مرهقاً، يبحث عن الراحة من كل هذا ويتمنى لو يجد ما يشبعه. لن أقدر على منحكِ الحب الذي أراه في عينيكِ، ولن أقدر أن أمنحك الطعم نفسه في قبلاتي كما هو في قبلاتك، لم أعد أؤمن بالحب يا سيدتي، ولم يعد الحب ديني، كفرت به، فكيف تريدين مني أن أعطيك ما لم يعد عندي؟ سآتيك ثم نذوب في العشق، وستحب أجسادنا، لكني لن أرد على روحك الملهوفة بروحي، ولا أريد أن أعذبك معي، دعيني وحدي في عذاباتي، واذهبي للبحث عن إيروس في روحٍ غيري. أنا بلا معنى وبلا وجود، أنا لن أنجب لك سوى آريس آخر. سآتيك كما اعتدنا،

وسأنام جوارك، ستسألين: ما بك؟ فأقول: لا شيء، بعض التعب. ثم أكون بارداً بالروح والجسد كي أبعدك عني. لكنكِ تأتين فتبكين وتقولين لي: ما الذي قاله لك الحقير ف عني؟ فأندهش وأسألك: لا أفهم! تقولين إنه، هذا المخنث الضعيف جنسياً، يأتي فيحذرك من القرب مني! يقول لكِ ابتعدي عنه، ويهددك بفيديوهات وصور صوروها لكِ معي، سيقول إنك صرتِ ممثلة إباحية أنتِ الأخرى! شتمتيه وقلت له: اذهب إلى الجحيم لعنتك أمك، لا يفرق معكِ تهديده في شيء، لكن يفرق معكِ برودي هذا، ما الذي قاله لي هذا الوغد عنكِ؟! ثم تسقطين على السرير وقد هدكِ التعب تقولين: هذا المريض، كنا على علاقة فيما مضى، ولكنه مخنث، يضربني كلما لم يتمكن مني، يثبت رجولته بضربي! ضربته أنا أيضاً! فرقعت زجاجة روم فوق رأسه، ومن يومها تركته وتركني، يدور على الناس يقول إنه مل مني وتركني لأني باردة، يدعي أني أطارده وهو الذي يتمنع! ما الذي قاله لك عني؟! وأرد: لم يقل أي شيء، هذه أول مرة أسمع منكِ هذا الكلام. يزداد بكاؤك وتحتضنيني، تتشبثين بقميصي، ودموعك تغرق صدري، أربت على رأسك، ثم أقبلها، وأبعدك عني ببطء وأنا أقول ناظراً إلى اللاشيء: لا أستطيع، لم يعد لديّ شيء!.

* * *

قابلت ف، سألته عن كل شيء بوضوح، قال: وشو مفكِر؟ بدك إياني أسيبك تدوب معها؟ بعدها تجي تحكيلي قرفت من حالي؟ وبدي أخلص من كل هاد؟! طيب! خلاص بكيفك! لكن لازم تعرف إنو إنت لا الأول ولا رح تكون الأخير، من وين مفكر إني عايش؟! بتعرف كم عربي بيجوعلى أوروبا؟ بتعرف كم عدد اللي أقنعهم بالشغل اللي أقنعتك فيه؟ وبنت الساقطه هديك بتحكي عني إني ضعيف جنسياً؟ الإسرائيلية الكلبة! كنت بضرُبها كل ما بتذكر كفوف أبوي على وجه أمي، وكل ما اتذكرت قبر عمي الخادم الختيار! عمي الوحيد اللي حبني في هاي الدنيا، ودفنه أبوي هيك بدون لا اسم ولا هوية في قبر بعيد، ما بكي عليه حتى! بنام فوقها وقتها بحس لذة النصر، هيني أنا يا يهود بنام مع بنتكم! هيني أنا فلسطيني ابن فلسطيني بنام مع بنتكم.

ولماذا صدقت خ ولم أصدقك بالكامل يا ف؟ لماذا أيقنت في داخلي أنك حقاً ضعيف؟ ولماذا بدا لي كل هذا الذي فعلته معها نقصاً لا علاقة له بأي شيء؟ كفاكَ حديثاً عن الوطن، وكفاكَ كذباً..

– والكلبة تجي لعندي وتقولي: سيبه إلي، تطلب مني إني أبعدك عن كل هاد، بعد كل هالنجاح؟! قلتلها ادفعي بعد هيك

هو إلِك، بس أقسملك إني كنت بحكيلها هيك عشان أعجزها وكنت راح أحكي معك في الموضوع، مش معقول إنك تحب إسرائيلية!

لم أتمالك نفسي فأطلقت قبضتي في وجهه، ثم غادرت المكان.

موت

«ما هذا الذي رأيته؟ أهذا هو الدين الذي ذهبت إلى أوروبا كي تدعو إليه؟ أنا مصدوم ولا أجد كلاماً كثيراً أقوله، خانتني حروفي. ولا أعرف إن كنت ستقرأ إيميلي هذا أصلاً أم أنه سيضيع وسط إيميلات المعجبات لكني لن أندهش!.»

* * *

«لا تخف، لم يضع. لكن قبل أن يأخذك الشرف هكذا وتخونك حروفك، لم تقل لي هل رأيت الفيديو يا كاتب يا مثقف يا محترم يا من تريد تغيير العالم في ناد للفيديو مع أصدقائك؟ أم على أحد المواقع الإباحية؟ أم تراه وصلك بالبلوتوث؟! وهل يا ترى أعجبك ما رأيت؟ أم أنك كنت تريد شيئاً مثيراً أكثر؟!»

* * *

«لم ترد! لا فرق بيني وبينك. لا أحد فينا شريف. ثم أي دين الذي تريدني أن أدعو إليه؟ أنا لم أعد أدين بأي شيء. ولم أعد أعرف شيئاً ولا أفهم شيئاً.»

* * *

«حبيبي / ....

لم تحدثني أبداً عن حياتك، ولا عما حدث معك بعدما تركتني. ولم أحدثك أنا عن حياتي، وكنت أقول لنفسي هذا أفضل، أن نبدأ معاً من حيث التقينا، لا يهمنا ما حدث قبل ذلك، فقط نصير سوياً ونرسم خطوط حياتنا معاً.

لكنك سألتني ذات يوم عما أبحث عنه وليس حقيقياً! وما أبحث عنه صار حقيقياً معك، وشعرت به ينمو داخلي. لم أحكِ لك عن مارك. كان يحبني وكنت أحبه، لكنه لم يمنحني سوى الألم. وجورج كان يطفئ عنصريته بي، يقول هذه البيضاء الجميلة الجاهلة! لكني لم أكن جاهلة، أنا فقط لم أكن أعرف! يسخر مني ويقول إن ما أبحث عنه ليس حقيقياً! وأنا لم أبحث في حياتي سوى عن الحب، الحب ليس حقيقياً؟ أن يكون كل الناس متحابين، وأن أنجب طفلاً أعلمه كيف يحب وكيف يصير مسيحاً جديداً؟! مندهش؟ أنت لم تسألني عن ديني! أنا لا أدين بأي شيء. لست يهودية كما تعتقد. لكني أيضاً لست مسيحية. أنا أؤمن بالحب. أو هكذا كنت أؤمن. حين كان لديّ أشياء أود لو ألقنها لطفلي الذي سيأتي. أتعرف أن أبي ليس إسرائيلياً؟ ليس يهودياً حتى؟ أمي هي التي إسرائيلية، أمام الناس تدين باليهودية، لكنها في الواقع لم تكن تعرف عن اليهودية أي شيء. خالي بينيامين متعصب جداً، ورفض زواج

أمي من أبي الكاثوليكي المتدين، قال كيف تدنسين ساميتنا؟! وحاربت أمي عائلتها كلها، وطاردونا في بلادنا، وكنت أنا لا أزال طفلة حين انتقلنا إلى هنا هرباً منهم. تحكي أمي عن شدة حبها لي، لأني كنت الزهرة التي مهما حاولوا أن يقتلوا حبها لأبي وحبه لها ستظل حية لتجمعهما، ولن يتمكنوا من التفريق بينهما أبداً. حين رآني جدي حسم كل شيء، قال هذه الجميلة يستحيل أن تكون نتيجة شيءٍ قبيح! هاجر خالي إلى أمريكا، وبقينا نحن هنا، أعود أنا وأمي في الصيف إلى بيت جدي، يطلب منها جدي أن نبقى، وأن نستقر معه، لكن أمي تتعلل بعمل أبي الذي استقر في المدينة الجديدة. أحب أمي، وكنت صديقتها الوحيدة، تشكو لي همومها، تقول إن أبي لم يعد كما كان، صار بارداً وهي مشتاقة إليه، سنة كاملة لم يلمسها! ولم أكن أعلق لكني كنت أسمع خلافات أبي وأمي طوال الليل، ثم بالنهار يضحكان ويبديان سعادة مزيفة.

متى بدأ كل شيء؟ ربما منذ هجرنا أبي، وذهب إلى الكنيسة وأعلن رهبنته، قال لي إنه ذاهب ليبحث عن إجابات أسئلةٍ كثيرة، وإنه في رحلته هذه لا يعرف إن كان سيجد الإجابة أصلاً. قال لي اسألي قلبك كلما وقعت في حيرة، لكن لما سألت قلبي عن أبي لم يجب!. سألت قلبي عن ذلك الدين الذي يجعل

تابعه يعتزل العالم في صومعة، ولا تجد ابنته الصغيرة من يمسح لها دموعها! وسألت قلبي عن الأديان التي تجعلنا نكره الحياة، ولا نفكر سوى في الموت والموات والقبور. سألت قلبي ولم يجب.

متى بدأ كل شيء؟ لا أعرف تحديداً ربما وأنا في الثامنة عشرة، أمي تدخل عليّ الحمام وأنا أستحم فأغلق الباب بسرعة، لكنها تضحك وتصر على «تحميتي» بنفسها، مرةً أستيقظ من النوم فأجدها جواري تتأمل جسدي، ثم لما حاولت معي وأخذت تقبل عنقي وتتحسس بيدها جسدها وجسدي، هربت من البيت. مرضت أمي وماتت بعدها، وحزنت عليها كثيراً، لكن هاجساً ظل مسيطراً عليّ: هل لم أعد أرغب في الرجال؟ كنت كلما رأيت امرأة تذكرت أمي وتلك الرغبة التي انتابتني من لمساتها، وبحثت عن الرجال في كل مكان. كان سميث أولهم، قبل مارك، كنا لا نزال صغيرين في العشرين من عمرنا، وكان ذلك ممتعاً، لكن الهاجس وأمي ظلاً يطرقان رأسي، فتركت سميث وبحثت عن غيره كي يقتل داخلي هذا كله. وقابلت مارك، ثم جورج ثم ف، وقررت ألا أحب طالباً بعد ذلك. الآن أدركت أني بحثت فيهم عن الحب وليس عن الجنس. أستشعر شبقاً جسدياً لكني كلما رويت جسدي كلما زاد شبقي، كأنما شبقي هذا ليس من

جسدي. معك أدركت أن شبقي من روحي. أتذكر تلك الأيام التي كنت آتي فيها بالرجال إلى البيت؟ كان ذلك مهيناً لرجولتك، أعرف، آسفة، أنا سيئة! لكن صدقني كنت أحاول أن أبتعد عنك بهم، أن أشبع تلك النار المستعرة داخلي، وذلك الجسد الذي لا يشبع أبداً! قلت لنفسي إنك بالتأكيد واحد منهم!! جورج آخر، يقول لي إن ما تحلمين به ليس حقيقياً ولن يكون!! وكل أحلام اليقظة التي انتابتني معك هي أوهام كغيرها! فيلم كبير، كذبة كبيرة! لماذا لم تصفعني كي أفيق؟! يا ليتك صفعتني!. حين واقعتني دون إرادتي، جعلتني أدرك أني لم أكن أبحث إلا عما يشبع روحي وليس جسدي، جعلتني أدرك أني حيوانة، لا أنكر أني لم أتوقف، ليس بالكثافة نفسها لكني على الأقل كنت لا أصد أحداً يرغبني، وكنت أرى في رغبته إثباتاً جديداً لأنوثتي وطبيعيتي، ورادعاً لكل هواجسي.

لم أصدق حين رأيتك ثانية، ورغم أني لم أكن قد سامحتك تماماً إلا أني قلت لن أضيع الفرصة مرةً أخرى. ومنحنتني حقاً ما لم يمنحني إياه أحد. شعرت به ينمو داخلي خلال الشهور التي قضيناها معاً سابحين في السحب، يرتجف قلبي وأنا غير مصدقة وأنكر لنفسي وأخشى من القول لك. ثم اليوم الذي أقرر أن أقول لكَ فيه، أذهب إلى الحقير ف، فأخبره أني

أريدك، وأني لا أريدك أن تموت مثل إبراهام، أتعرف كيف مات إبراهام؟ كان نجماً إباحياً مثلك! مات وهم يجربون عليه مقوياً جنسياً جديداً، أدى لتوقف قلبه! لم يكونوا يحسبونه إنساناً كان خنزيراً في نظرهم وفي نظر نفسه، وكنت أهون عليه، وعملت كل شيء كي أجمع له المبلغ الذي في العقد كي ينتهي منهم ويصير لي، لكن الموت كان أسرع مني ومنهم. ولما رحت لـ ف، كنت أحسبه صديقك، لكن هذا اللعين يتكسب من ورائك، يقول لي ادفعي ويصير هو ملكك. كأني أشتري كلباً من قفص. حبيبي أرجوك ابتعد عن كل هؤلاء! حاول أن تسدد لهم المبلغ أو اهرب! عد إلى بلدك، لماذا تبقى هنا؟

أنت منحتني ما لم يمنحني إياه أحد، ثم تأتي فتقول لي لا أستطيع لم يعد لديّ شيء! أنا أيضاً لم يعد لديّ شيء! لم يعد عندي شيء ألقنه لهذا الذي يتكور في بطني منك! هذا الصغير الذي يشبهني وأنا صغيرة! هذا الزهرة الذي مهما حاولنا أن ننسى بعضنا سيصير بيننا ليذكرنا! ماذا سأقول له حين يكبر؟ هل أعلمه أن يكره؟! هل أتركه للدنيا تعذبه كما عذبتني؟ هو لم يتشكل بعد ولا أعرف إن كان ذكراً أم أنثى، لكنه حتماً لن يجيء! هذا الطفل الذي حلمت به عمري كله، جاء في الوقت الذي لم يعد لديّ ما أقوله له فيه. لماذا جاء الآن؟ ولماذا صرت

أنت بهذا البرود؟! هل حقاً لم يعد لديك شيء؟ أم أن كل القلوب غلظت وقست وماتت، ولم يعد هناك غيري؟ هل كان جورج على حق؟ هل الحب الذي أبحث عنه ليس حقيقياً؟ ولماذا يخفق قلبي باسمك؟ لماذا أحب إذاً؟! لماذا نحب؟! لماذا نحب رغم أن الحب لا يزيدنا إلا تعاسة؟ لماذا يتلذذ الحب بتعذيبنا، (أم نتلذذ بتعذيب أنفسنا؟) يرهقنا بأحلامٍ وورود، ثم يبقينا في النهاية، أسوأ حالاً. تعساء، مليئين بالأسى. وأنتَ هناك، بعيد، مصدر سعادتي، وتعاستي.

أنا لن أسمح لذلك الصغير الذي يكبر داخلي أن يتعذب كل هذا العذاب، أنا أيضاً سئمت كل هذا، سئمت الناس وسئمت محاولاتي كي أوقظهم من سباتهم، أخبرهم أن الدنيا جميلة وأن الحب عسل نهرها، تعبت. ولن أقدر على منع التعب ولا العذاب من على صغيري هذا، لن أجني عليه وآتي به إلى دنيانا هذه كما جنت عليّ أمي، لا أريده أن يصير مثل مارك أو جورج أو خالي أو ف أو حتى مثلك! ولا أريده مسيحاً جديداً، لا أريد له أن يُصلب ولا أن يُعذب، هذه الدنيا لا تستحق وهؤلاء الناس لا يستحقون.

خ »

* * *

هل هذا الصغير الذي تقولين إنه لن يجيء ابني؟! وما معنى ذلك؟ هل ستجهضين نفسك يا خ؟ كنت أعدو في الشارع وكاد ف أن يصدمني بالسيارة، سألني: لَوين؟ وأخذني إلى بيت خ. لمحتُ خصلاتها الصفراء وهم ينقلون جثتها لسيارة الإسعاف، ورجال الشرطة يحيطون المكان بسياجٍ من أشرطةٍ صفراء كأنهم اقتطعوها من شعرها الذهبي!. تجمهر عدد قليل من الناس، ثم هزوا رؤوسهم ورحلوا مع رحيل الإسعاف، وظلت »السرينة« تصرخ في أذني، كأن الزمن قد توقف، والناس يصرون على اللعبة السخيفة نفسها التي لعبوها معي يوم لقيتها في تلك الفيلا. يثبتون ويصمتون كتماثيل شمع. أرحلتِ الإسعافُ؟ أخذت أقول لنفسي، وأنا أندفع فوق سلالم بيتها: لماذا تأخر هذا الخطاب؟ هل أرسلته هي متأخرة كي تمنعني من إنقاذها وإنقاذ ابني؟ أم لـ ف دخل في تأخيره؟ ولما وصلتُ شقتها، وجدتهم يحيطون بالنافذة ويلقون نظرة على السيوليت الأبيض المرسوم على الأسفلت، يرفعون البصمات، من حافة النافذة، ويسألون أحد الجيران الذي شاهدها تلقي بنفسها من هناك. تقتلين نفسك يا أفروديت؟ من أعطاكِ الحق في قتل إيروس، ابني، ابننا؟! من سمح لكِ؟

لم أخبر ف بأمر هذا الطفل، ولم أصدق، كان لي طفل ثم مات؟! بهذه البساطة؟! بقيت مع ف في شقته لم أستطع البقاء

وحيداً. كنت أبكي وكنت مصدوماً. ف فتح التلفزيون عله يسليني، يقلب فيه، وتركه ثم قام ليعد لنا الغداء، كانت هناك محاكمة، وكان هناك قاض. هذا م! يقولون إن انفجار محطة المترو أدى لقتل مائة وثلاثة وعشرين بريئاً وجرح المئات! الحكم قاس ليردع غيره من الإرهابيين، ليس مخففاً وليس خمس سنوات، حُكم عليه بالإعدام على الكرسي الكهربائي رغم أن هذه البلد توقفت فيها عقوبة الإعدام من زمن، تطبيقاً لحقوق الإنسان!.

* * *

لم أشعر بنفسي إلا وأنا في سيارة ف، أقودها إلى فندق الأمير، حاملاً مقشة أخذتها من شقة ف. إن كنت لم تفعل ذلك يا سيادة الصحفي الهمام لأجل (بيرجيت) فسأفعله أنا لأجل خ، ولأجل م. سأفعله حتى لو لم يكن اسم الأمير: (حامد). أول ما وصلت، حطمت زجاج البوابة الإلكترونية، وضربت الحارس فوق رأسه وأخذت مسدسه وشهرته في وجوه الجميع، صرخوا، وانحنوا على الأرض، وصرخت أنا فيهم: يا قتلة يا أولاد الكلب. ثم طحت بعصاتي أحطم كل ما تطاله يدي، الكراسي، البار، زجاج المكاتب، تليفون اللوبي، ورجال الأمن يحاولون الالتفاف حولي، فأشهر المسدس في وجوههم، فيظلون في أماكنهم. واقف أرمق كاميرات المراقبة، أنادي على الأمير،

لم أكن أعرف طريق القصر، وهذه هي الوسيلة الوحيدة للانتقام، أخذت أصرخ سأقتلك يا بدوي يا حقير، يا قاتل. وجاءت السيارات السوداء، ونزلوا منها. ج قائدهم. أمسكوا بي وبسلاحي، ثم انهالوا فوقي ضرباً، ثم أوقفوني كي أواجه ج الذي قال: هذه المرة الأخيرة التي سيكون فيها سمو الأمير كريماً معك. غمغمت والدم يسيل من جبهتي ويزيغ الرؤية: أختك.. تبحث.. عنك! لمحت في عينيه استفهاماً وفرقعت تلك العصا فوق رأسي لا أعرف من أين، وغشى عينيَّ دم.

بعث

أسير في طريق طويل، وعلى جانبيّ نارٌ وبحر. أسير غير عابئ بتلك اللفحات ولا ذلك الرذاذ. ثم يأتي أبي ضاحكاً يقول وأنا أيضاً أحبك. وأمي تحتضن ع والأخيرة تخفي وجهها في صدر الأولى وتبكي. ود واقفة من بعيد تلوح بيدها وتبتسم لكنها تتلاشى ولا ألمح ملامحها جيداً، وح واقفة حولها أطفال وبجانبها رجل له كرش كبير، أهذا ما ارتضيته لنفسك يا ح؟ بعد كل شروطك؟ وهل قبل بها زوجك هذا؟ أم أنكِ قررتِ العيش مثلي في رواية؟ روايتك المفضلة، روايتك الحقيقية؟! فتعذبين نفسكِ بيديك؟! وخ تأتي تحمل طفلنا، أقترب منها، تبتسم وتناولني الطفل، أمسكه فأجده خنزيراً صغيراً يقبع، ألقيه من يدي فزعاً، لكني أكتشف أني أيضاً أصدر قباعاً من أنفي وفمي، أنظر لقدمي فأجدني أقف على أربع، وأنتبه للذيل الذي يخرج من مؤخرتي، أهرول فوق أقدامي الأربعة، وكلهم يبتعدون عني، أين ط؟ لماذا ليس هنا؟ كان سيساعدني، سيجد حلاً لهذا الذيل وهذه الأقدام. ثم احتشدوا وجاء ج وجاء الأمير، ج يقف صامتاً ينظر نظرته المستعلية المميتة، وسألته هل أنت ج حقاً؟ والأمير يمسك سكيناً ويذبح م، وم مستلقٍ متقرفصاً

في ذاته، ساكناً بين يديه ينظر نحوي نظرة الخروف صباح العيد، متقبلاً مصيره والأمير يذبح ويضحك وكلهم يضحكون، ومستر معتز والثلاجة والكل يضحك، يضحك، يضحك...

أفقتُ!.

ف جالسٌ جواري يضحك، يشاهد فيلماً كارتونياً ويضحك. انتبه لي: الحمد لله على سلامتك. خوفتنا عليك يا زلمة. عرفت منه أنه خرج من المطبخ يسألني عن شيء ما، رأى التلفزيون، لم يفهم القدر الكافي لكنه لم يجدني، نظر من النافذة رآني أقود سيارته كالمجنون، هرول خلفي وجدهم قد ألقوني خارج الفندق والدماء تسيل من كل سنتيمتر في جسدي. نقلني إلى هذه المستشفى. يقول إني رحت في غيبوبة أسبوعاً، لحسن الحظ أن الإصابات لم تكن عسيرة الإصلاح، كسر في المرفق، وخلع في الكتف، وتحطم الأنف، ونزيف في البطن، وارتجاج في المخ.

قلت له مبتسماً: الحمد لله سهلة الإصلاح على الآخر!

ضحك. ارتجاج في المخ! هذا ما كنت أحتاجه فعلاً، أن يرجني أحد كي أفيق مما كنت فيه، من ذلك العهر ومن الحيوانية التي تحولت إليها، مات لي ابن لكن هناك آخر! لماذا أتركه أنا كي يموت؟! أنسيت أن ع حامل؟ أتراها أنجبت؟

قلت لـ ف: أنا لم أعد...

قاطعني: قوملْنا أنت بالسلامه وما تفكر في شِي، كل شِي محلول بإذن الله.

* * *

في المطار هاتفت ط، قلت له أنا قادم يا صديقي، قال: تنور مصر يا صاحبي. لحسن حظك أني خرجت. لم تكن ستجد من يستقبلك في المطار. سألته: خرجت من أين؟ ما الموضوع؟ رد: أنسيت حين كنت تهاتفني؟ أنا لتوي قد خرجت من المعتقل! قلت: معتقل؟ أنا لم أكن أعرف؟ ضحك وقال: ولا أنا والله! ثم تمنى لي العودة سالماً وقال إنه سينتظرني في المطار.

احتضنت ف بيدي اليمنى، واليسرى معلقة برباط في رقبتي، بالأمس جاء بالعقد، وقرأت إمضاء مدير شركة الإنتاج الأمريكية، كان مكتوباً: خالص الدفع، وموثقاً! لم يتح لي فرصة أن أقول أي شيء، قال هو: قلتلك إني بعتبرك أخوي! سامحني يا أخوي!. احتضنته كما أحتضنه الآن، يقول لي: روح وسلملي على الوطن. ألن تأتي لتزورني؟ سألته. قال ضاحكاً: عندكم من هالوراق الخضرا اللي تخليني قوي؟ ضحكتُ: أوراقنا حمراء! قال: إذا هيك يفتح الله ما تناسبوني وطن! ثم ربت على كتفي وقال: ما تقلق متل ما اتفقنا كل الأفلام اللي صوروها

إلك رح أحرقها، أومأت برأسي، وشكرته مرةً أخرى على تذكرة الطيارة وعلى تعبه في اتخاذ كل الإجراءات، قال لي مبتسماً: أشكر موظفي السَفارة، كان بدهم يُخلصوا منك! بحياتي ما شفت إجراءات تخلص بهالسرعة. قلت: ألست إرهابياً؟ يخافون مني! وصنعتُ تعبيراً مخيفاً كوميدياً بوجهي، لكنا لم نضحك!.

طريقٌ طويل

بدا ط عجوزاً جداً ونحيفاً جداً، وشعرت بعظامه وهي تختلط بعظامي، نظرنا لبعضنا بعضاً، قال وهو ينظر ليدي المعلقة على رقبتي: لا أطيق صبراً أن تقص عليّ كل ما حدث من طقطق للسلام عليكم! ضحكت وقلت: الصبر يا أخي أنت ما زلت فرناً كما أنت! ضحك وقال: مليش دعوة.

ذهبنا إلى كافيتريا في المطار، وجلسنا أقص عليه كل ما حدث معي في تلك السنة التي قضيتها في أوروبا، عدا عملي في الأفلام الإباحية، ولم يتطرق هو إلى هذا الموضوع. استمع لي بإنصات، وابتسم لما عرف أني دخلت المعتقل في توقيت دخوله، وأن ما تعرضت له هو ما تعرض له، عندما حكيت له قصتي مع خ بكثير من الكذب ضحك وقال: إذاً ذهبت إلى أوروبا وعدت وقد صارت لك عشيقة كما في الروايات! ألم أحذرك؟! لم أضحك، ودمعت عيني وأنا أحكي له عن ولدي الذي مات. دمعت عينه هو الآخر ولم ينبس، ثم عقد حاجبيه وهو يستمع لموضوع الأمير وم وقضية مترو الأنفاق، قلت: لكني حتى الآن يا ط لا أعرف لماذا اختارني أنا دوناً عن بقيتهم؟ رغم أنهم كما قلت لك كانوا سيكونون رجالاً مخلصين وسيوافقون دون شوشرة ودون جلبة!.

– أنت قلت! هم رجالٌ مخلصون! ينشرون الفكر الذي يريد هو وأمثاله أن ينشروه، أما أنت فكنت تثير نقاشات مستفزة، تضايقه كما قال صديقك رحمه الله، ومن الواضح أنه أدرك أنك عنيد ودماغك ناشفة ولن تتحول مثلهم بهذه البساطة! أراد أن يدمرك!

– ولماذا لم يفعل ذلك مع م من البداية؟!

– لأن م كان سلبياً! لم يحاول تغيير الواقع! كان يتركهم لأفكارهم ويعيش في عالمه الخاص، ربما عالمه الخاص الداعي للحب والسلام والسكينة، الخالي كما نرى نحن ونؤمن من التوسل وكل هذه الترهات هو الذي يجب أن يسود لكنه لا يحاول! يعزل نفسه عن العالم الحقيقي بإرادته ويستكين لوهم!

– ربما!. وأنت لماذا أخذوك إلى المعتقل؟

– ستندهش! بعدما ذهبت إلى أخيك و، عرضت عليه أن يرفع القضية، لكنه لم يرد عليّ وطردني من البيت، وحذر أمك من مقابلتي أو محادثتي. أصابني هذا بإحباط كبير، بخاصة أن القراء الثلاثة الذين قلت لك عنهم صاروا اثنين ثم لم يبق منهم أحد. وعداد القراء في أسفل الصفحة، يظهر الصفر مخرجاً لي لسانه كأنما يغيظني. طبعت المقالات وأخذت أوزعها في

الشوارع، أمسكوا بي، من بلغ عني؟ وا تخيل! أخوك من أقوى رجالهم. تعرف لقد كنت في المعتقل مع شباب كثير من الجماعات الإسلامية، كان أخوك سبباً في دخول معظمهم، لكنهم لا يعرفون، كان أخوك معرفة مشتركة بيني وبينهم جميعاً، وكلهم يثنون على تدينه وعلى جهاده في سبيل الدعوة والقضية.

ثم ضحك كي يخفف من وقع الصدمة عليّ.

– و؟! أخي أنا؟ عميل لأمن الدولة؟

– أمّال! بعد تفكير أظن أن التحقيق الأول الذي دار معك، كان غرضه إيصال رسالة للجماعة أن و فعلاً يعاني هو وأهله وأنه ليس عميلاً، ربما كانوا يشكون فيه!

– بعد ما حدث معي ومعك؛ ألا تلتمس له عذراً؟

تفكر قليلاً، ثم هز رأسه نافياً وقال:

– أتذكر أحد المعتقلين هناك، حكى لي قصة غريبة، لو لم أسمعها منه بنفسي لما صدقتها، كانوا يتهمونه في أحد تفجيرات الأقصر، والفتى يقول والله ما حصل، والله لم أفعل شيئاً! لكنهم يعذبونه ويقولون اعترف يا ابن الكلب. تعب من التعذيب، فقال أنا الذي فعلت، أخذوه إلى الضابط، أخذ يؤلف فيلماً كيف اشترى المتفجرات، وكيف وضعها، وكيف ساعده

أجانب وإيطاليون، تساءلت: ولماذا الإيطاليون تحديداً؟ ضحك الفتى وقال: لا أعرف هذا ما خطر على بالي ساعتها، المافيا وهذه الحركات! ثم قال إنهم أخذوه إلى خبير متفجرات، فحكى على مسامعه القصة نفسها، فضحك الخبير وقال إنه كذاب ولا يفقه أي شيء في المتفجرات! فغضب الضابط وقال: بتشتغلني يا ابن .....؟! ثم أعادوه إلى المعتقل وعذبوه! سألني الفتى: ما الذي يريدونه؟ قلت الحقيقة فعذبوني، كذبت فعذبوني! ولم أعرف بمَ أرد عليه. كانوا يجددون حبسه كلما نصره القضاء، يلفقون له قضايا جديدة، ثم يعيدون حبسه، بالوقت صار الحبس عالمه، وأنهى فيه دراسته الجامعية، وهو الآن يحضر الدكتوراه. أنا خرجت لأنها كما قالوا لي قرصة أذن فقط!.

– لماذا يحدث كل ذلك يا ط؟! لماذا صار و هذا المسخ؟ لماذا انتحرت خ وقتلت ابننا؟ ولماذا تزوجت ح بتلك الطريقة وتناست كل أحلامها بالحرية والانطلاق؟ ولماذا صار ج مثل من هرب منهم كي لا يصبح مثلهم؟ ولماذا قبل م أن يشوه صورة الدين مقابل الدنيا؟ لماذا ندعي أشياء ونفعل عكسها؟ لماذا نحن مليئون بكل هذا التناقض وهذا الانفصام؟ هل حب الدنيا شيطان مريد لهذا الحد يشقنا نصفين؟ أم يجب علينا أن نعيش هكذا بجباه متأففة وحواجب منعقدة وعقول منغلقة،

نرغب الموت ونكره الحياة؟

– أتذكر ذلك اليوم حين قابلتك لأول مرة، حين فرجتك على آثار الواحات؟

– نعم أتذكر، يومها قلت لي إني سأفهم يوماً ما ولم أفهم حتى الآن!

– لو انتبهت لوجدت أن هذه الواحات بها تاريخ الإنسانية منذ خُلقتْ. الرجل البدائي، ثم الفرعوني، ثم الروماني، .... حتى يومنا هذا. أليس كذلك؟ حسناً هل انتبهت لآثارهم؟ كلها مقابر وكلها جثث محنطة وكلها معابد تؤله الحكام! لا شيء نستفيد منه على الإطلاق. مدينة القصر هي الوحيدة التي يستفيد منها الناس حتى اليوم! هذه هي الحضارة! وهذا هو ديننا!. إعمار الأرض للإنسانية كلها، ندين بدين الدينا والآخرة. نبني حياةً على الأرض ونُشيّد قصوراً في الجنة. صنعنا إرثاً فكرياً وأضفنا إليه تطبيقات عملية وأسسنا لكل العلوم.

– لمَ لا نخبر العالم بكل هذا؟ لمَ لا نقوله لأنفسنا؟ لمَ صرنا هكذا؟

هز رأسه مبتسماً: أنا سأغير العالم بروايتي!.

– ومتى تكتبها يا فالح؟!

– ليس المهم متى أكتبها، المهم أن من يقرأها يؤمن بما

فيها ويحاول معي!.

ابتسمت وقلت له: أنا معك، قبل حتى أن أقرأها، حتى لو جربوا فينا البسبوسة والبسيمة وليس الجلاشة والغريبة فقط!.

ضحك: لكن طريقي طويل، قلت لك إني أنحتُ في صخور الألماس×!.

* * *

وقفتُ على الباب، حقيبتي جواري، وعرقٌ باردٌ يتفصد فوق رأسي، ضربتُ الجرس، وقفتْ أمامي بحجابها، تحمل ابننا الصغير على يدها، وكأننا الآن وحدنا في العالم، أتطلع إلى عينيها. أنا آسف. حتماً آسف. وترد بدمعتين تسيلان فوق خديها وتنحدران على وجه صغيرنا، أحتضنها فتتشبث بقميصي، وتخرج علينا أمي تضربني وتبكي وتضحك وهي تحضنني، يسألاني عما أصاب ذراعي، فأقول إنها قصة طويلة، أحمل عن ع ابننا، أقبله وأنا أسألها: هل علمتِه شيئاً؟ تجيب: ليس بعد. فأتنهد: عظيم.

ثم أخذتُ أعلمه كلمتي الله والحب،

وتركتُ له وحده أن يتعلم كلمتي الخير والإنسان.

×: الألماس هو أصلب وأقسى صخور على وجه الأرض، وهو النوع الوحيد الذي يستحيل أن يُنحتْ!. ربتتْ يميني على قلبي مبتسماً: لا تقلق.. أحضرتُ إزميلي معي.

المحتويات

الإهداء	٩
تشوهُ المتاهات	١٠
مصاحبةُ الرجل المتذمر	٢٣
تلك الحُمَّى	٣٥
هذا الوقت.. هذا المكان	٤٩
أشبـاه	٦٨
كَرُفاتِ ميت	٨٤
الوطن	١٠٠
رائحةُ القهوة	١٠٨
وقعُ الأصابع	١١٧
الحياةُ في مستنقع	١٣٤
ليالٍ ميتة	١٤٣
ضمائرُهم	١٥٢
ميلاد	١٦٥
كرمُ الأمير	١٧٦
هزيمةُ الملائكة	١٨٦
حريقُ الحدائق	١٩٥
أفروديت	٢٠١
موت	٢١٠
بعث	٢٢٠
طريقٌ طويل	٢٢٤

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨.

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» اختارها وترجمها د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «رواية الحرب اللبنانية.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

٢٨- «محمود درويش حالة شعرية» - صلاح فضل - سبتمبر - ٢٠٠٩

٢٩- «أنثى السراب (سْكْرِيبْتُورْيُومْ)» - واسيني الاعرج - أكتوبر - ٢٠٠٩

٣٠- «حيثُ السحَرة ينادون بعضهَم بأسماء مُستعارة» - سيف الرحبي - نوفمبر - ٢٠٠٩

٣١- «في غيبوبة الذكرى» (دراسات في قصيدة الحداثة) - د. حاتم الصكر - ديسمبر - ٢٠٠٩

٣٢- «وليم شكسبير (سونيتات)» - د. كمال أبو ديب - يناير - ٢٠١٠

٣٣- «العمارة الإسلامية (من الصين إلى الأندلس)» - د. خالد عزب - فبراير - ٢٠١٠

٣٤ - «نحو وعي ثقافي جديد» - د. عبد السلام المسدّي - مارس - ٢٠١٠

٣٥ - «لكي ترسم صورة طائر وقصائد أخرى من الشرق والغرب» - اختارها وترجمها د. شهاب غانم - أبريل - ٢٠١٠

٣٦ - «السرْد والكِتاب» - محمد خضيّر - مايو - ٢٠١٠

٣٧ - «طائر الشعر» - سالم الزمر - يونيو - ٢٠١٠

٣٨ - «أنا والسوريالية» - ترجمة: أشرف أبو اليزيد - يوليو - ٢٠١٠

٣٩ - «الحراك الاجتماعي الكويتي في القصة القصيرة» - د. فاطمة يوسف العلي - أغسطس - ٢٠١٠

٤٠ - «فضاءٌ لغبار الطّلع»- أدونيس- سبتمبر - ٢٠١٠

٤١ - «حجر السرائر»- نبيل سليمان - أكتوبر - ٢٠١٠

٤٢ - «حَبَّات و محَبَّات» - المنصف المزغني - نوفمبر - ٢٠١٠

٤٣ - «الخطاب الشعري الحديث في الإمارات» - (الجزء الأول) - د. صالح هويدي - ديسمبر - ٢٠١٠

٤٤ -«بابل الشعر» - أحمد عبدالمعطي حجازي - يناير ٢٠١١

٤٥ -«مرايا النخل والصحراء» - د.عبد العزيز المقالح - فبراير ٢٠١١

٤٦ -«رغبات منتصف الحبّ» - زاهي وهبي - مارس ٢٠١١

٤٧ -«المحكمة» - كريم العراقي - مارس ٢٠١١

٤٨ –«منفى اللغة» – (حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيين) – شاكر نوري – أبريل ٢٠١١

٤٩ –«الرواية العربية ورهان التجدد» – د. محمد برادة – مايو ٢٠١١

٥٠ –«مئة قصيدة وقصيدة» – د. شهاب غانم – يونيو ٢٠١١

٥١ –«حُلمٌ حقيقي» – محمود الريماوي – يوليو ٢٠١١

٥٢ –«قصائد في الذاكرة» – قراءات استعادية لنصوص شعرية – د.حاتم الصكر – أغسطس ٢٠١١

٥٣ –«جنوب غرب طروادة، جنوب شرق قرطاجة» – إبراهيم الكوني – سبتمبر ٢٠١١

٥٤ –«الفاتنـــة» – جمال بن حويرب – أكتوبر ٢٠١١

٥٥ –«الرواية والاستنارة» – د. جابر عصفور – نوفمبر ٢٠١١

٥٦ –«دونَ أنْ أرتَوي» – (قصائد مختارة) – خُلود المُعلا – ديسمبر ٢٠١١

٥٧ –«في الشعر الإفريقي المعاصر» – (جيل الرواد نموذجاً) – تقديم وترجمة د. حسن الغُرفي – يناير ٢٠١٢

٥٨ –«ينام على الشجر الأخضر الطير» – محمّد علي شمس الدين – فبراير ٢٠١٢

٥٩ –«أَصَابِعُ لُولِيتَا» – واسيني الأعرج – مارس ٢٠١٢

٦٠ –«أمين معلوف.. العابر التخوم» – بقلم/ عبده وازن – أبريل ٢٠١٢

٦١ –«رُباعيّات الرّاوي» – شعر/ حارث طه الرّاوي – أبريل ٢٠١٢

٦٢ –«الاستشراق وسحر حضارة الشرق» – د. إيناس حسني – مايو ٢٠١٢

٦٣ –رواية «فرسان الأحلام القتيلة» – إبراهيم الكوني – يونيو ٢٠١٢

٦٤ –«موريتانيا موطن الشعر والفصاحة» – موفق عبدالفتاح العاني – يوليو ٢٠١٢

٦٥ – «من أوراق صحفي عراقي» – محسن حسين – يوليو ٢٠١٢

٦٦ – «هذا العالم مجرد مسرح»، قصائد من الشرق والغرب – اختارها وترجمها: د شهاب غانم – أغسطس ٢٠١٢

٦٧ – «ألفُ حياةٍ وحياة»، للشاعر الكوري: كُو أوْن – ترجمة: أشرف أبو اليزيد – أغسطس ٢٠١٢

٦٨ – «فضاء التأويل» – د. عبد السّلام المسدّي – سبتمبر ٢٠١٢

٦٩ – «الصعود إلى الجبل الأخضر» – سيف الرحبي – أكتوبر ٢٠١٢

٧٠ – «الفراشة» – بروين حبيب – أكتوبر ٢٠١٢

٧١ – «شؤون وقضايا مسرحية» – فرحان بلبل – نوفمبر ٢٠١٢

٧٢ – «رحلة في بلاد ماركين» – أمجد ناصر – نوفمبر ٢٠١٢

٧٣ – «هواجس الرواية الخليجية» – د. الرشيد بوشعير – ديسمبر ٢٠١٢

٧٤ – «أجراس الحروف» – سيف المري – يناير ٢٠١٣

٧٥ – «في النقد التكاملي» – د. إبراهيم محمد الوحش – يناير ٢٠١٣

٧٦ – رواية «الظل الأبيض» (تجربة في الاستنارة) – عادل خزام – فبراير ٢٠١٣

٧٧ – السّردُ و أسئلة الكينونة أو «التنزُّهُ في غابَةِ السَّرد» – د. حاتم بن التهامي الفطناسي – فبراير ٢٠١٣

٧٨ – رواية «مدائن الأرجوان» – نبيل سليمان – مارس ٢٠١٣

٧٩ – «مختارات من قصائد جلال الدين الرومي» – ترجمة: تحسين عبد الجبار إسماعيل – أبريل ٢٠١٣

٨٠ – «مفاتيح لزنزانة الروح» – محمد علي الخضور – أبريل ٢٠١٣

٨١ – «لا شيء يشبهنا معاً» – عائشة محمد الشيخ – أبريل ٢٠١٣

٨٢ – «كبرياء جريح» – قصائد مختارة – تأليف: مارينا تسفيتاييفا – ترجمة وإعداد: إبراهيم استنبولي – مايو ٢٠١٣

٨٣ – «كتابات النور اللحمر» – نصوص – النور أحمد علي – مايو ٢٠١٣

٨٤ – «رُسُل المَوت» – نص مسرحي – هبة فاروق – مايو ٢٠١٣

٨٥ – «مملكة الفراشة» – واسيني الأعرج – يونيو ٢٠١٣

٨٦ – «عطب الرّوح» – زينب الأعوج – يونيو ٢٠١٣

٨٧ – «يومُ قابيل» – نوري الجرّاح – يوليو ٢٠١٣

٨٨ – «هلاوس» – نهى محمود – يوليو ٢٠١٣

٨٩ – «ضد الغياب» – عبد الصمد بن شريف – أغسطس ٢٠١٣

٩٠ – «حكايات مدن بين الهامش والمتن» – جمال حيدر – أغسطس ٢٠١٣

٩١ – «مآذن وأبراج» – حمود نوفل – سبتمبر ٢٠١٣

٩٢ – «بيضة على الشاطئ» – شريف صالح – سبتمبر ٢٠١٣

٩٣ – «سوانح» – كريم معتوق – أكتوبر ٢٠١٣

٩٤ – «زوجة الملح» – يوسف أبو لوز – أكتوبر ٢٠١٣

٩٥ – «المرأة وعالم نجيب محفوظ» – عبد الإله عبد القادر – نوفمبر ٢٠١٣

٩٦ – «في مديح الحب» – حمدة خميس – نوفمبر ٢٠١٣

٩٧ – «من الشرق الى الغرب (يوميّات)» – سيف الرحبي – ديسمبر ٢٠١٣

٩٨ – «نصف كأس من الأمل» – شعر / أحمد العجمي – ديسمبر ٢٠١٣

٩٩ – «بوابات المسرح» – محمود أبو العباس – يناير ٢٠١٤

١٠٠ – «مختارات قصصية لأدباء جائزة نوبل» – ترجمة: عبدالسلام إبراهيم – يناير ٢٠١٤

١٠١ – «السيف والمرآة – رحلة في جزر الواق واق» – علي كنعان – فبراير ٢٠١٤

١٠٢ – «التأسيس والتحديث في تيارات المسرح العربي الحديث» – د.عبدالكريم برشيد – فبراير ٢٠١٤

١٠٣ – «طرب وعُرب» – د. معلا غانم – مارس ٢٠١٤

١٠٤ – «الحياة بعين ثالثة» – عادل خزام – أبريل ٢٠١٤

١٠٥ – «(فرانكفونيون ومصريون) مختارات من القصيدة الفرنسية في مصر» – ترجمة وإعداد: أحمد عثمان – أبريل ٢٠١٤

١٠٦ – (جداريات الشام «نمنوما») – رواية – نبيل سليمان – مايو ٢٠١٤

١٠٧ – «مطر الليل وقصائد من الشرق والغرب» – اختارها وترجمها إلى العربية د. شهاب غانم – يونيو ٢٠١٤

١٠٨ – «بوق العاج» – شعر – صلاح أحمد إبراهيم – يونيو ٢٠١٤

١٠٩ – (هديرُ السَّرد الخمايسي في «السبنسة») – مصطفى عبد الله – يوليو ٢٠١٤

١١٠ – «على جناح الهوى المرأة والإبداع» – ظبية خميس – يوليو ٢٠١٤

١١١ – «هكذا تكلّمت الأغاني» – د. نجوة قصاب حسن – أغسطس ٢٠١٤

١١٢ – «الجاحظية بيتُنا (الطاهر وطار نضال في كل الاتجاهات)» – محمد حسين طلبي – أغسطس ٢٠١٤

١١٣ – «على أبواب بغداد » – رواية / قاسم حول – سبتمبر ٢٠١٤

١١٤ – «أيتها الفراشة.. يا اسم حبيبتي» – شعر / إبراهيم المصري – سبتمبر ٢٠١٤

١١٥ – «الرحلة المغربية إلى بلاد الأرجنتين وتشيلي البهية» – أحمد المديني – أكتوبر ٢٠١٤

١١٦ – «الهُوية والمنهجية بين الإبداع والتهافت» – محمد وردي – أكتوبر ٢٠١٤

١١٧ – «سِيرَةُ المُنْتَهَى – عِشْتُهَا... كَمَا اشْتَهَتْنِي» – واسيني الأعرج – نوفمبر ٢٠١٤

١١٨ – «ظاهرة العنف في الخطاب الروائي العربي» –عزت عمر – ديسمبر ٢٠١٤

١١٩ – «عمّ تبحث في مراكش» (قصص) – محمود الريماوي – يناير ٢٠١٥

١٢٠ – «عن الحب والثأر وأشياء أخرى» (قصص من الأدب العالمي) – ترجمة: سنية سلمان – يناير ٢٠١٥

١٢١ – «البوح اللطيف» (شذرات) – عبدالسلام المسدي – فبراير ٢٠١٥

١٢٢ – «بدأتُ مع البحر» (شعر) – محمد عبدالله البريكي – فبراير ٢٠١٥

١٢٣ – «الضحك تاريخ وفن» – نصر الدين البحرة – مارس ٢٠١٥

١٢٤ – «خَرائِطُ مَمْلَكَةِ العَيْنِ» – شعر– عبدالرزّاق الربيعي – أبريل ٢٠١٥

١٢٥ – «صورةٌ جَماعية لي وَحدي» – شعر– إبراهيم جابر إبراهيم – أبريل ٢٠١٥

١٢٦ – «عشق وحداد» – مختارات من الشعر العالمي– ترجمة: الرداد شراطي – مايو ٢٠١٥

١٢٧ – «الفرار في عام ١٩٣٤» – قصص صينية – تأليف: سوتونغ – ترجمة: يارا المصري – مايو ٢٠١٥

١٢٨ – «أصوات الرواية: حوارات مع نخبة من الروائيات والروائيين» – ترجمة وتقديم: لطفية الدليمي – يونيو ٢٠١٥

١٢٩ – «المسرح والشعر» – د. هيثم يحيى الخواجة – يوليو ٢٠١٥

١٣٠ – «على الهامش.. قراءات عابرة في روايات عربية معاصرة» – محمد ولد محمد سالم – يوليو ٢٠١٥

١٣١ – «جبرا إبراهيم جبرا» – د.فيصل دراج – أغسطس ٢٠١٥

١٣٢ – «النحتُ في صُخورِ الألماس» – جائزة دبي الثقافية للإبداع – الدورة الثامنة – ٢٠١٢ – ٢٠١٣ – المركز الأول في الرواية – ميسرة الهادي – أغسطس ٢٠١٥

ملاحظة:

سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤؛ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».

كتاب دبي الثقافية

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

رئيس التحرير : سيف المري

ميسرة الهادي

ها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار للكاتب والروائي ميسرة الهادي، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألو جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري

١٣٢

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار

الصدى

للصحافة والنشر والتوزيع